

مختصر
كتاب البلاء

تأليف

أبي بكر أحمد بن محمد الحمداني
المعروف بابن الفقيه

الناشر

شركة نوايج الفكر

الطبعة الاولى
1431هـ - 2011
حقوق الطبع محفوظة للناسر
شركة نوابغ الفكر

هاتف: 25936402 فاكس: 27865553

E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن الفقيه ، احمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمذاني ، 951-000
مختصر كتاب البلدان / تأليف: ابي بكر احمد بن محمد الهمذاني (ابن الفقيه - مستعار)
ط 1 - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2011
324 ص ، 24 سم
تسك : 8-87-6305-977-978
1- تقاويم البلدان
ا- العنوان

ديوى : 910,3

رقم الايداع : 2011/11366

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر

قال: قال الفضل بن يحيى: الناس أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق، ووزراء فضلهم الفطنة والرأي، وعلية أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدب، والناس بعده زيد جفاء، وسيل غثاء لكع ولكاع، وربيطة اتضاع، هم أحدهم طعامه ونومه. وقال معاوية للأحنف: صف لي الناس، فقال: رءوس رفعهم الحظ وأكتاف عظمهم التدبير، وأعجاز شهرهم المال، وأدباء ألحقهم بهم التأدب، ثم الناس بعدهم أشباه البهائم إن جاعوا سئموا وإن شبعوا ناموا، وقال: بزرجمهر لرجل: إن أردت أن تبلغ أحظى درجة الآداب وأهلها؛ فاصحب ملكا أو وزيرا فإنهما برغبتهما في معرفة أيام الملوك وأخبارهم والآداب وأهلها وقسمة الفلك ونجومه يبعثانك على طلب ذلك قال: فما وسيلتي إليهما؟ قال: انتحال ذلك رسم الإدراك والطلب مادة الوجود والآداب عند الهمة.

وقال أسامة بن معقل: كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالأسفار والأخبار وأيام العرب يدني أهلها ويمجزيهم عليها فلم يبق شيء من الأسفار والأخبار إلا حفظته طلبا للقربة منه؛ فظفرت بها، وكان موسى مغرما بالشعر؛ يستخلص أهله فما تركت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، وأعاني على ذلك طلب الهمة في علو الحال ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها، ثم زهد هارون الرشيد في هذه الأربعة وأنسيته حتى كأي لم أحفظ منها شيئا.

ودخل الشعبي على الحجاج فقال: يا شعبي أدب وافر وعقل نافر. قال:

صدقت أيها الأمير؛ العقل سجية والأدب تكلف، ولولا أنتم معاشر الملوك ما تأدبنا قال: فالمنة في ذلك لنا دونكم. قال: صدقت قال الشاعر في عبيد الله بن زياد.

علمني جودك ما لم أكن أحسنه من جيد الشعر
فصرت في الناس أخواثروة وصرت ذا جاه وذا قدر

وأنشد لغيره:

وكنت مفحماً دهرًا طويلاً فصيرني عطاؤك ذا بيان
فما شكري لخلق مثل شكري لمن كفاه أطلقتا لسان

قال: فكتابي هذا يشتمل على ضروب من أخبار البلدان وعجائب الكور والبيان فمن نظر فيه من أهل الأدب والمعرفة فليتأمله بعين الإنصاف، وليعربنا فيه حسن محضه وجميل رأيه فإن الأجدى في المذهب شأوك وقرابة دانية ورحم ماسة، ووصلة واشجة ويهب زلي لا عترافي وإغفالي لإقرار، فإني إنما ألحقت في هذا الكتاب ما أدركه حفظي وحضره سماعي من الأخبار والأشعار والشواهد والأمثال.

القول في خلق الأرض

قال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] قال: وسئل النبي ﷺ عن الأرض سبع هي؟ قال: نعم والسموات سبع، وقرأ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَمَقَدْ سَبَّعَ سَمَوَاتٍ وَبَيْنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]. فقال رجل: فنحن على وجه الأرض الأولى قال: نعم، وفي الثانية خلق يطيعون ولا يعصون، وفي الثالثة خلق، وفي الرابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاح من الماء، والسادسة سجيل وعليها عرش إبليس، والسابعة ثور والأرضون على قرن الثور، والثور على سمكة والسمكة على الماء، والماء على الهواء والهواء على الثرى والثرى منقطع فيه علم العلماء.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي: صورة الدنيا على خمسة أجزاء كراس الطير والجناحين والصدر والذنب، فرأس الدنيا الصين، خلف الصين أمة يقال لها: واق واق ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصي إلا الله، والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر وليس خلفه خلق، والجناح الأيسر الخزر وخلف الخزر أمتان يقال لإحدهما: منشك وماشك وخلف ماشك ومنشك بأجوج ومأجوج من الأمم ما لا يعلمها إلا الله، وصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر، والذنب من ذات الحمام إلى المغرب، وشر ما في الطير الذنب، وقال ابن عباس: الأرض كلها أربعة آلاف فرسخ في مثل ذلك تكون ستة عشر ألف ألف فرسخ.

وقال أمير المؤمنين - رضي الله عنه - : الأرض طولها مسيرة خمسمائة سنة؛ أربعمائة خراب ومائة عمران، قال: وفي يد المسلمين سنة، وقال أبو خلف: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، فللسودان اثنا عشر ألف فرسخ، وللروم ثمانية آلاف فرسخ وللعرب ألف فرسخ، وللفارس ثلاثة آلاف فرسخ، وذكر محمد بن موسى الخوارزمي أن دور الأرض على الفضاء تسعة آلاف فرسخ،

العمران من ذلك نصف سدسها والباقي ليس فيه حيوان ولا نبات، والبحار هي محسوبة من العمران والمفاوز التي بين العمران من العمران، وذكر بعض الفلاسفة أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك، كالمحفة في جوف البيضة، والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك وبنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أيديهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أيديهم من الثقل؛ لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد، والأرض مقسومة نصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب وهذا طول الأرض وهو أكبر خط في كرة الأرض.

كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك، وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل إلى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش واستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربعة وعشرون إصبعا، والإصبع ست حبات شعير ومصفوفة بطن بعضها إلى بعض؛ فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ، وزعم دورتيوس أن الإقليم السبعة على بروج السماء كبار عظام مدينتان في إقليم زحل ومدينتان في إقليم المشتري ومدينتان في إقليم المريخ ومدينة في إقليم الشمس ومدينتان في إقليم الزهرة ومدينتان في إقليم عطارد، ومدينة في إقليم القمر.

وقالوا أيضاً: إن الأقاليم سبعة: إقليم في أيدي العرب، وإقليم في أيدي الروم، وإقليم في أيدي الحبشة، وإقليم في أيدي الهند، وإقليم في أيدي الترك، وإقليم في أيدي الصين، وإقليم في أيدي ياجوج وماجوج، لا يدخل هؤلاء أرض هؤلاء، ولا هؤلاء إلى هؤلاء فالإقليم الأول مبتدؤه من أرض المحرقة التي تدعى باليونانية ريامياريوس ومنتهاه أرض سرنديب، وسكانه سود قباح الوجوه عراة كالسباع، وأعمارهم طويلة ودوابهم وطيورهم أعظم من عامة

البهائم والطير، وهناك رقى وعقاقير وأحجار فيها شفاء ومنافع طبيعية وفيها تنانين وهوام ذات سموم، وطوله خمسة آلاف وخمسمائة فرسخ، وعرضه مائتان وخمسة وثمانون فرسخا.

والإقليم الثاني مبتدؤه من العرض أرض سرنديب ومتهاه أرض الحبشة، وهناك معدن الزبرجد والبيغاء ومتهاه من قبل شرقيه أرض السند قريب من كابل وزابلستان وهناك سباع ضارية وحشرات وطير ممتنعة وأهلها في القبح دون الإقليم الأول، وفيها أيضا رقى وعقاقير وأهلها أقصر أعمارا من الأول، وطوله طول الأول.

والإقليم الثالث مبتدؤه عرض أرض الصغد وجرجان حتى ينتهي إلى أرض الترك وحد الصين إلى أقصى المشرق ومن غربيه نحو مصر ومن شرقيه السند وعدن ومنتهى عرضه أرض الشام وفارس وأصبهان، وهناك ناس حكماء وعرضه وطوله مثل الأول.

والإقليم الرابع بابل متوسط الإقليم وهو أفضلها مزاجا ومبتدؤه من إفريقية إلى بلخ إلى مشرق الأرض وعرضه وطوله كالأول.

والإقليم الخامس قسطنطينية والروم والخرز وعرضه وطوله كالأول.

الإقليم السادس فرنجة وأمم أخرى وفيه نساء من عادتتهن قطع ثديين وكيه في صغرهن لكثلا يعظم. وعرضه وطوله كالأول.

والإقليم السابع الترك، ورجالهم ونساؤهم متركوا الوجوه لغلبة البرد عليهم وسباعهم صغيرة الأجساد ولا يوجد هناك حشرات ولا هوام ويسكنون الظلال يتخذونها من الألواح ينقلونها على عجل تجربها الثيران وأنعامهم في الفيافي وفي أولادهم قلة، فمبلغ الأقاليم السبعة على مساحة

الإقليم الأول ثمانية وثلاثون ألف فرسخ وخمسمائة فرسخ، وعرضها ألف وتسعمائة وخمسة وتسعون فرسخا، وقسمت الأرض المعمورة أربعة أقسام: أروفي: وفيه الأندلس والصقالبة والروم وفرنجة وطنجة إلى حد مصر، ولويية وفيها مصر وقلزم والحبشة وبربر وما والاها، والبحر الجنوبي وليس في هذه البلاد خنزير بري ولا أيل ولا عير ولا تيس، وفيها تهامة واليمن والسند والهند، واسقوتيا وفيها أرمينية وخراسان والترك والخزر، وزعم هرمس أن طول كل إقليم سبعمائة فرسخ في مثله.

القول في البحار واحاطتها بالأرض

قال: البحار أربعة: البحر الكبير الذي ليس في العالم بحر أكبر منه وهو أخذ من المغرب إلى القلزم حتى يبلغ واق واق الصين، وواق واق الصين هو بخلاف واق واق اليمن؛ لأن واق واق اليمن يخرج منه ذهب سوء، وهذا البحر يمد من القلزم على وادي القرى حتى يبلغ بربر وعمان ويمر إلى الديبل والمولتان حتى يبلغ جبل الصنف إلى الصين ثم البحر المغربي الدبوري الرومي وهو من أنطاكية إلى جزائر السعادة وخليج منه أخذ من الأندلس حتى يبلغ السوس الأقصى، وعلى ساحل هذا البحر طرسوس والمصيصة والإسكندرية وأطرابلس وطول هذا البحر ألفان وخمسمائة فرسخ من أنطاكية إلى جزائر السعادة، وعرضه خمسمائة فرسخ. والبحر الثالث الخراساني الخزري لقرب الخزر منه إلى موقان إلى طبرستان وخوارزم وباب الأبواب ومن بحر جرجان إلى خليج الخزر عشرة أيام فإذا طابت لهم الرياح فثمانية أيام في البحر ويومان في البر ويسمى هذا البحر الدوارة الخراسانية وقطرها مائة فرسخ والذي يطيف بها ألف وخمسمائة فرسخ والرابع ما بين رومية وخوارزم جزيرة تسمى تولية ولم يوضع عليها سفينة قط.

وملك العرب في يديه ألف مدينة في زماننا هذا وفي يدي ملك النوبة ألف مدينة وفي يدي ملك الصين أربع مائة مدينة وستمائة مدينة من الصين في أيدي ملوك صغار، قال: واعلم أن بحر فارس والهند هما بحر واحد لاتصال أحدهما بالآخر.

إلا أنها متضادان قال: فأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقربها من الاستواء الخريفي، فلا يزال يكثر أمواجه ويتقاذف مياهه ويصعب ظهره إلى أن تصير الشمس إلى الحوت. وأشد ما تكون صعوبته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس وإذا كانت قرب

الاستواء الربيعي يتبدئ في قلة الأمواج ولين الظهر إلى أن تعود الشمس في السنبلة وألين ما يكون في آخر زمان الظهر إلى أن تعود الشمس في السنبلة وألين ما يكون في آخر زمان الربيع وهو عند كون الشمس في الجوزاء. فأما بحر الهند فإنه خلافة، لأنه عند كون الشمس في الحوت وقربها من الاستواء الربيعي يتبدئ في الظلمة والغلظ وتكثر أمواجه حتى لا يركبه أحد لظلمته وصعوبته عند كون الشمس في الجوزاء فإذا صارت في السنبلة أضواء ظلمته ويسهل مركبه إلى أن تصير الشمس في الحوت إلا أن بحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة، فأما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه لظلمته وصعوبته قال: فمن أراد الصين أو عدن أو شلاهط أخذ من ناحية المغرب على اليمامة وعمان ومن أراد السند أخذ من ناحية فارس على سیراف.

القول في البحار وعجائب ما فيها

قال الله - عز وجل - : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩] يروى عن الحسن قال: بحر فارس والروم وقال سليمان بن أبي كريمة: إذا طلعت الثريا ارتج البحر واختلفت الرياح وسلط الله الجن على المياه وتبرأ الله ممن يركب البحر أربعين يوماً، وقال النبي ﷺ : «من ركب البحر بعد طلوع الثريا فقد برئت منه الذمة».

وسئل ابن عباس عن المد والجزر فقال: إن ملكاً موكل بقاموس البحر إذا وضع رجله فيه فاضت وإذا رفعها غاضت، قال كعب: ولقي الخضر ملكاً من الملائكة فسأله عن المد والجزر فقال الملك: إن الحوت يتنفس فيشرب الماء ويرفعه إلى منخره فذلك الجزر ثم يتنفس فيخرجه من منخره فذلك المد، قال: وفي البحر سمكة يقال لها الخراطيم مثل الحية لها منقار كمنقار الكركي وفي منقارها من الشقين كالمنشار، وفيه سمكة يقال لها الأطمر لها فرج كفرج المرأة ووجهها كوجه الخنزير وهو طبق من شحم وطبق من لحم، وفي البحر سمك على خلقة القروود من جلوده تكون الدرق التي تنبوعها السيوف ويقال: إنها تحيض وترضع وكذلك السلاحف، وفيه سمك يسمى الدخس ينجي الغريق، وفيه سمك إذا هاج البحر خرج من قعر البحر فيعلم البحريون أن البحر قد هاج يسمى البرستوج وهو الذي يكون بالبصرة، وبلي هذا البحر بحر يسمى هر كند يقال: إنه قاموس البحار كلها وفي هذا البحر جزيرة سرنديب وفي هذه الجزيرة الجبل الذي أهبط عليه آدم وعليه أثر قدم آدم، وهو عظيم طويل وعليه أنواع الأفاويه والطيب وفأر المسك وفي بحره مغاص اللؤلؤ.

وفي هذه الجزيرة ثلاثة ملوك: فالملك الأكبر منهم إذا مات قطع بأربع قطع وأحرق بالنار ورجاله يتهافتون خلفه في النار حتى يحرقوا أنفسهم، وبعدها

جزيرة الرامني وهي ثمانمائة فرسخ وفيها عجائب كثيرة، وهي تشرع إلى بحر
 سلاهط والهركد وفيها ملوك كثيرة وبها الكركدن والكافور وفيها معادن
 الذهب وطعامهم النارجيل ورجالهم أقوياء يصيدون الفيلة، وفيها بقم كثير
 يغرس غرسا وحمله شبه الخرنوب وطعمه مثل العلقم لا يؤكل، ويقال: إن
 عروقه شفاء من سم ساعة وفيها الخيزران الكثير وجواميس عظيمة، وملوك
 لهم الأفويل الطيبة كالصندلين والبسباسة وليس هذا لأحد غيرهم، وبالزابع
 ببغات بيض وحر وصفر تتكلم على ما لقنت بكلام فصيح عربية وفارسية
 ورومية وهندية، ومن الطواويس خضر ورقط وبزاة بيض لها قنازع حر وإن
 بها قردة بيضا عظاما كأمثال الجواميس، وبها خلق على صورة الإنسان يتكلم
 بكلام لا يفهم يأكل ويشرب وبها من السنائر ألوان ولها أجنحة كأجنحة
 الخفاش من أصل الأذن إلى الذنب، وأن فأر المسك تحمل أحياء من السند إلى
 الزابع، وأن الزباد أطيّب رائحة من المسك والأنثى تجلب مسكا وإذا مشى في
 بيت نفحت منه رائحة المسك وإذا لمست يده عبت يده.

وذكر سليمان التاجر أن أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان وتعبأ
 بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه فإذا عبي
 المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منها يقال له مسقط وهو آخر عمان وبين سيراف
 وهذا الموضع نحو مائتي فرسخ وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط
 من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن كاوان، وفي غربي هذا البحر جبال
 عمان وفيها الموضع الذي يسمى دردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن
 الصغار ولا تسلك فيه الصينية وفيه جبل كسير وعوير فإذا جاوزت الجبال
 صرت إلى موضع يقال له صحار عمان فيستعذب الماء من مسقط من بئر بها،
 وهناك جبل فيه رعاء غنم من بلاد عمان فتختطف السفينة منها إلى بلاد الهند
 وتقصد إلى كولو ملي، وفيها مسلحة لبلاد الهند وبها ماء عذب فإذا استعذبوا
 من هناك الماء أخذوا من المركب الصيني ألف درهم ومن غيرها عشرة دنانير

إلى العشرين الدينار.

وملي من بلاد الهند، وبين مسقط وبين كولو ملي مسيرة شهر، وبين كولو ملي وبين الهرkend نحو من شهر ثم يختطف من كولو ملي إلى بحر الهرkend فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له: كله بار بينه وبين هرkend جزائر قوم يقال لهم لنج، لا يعرفون لغة ولا يلبسون الثياب كواسج لم ير منهم امرأة، يبيعون العنبر بقطع الحديد ويخرجون إلى التجار من الجزيرة في زواريق ومعهم النارجيل؛ وشراب النارجيل يكون أبيض، فإذا شرب منه فهو حلو كالعسل، فإذا ترك يوما صار مسكرا، فإن بقي أياما حمض فيبيعونه بالحديد ويتبايعون بالإشارة يدا بيد.

وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا الحديد من التجار ولا يعطونهم شيئا ثم تختطف السفينة إلى موضع يقال له: كله بار، وهي من مملكة الزابج متيامنة عن بلاد الهند يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط ثم يختطف إلى موضع يقال له: تيومة بها ماء عذب والمسافة إليها عشرة أيام ثم إلى موضع يقال له: كدرنج مسيرة عشرة أيام بها ماء عذب.

وكذلك في سائر جزائر الهند إن احتقر فيها الآبار، وجد فيها الماء العذب وبها جبل مشرف، ثم يخطف إلى موضع يقال له: الصنف ثم إلى موضع يقال له: صندرفولات وهي جزيرة في البحر والمسيرة إليها عشرة أيام ثم إلى موضع يقال له: صنج إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر، بين كل جبلين فرجة تمر فيها السفن ثم إلى الصين، ومن صندرفولات إلى الصين مسافة شهر، إلا أن الجبال التي تمر بها السفن مسيرة سبعة أيام، فإذا جاوزت الأبواب صرت إلى ماء عذب يقال له: خائفوه يكون فيه مد وجزر في اليوم والليلة مرتين.

وبقرب الصين في موضع يقال له: صنجي وهو أخبث البحار، شبيها

بصبيان الزنج طول أحدهم أربعة أشبار، يخرجون بالليل من الماء فيبيتون في السفينة ويدرون فيها ولا يؤذون أحدا، ثم يعودون إلى البحر فإذا رأوا ذلك كان علامة الريح التي تسمى الخب، وهي أخبث الرياح فيستعدون لتلك الريح ويخففون المتاع، وقالوا: إذا رأوا أعلى دقل السفينة بهذا الموضع طائرا كأنه شعلة نار فذلك عندهم من دلالة التخلص.

وإن في البحر طيرا يقال له: جرشي يكون قريبا من الساحل أعظم من الحمام يتبعه طير يقال له: جوانكرك يشبه الحمام فإذا ذرق الجرشي تلقاه الجوانكرك بمنقاره فابتلعه، وإن بقرب الزابج جبلا يسمى جبل النار لا يقدر على الدنو منه، يظهر بالنهار منه دخان وبالليل لهب النار يخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارة عذبة.

الفرق ما بين بلاد الصين وبلاد الهند

قالوا: ليس بالصين متاع أسرى، ولا أحسن مما يحمله التجار إلى العراق، فأما ما يبقى هناك فرديء، لا حسن له، ولباس أهل الصين كلهم الحرير في الشتاء والصيف، يلبس الرجل منهم خمس سراويلات حرير لندوة أسفلهم، فأما هواؤهم فحار، ولا يعرفون العمام، وطعامهم الأرز، وملوكهم يأكلون خبز الحنطة واللحم، وليس فيهم كثير نخل، ويعمل نبيذهم من الأرز، ولا يستنجون بالماء، ويأكلون الميتة، ونساؤهم يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الأمشاط، فربما كان في رأس واحدة منهن عشرون مشطا من عاج، والرجال يغطون رؤوسهم بشبه القلانس.

وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة الزواني للهند، وحيطان أهل الصين الخشب، وأكثرهم لا لحى لهم، حتى كأنهم لم تخلق لهم لحى وأهل الصين يعبدون الأوثان، ولهم كتب لأديانهم، والهند لا يأكلون الحنطة إنما يأكلون الأرز فقط وتطول لحاهم حتى ربما رأيت لأحدهم لحية ثلاثة أذرع، وإذا مات أحدهم حلق رأسه ولحيته، وهم يتلزمون بالحقوق ويمنعون في الملازمة الطعام والشراب سبعة أيام.

وأهل الهند يقتلون ما أرادوا أكله ولا يذبحونه يضربون هامته حتى يموت، ثم يأكلونه، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يأتون النساء في محيض، وأهل الصين يأتون؛ لأن آئينهم آئين المجوس، وأهل الهند لا يأكلون حتى يستاكوا ويغتسلوا، ولا يفعل ذلك أهل الصين، وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين أضعافا، وبلاد الصين أعمر وليس لهم عنب، وليس بالبلدين جميعا نخل.

وللهند السحر وهم جميعا يقولون بالتناسخ ويختلفون في فروع دينهم،

وأهل الهند أطباء حكماء منجمون، ولهم خيل قليلة، وملوكهم لا يرزقون جندهم، إنما يدعوهم الملوك إلى الجهاد فيخرجون بنفقات أنفسهم، والهند لا مدائن لهم، ويلبسون القرطين، ويتحلون بأسورة الذهب، الرجال والنساء، والهند تبيح الزنى، ما خلا ملك قمار فإنه يحرم الزنا والشراب، وبلاد الصين أنزه وأحسن، ومدنهم عظيمة مشرفة محصنة مسورة، وبلادهم أصح وأقل أمراضا وأطيب، لا تكاد ترى بها أعور ولا أعمى ولا ذا عاهة، ولهم عطاء كديوان العرب.

ويقال: إن بين الهند والصين ثلاثين ملكا أصغر ملك بها يملك ما يملكه ملك العرب، وملوك الهند كلهم يلبسون الحلي، وفي بلاد الهند مملكة يقال لها: رهمى على ساحل البحر، وملكتهم امرأة، وبلادها وبية، ومن دخل إليها من سائر الهند مات، فالتجار يدخلونها لكثرة أرباحها، ثم تصير إلى بلاد الزابج، فالملك الكبير يقال له: المهراج تفسيره؛ ملك الملوك وليس بعده أحد؛ لأنه في آخر الجزائر وهو ملك كثير الخير، وفيها غيضة فيها ورد إذا أخرج من الغيضة احترق.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فيما بين السند والهند أرض يقال لها: كنم فيها بطة من نحاس على عمود من نحاس، فإذا كان يوم عاشوراء نشرت البطة جناحها ومدت منقارها فيفيض من الماء ما يكفي زروعهم ومواشيهم وضياعهم إلى العام المقبل، وقمار من بلاد الهند.

وأهل الهند يزعم أن أصل كتب الهند من قمار، وملكه مسيرة أربعة أشهر، وعبادتهم الأصنام كلهم، وملك قمار يفتش أربعة آلاف جارية، والعنبر يؤتى به من جزيرة سلاهط، والفلفل من ملي، وسندان والبقم من ناحية الجنوب من سلاهط، والقرنفل والصندل والكافور وجوزبوا من الزابج وهو من ناحية القبلة بقرب الصين من بلد يقال له: فنصور، وماء الكافور والنيل من ناحية

السند والخيزران من بلد يقال له: لنكبالوس، وكله من ناحية خراسان، والقني من عمان، والياقوت والألماس من سرنديب، وكذلك الكركدن والطاووس والبيغاء والدجاج السندي، وجميع أنواع العطر والصيدلة.

قالوا: ومبدأ بحر الصين من جبل قاف إلى أن يجيء إلى عبادان والبصرة، وأول البحار التي تسلك غل بلاد الصين بحر صنجي، وأول جبل فيه يدعي صندرفولات وفيه حيات ربما ابتلعت البقر والرجل، فهو أشد البحار كلها وهو قليل المسافة، وعلى الجبل من الصيادين خلق لهم شباك يكون في قعر البحر فأهل المركب إذا رأوا بلاد الصين سألوا الصيادين عن الريح فيخبرونهم بهيجان البحر وسكونه؛ لأنه بحر إذا هاج فيه الريح فقليل من يسلم وإنما يقطع في عشر أو ثمان إلى بلاد الصين إلى الأبواب خاصة أبواب الصين، وذلك البحر بحر كبير وفيه ملك يدعى المهرج عظيم الملك في جزائره عجائب، وأنواع العطر، وينبت في بلاده الذهب نباتا، ويقال: غلته في كل يوم مائتا مناه ذهب.

القول في مكة

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: سميت بكة؛ لأنها كانت تبك أعناق الجبابة إذا ألدوا فيها بظلم أي: تدق، وقال إبراهيم: بكة موضع البيت، ومكة موضع القرية وسميت بذلك؛ لاجتذابها الناس من الآفاق، وقالوا: سميت بكة؛ لأن الأقدام تبك بعضها بعضا أي: تزدحم، وسمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق من الجبابة وهي أم القرى وأم الرحم؛ لأن الرحمة تنزل بها ومن أسماؤها صلاح وناسة؛ لقلّة الماء بها وبنية الأمين.

قال النبي -عليه السلام-: «ما من نبي هرب من قومه إلا هرب إلى الكعبة يعبد الله فيها حتى يموت»، وقال -عليه السلام-: «إن قبر هود وشعيب وصالح فيها بين زمزم والمقام وإن في الكعبة قبر ثلاثمائة نبي، وما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود قبر سبعين نبيا»، وقال ﷺ: «من مات في حج أو عمرة لم يعرض ولم يحاسب وقيل له: ادخل الجنة بغير حساب»، وقال ﷺ: «من صلى في الحرم صلاة واحدة كتب الله له ألف صلاة وخمسمائة صلاة»، وقال ﷺ: «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقاوة»، وقال ﷺ: «الحاج والعمار وفد الله إن سألوا أعطوا، وإن دعوا أجيبوا، وإن أنفقوا أخلف عليهم لكل درهم ألف درهم»، وقال ﷺ: «من صبر على حر مكة تباعد منه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مسيرة مائتي عام».

وقال الكلبي: لما قال إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، استجاب الله له فأمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات يجلب إليهم من الآفاق، وقيل: قرية من قرى الشام، فيقال: إنها الطائف، وقال مقاتل: من نزل بمكة والمدينة من غير أهلها محتسبا حتى يموت دخل في شفاعة محمد ﷺ، قال الله جل ذكره: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِّنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، ولم يقل مثابة للعرب دون العجم، إذ كان

اسم الناس شاملاً للفريقين فقد جعله الله مثابة للجميع، والدليل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿أَنْ طَهَّرَآ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فمن شرف مكة أمنه، ومقام إبراهيم فيه وحج الأنبياء إليه، وأن أهلها في الجاهلية كانت لقاحاً لم يؤدوا إتاوة قط ولا ملكهم ملك.

وكانوا يتزوجون في أي القبائل شاءوا، ولا يشترط عليهم في ذلك ولا يزوجون أحداً إلا بعد أن يشترطوا عليه أن يكونوا حمساً على دينهم، ويدان لهم ويتنقل إليهم، فحمسوا خزاعة، ودانت لهم وحمسوا عامر بن صعصعة ودانت لهم، حمسوا ثقيفاً، ودانت لهم سوى من حمسوا من عدد الرجال، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم، وأن يخلعوا ثياب الحل، ويستبدلوا ثياب الحرم إما شري أو عارية أو هبة، فإن أتى بذلك وإلا طاف بالبيت عرياناً، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك.

وكلفوا العرب أن تفيض من المزدلفة وهم بعد أعز العرب، يتآمرون على العرب قاطبة، وهم أصحاب الهريس والحرير والثريد والضيافة والأندية والفالودج وأول من ثرد الثريد منهم عمرو وهو هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

عَمَّرُوا الْعُلَى هَاشِمُ الثَّرِيدُ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَتُونَ عَجَافُ

ولهذا سمي هاشمًا.

ذكر البيت الحرام وما جاء فيه

قال الله تعالى ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَبَاءَ أَلْيَتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧]، عن وهب بن منبه أنه قال: إن الله عز وجل لما أهبط آدم -عليه السلام- من الجنة إلى الأرض حزن واشتد بكاءه على الجنة، فحباه الله بخيمة من خيام الجنة فوضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وكانت من ياقوتة حمراء فيها قناديل من ذهب وأنزل معها الركن، وهو يؤمئذ ياقوتة بيضاء وكان كرسياً لآدم -عليه السلام- وطول الحديث.

قال: فمن فضائل البيت الحرام أنه لم يره أحد ممن لم يكن رآه إلا ضحك أو بكى، ومن فضائله أنه لا يسقط على ظهر الكعبة من الحمام إلا العليل منها فإذا وقع عليه برئ؟ وتقبل العرق من الطير والحمام وغير ذلك، حتى إذا تحاذت الكعبة افرقت فرقتين ومالت عن ظهرها، ولم يطر على ظهرها طير قط، ومن عجائب البيت والمسجد كثرة الحمام بها، ولم يروا على طول الدهر ذرقة حمام ولا طير في المسجد ولا الكعبة.

ومن عجائبه أمن الطير والوحوش والسباع بها، ودفع الله عنها شر الحبشة والفيلة، وحججه النعمان بن المنذر وزاره، وهو ملك نصراني فجلس في سفح أجياد فبال عليه خالد بن ثوالة الكناني فما كان عنده نكير لأهل مكة، وماء زمزم دواء لكل مبتلى وقال ﷺ: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق»، وقال مجاهد في قوله الله عز وجل: ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قال: لو قال: واجعل أفئدة الناس تهوى إليهم لازدحمت عليه فارس والروم.

قال قتادة: بُنيت الكعبة من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتا، وأحد، ولبنان وحراء، وثبير، وقال مجاهد: أسس إبراهيم زوايا البيت بأربعة أحجار

حجر من حراء، وحجر من ثبير، وحجر من الطور، وحجر من الجودي.

قال قتادة: فبنى إبراهيم البيت وجعل طوله في السماء سبعة أذرع، وعرضه اثنين وثلاثين ذراعاً، بين الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي عنده الحجر من وجهه، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً، وجعل بابها في الأرض غير مبوب، حتى كان زمن تبع الحميري فهو الذي بوبها وكساها الوصائل ثياب حبرة، ونحر عندها ثم كساها النبي -عليه السلام- الثياب اليمانية، ثم كساها عثمان القباطي، ثم كساها الحجاج الديباج.

قال: ومعاوية أول من طيب الكعبة بالخلوق والمجمر وأجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت مال المسلمين، وبناه ابن الزبير بعد ما بويع له بالخلافة فلما قُتل نقض الحجاج بناءه وبناه على الأساس الأول، ثم وسع المنصور مسجد الكعبة سنة ولي الخلافة، ثم زاد فيه المهدي.

قال: فطول البيت اليوم سبعة وعشرون ذراعاً، وعرضه في الحجر أحد وعشرون ذراعاً، وذرع جوفها ما بين الركن الأسود إلى الركن اليماني بطن الكعبة خمسة عشر ذراعاً وشبر، وما بين ركني الحجر ثمانية عشر ذراعاً، وما بين الباب إلى الشاذروان خمسة أذرع، وعرض بابها أربعة أذرع، وفيها ثلاث سوار اثنان منها صنوبر، والوسطى ساج، وبعث عمر بن الخطاب إلى البيت بهلالين كبيرين فعلقا في الكعبة، وبعث عبد الملك بن مروان بالشمستين، وبعث الوليد ابنه بقدحين، وبعث أبو العباس بالصحفنة الخضراء، وبعث أبو جعفر بالقارورة الفرعونية.

وبعث المأمون بالصنم الذي وجهه إليه ملك التبت، وكان أسلم وله خبر طويل، وذرع المقام ذراع وهو مربع سعة أعلاه أربعة عشر أصبعًا في مثله، ومن أسفله مثل ذلك وفي طرفيه طوق من ذهب، وما بين الطرفين من الحجر من المقام بارز لا ذهب عليه، وطوله من نواحيه كلها تسع أصابع، وعرضه عشرة أصابع، وعرض الحجر حجر المقام من نواحيه إحدى وعشرون أصبعًا، ووسطه مربع، القادمان دخلتان في الحجر سبع أصابع دخولهما منحرف، ووسطه قد استدق من التَّمَشُّح به، والمقام في حوض مربع حوله رصاص، وعلى الحوض صفائح من رصاص مكسّر، وعلى المقام صندوق ساج في طرفيه سلستان تدخلان في أسفل الصندوق وعليهما قفلان.

قال: وذرع المسجد اليوم مائة ألف ذراع وعشرون ألف ذراع مكسّر، وعرضه من باب الندوة إلى الجدار الذي يلي الوادي عند باب الصفا ثلاثمائة ذراع وأربعة أذرع، وعرض المسجد من المنارة التي عند المسعى إلى المنارة التي عند باب بني شيبه الكبير مائتا ذراع وثمانية وسبعون ذراعًا، وفيه من الأساطين أربعمائة وخمس وستون أسطوانة، طول كل أسطوانة عشرة أذرع، وتدويرها ثلاثة أذرع، وعدد أبواب المسجد في الشق الشرقي خمسة أبواب، وفي الغربي ستة أبواب، وفي اليماني سبعة أبواب، وفي الشق الشامي ستة أبواب، وذرع الطواف مائة ذراع وخمسة أذرع.

وحدود الحرم من طريق المدينة على ثلاث أميال، ومن طريق جدة على عشرة أميال، ومن طريق اليمن على سبعة أميال، ومن طريق الطائف على أحد عشر ميلًا، ومن طريق العراق على تسعة أميال، ومن بغداد إلى مكة مائتان وخمسة وسبعون فرسخًا وثلثا فرسخ، تكون ثمانية وخمسين بريدًا، ومن البريد إلى البريد عشرون ميلًا وبين كل بريدتين مُشرف، وكل ثلاثة أميال فرسخ، ومن مكة إلى عرفات اثنا عشر ميلًا.

مدينة الطائف

اسمها وج، وسميت الطائف بذلك الطوف الذي أحاطه عليها قسي، وهو ثقيف وكانت الطائف مهرباً وملجأ لكل هارب، وبالطائف وهط عمرو بن العاص، وهو كرم كان يُعرش على ألف ألف خشبة شري، كل خشبة ألف درهم، والوهط عند العرب: دق التراب، يقال: تراب موهط أي: مدقوق، وحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط، وقال: أحبُّ أن أنظر إليه فلما رآه قال: هذا أكرم مال وأحسنه، وما رأيت لأحد مثله لولا هذه الحرة في وسطه، فقليل له: ما هذه بحرة ولكنها زبيبه، وقد كان جمع في وسط الضيعة فلما رآها من بعيد ظنَّ أنها حرّة سوداء فقال: لله درُّ قسي بأي عُش وضع أفرخه.

القول في المدينة

يروى عن النبي -عليه السلام- أنه قال: «للمدينة عشرة أسماء هي طيبة، والباقية والموفية، والمسكينة، والمباركة، والمحفوفة، والمحرمّة، والعذراء، والمسلمة، والمقدسة، والشافية، والمرزوقة»، فمن فضلها على غيرها أن وهب بن منبه قال: إني لأجد في بعض الكتب أن مهاجر النبي الأمي العربي إلى بلد يقال لها: طيبابا، وتفسير ذلك أنها طويت بالبركة، وقدس هواءها وضيب ترابها فيها مهاجرة وموضع قبره، ومن مشى بالمدينة شم بها عرفاً طيباً.

وقال أبو البختري: هي أرفع الأرض كلها لا يدخلها طاعون ولا دجال، وبظاهر بيدها ينحسف بالدجال، وبها نزل القرآن وفرضت الفرائض وسنت السنن، وبها أصول الدين والسنن والأحكام والفرائض والحلال الحرام، وبها روضة من رياض الجنة ودعا رسول الله ﷺ أن يبارك لهم في صاعهم ومدهم وسوقهم وقليلهم وكثيرهم، وبها آثار رسول الله ﷺ ومساجده وقبره وقبور أصحابه وأعمامه وأزواجه، وكل بلد في دار الإسلام فإنها فُتِحَ بالسيف إلا المدينة فإنها افتتحت بالإيمان.

وقال ﷺ: «غبار المدينة دواء من الجذام»، وقال: «حبُّ أهل المدينة محنة، فإن منافقاً لا يحبُّهم ومؤمناً لا يبغضهم»، وقال -عليه السلام-: «أهل المدينة الشعار والناس الدثار»، وقال: «المدينة معلقة بالجنة»، قال: ولما حج معاوية حرَّك المنبر يريد أن يخرج به إلى الشام فانكسفت الشمس، فقال جابر بن عبد الله: بش ما صنع معاوية ببلد رسول الله ﷺ ومهاجره الذي اختاره والله له والله ليصيبين معاوية شيء في وجهه فأصابته اللقوة نسأل الله العافية فلمّا قدم النبيُّ المدينة أقطع الناس الدور فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد وجعل للزبير بن العوام بقيعاً واسعاً وجعل لطلحة موضع داره، ولآل أبي بكر موضع داره عند المسجد، الذي صار لآل معمر، ولخالد وعمار موضع داريهما، وخط لعثمان موضع داره اليوم ويقال: إن الخوخة التي في دار عثمان اليوم تجاه باب النبي ﷺ كان يخرج منها إذا دخل بيت عثمان بن عفان.

ذكر مسجد المدينة

قال ﷺ: «من جاء إلى مسجدي لا يريد إلا الصلاة في مسجدي والتسليم علي شهدت وشفعت له، ومن سلم علي ميتا فكأننا سلم علي حيا»، وكان بناء المسجد على عهد النبي ﷺ باللبن وسقفه جريد وعمده خشب النخل، فزاد فيه عمر، ثم غيره عثمان، وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه ساجا، وبناه رسول الله ﷺ وله بابان شارعان باب عائشة، والذي يقال له: باب عاتكة، وباب في مؤخر المسجد إلى دار ثليكة، وأول من حصّب المسجد عمر، قال: والأساس اليوم معمول بالحجارة، والجدران بالحجارة المطابقة، وعمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص، وكان طوله مائتي ذراع وعرضه مائتي ذراع، وهو معنق، ومعنق سقف دون سقف، والمحراب والمقصورة من ساج.

وتراب المدينة وهواؤها أطيب ريحا من رائحة الأفايه بسائر البلدان، ويكتفي بالمدينة الرجل الأكل بقرصتين، ولا يكتفي في غيرها بخمسة أرغفة، وليس ذلك لغلظ فيه أو فساد في حبه وطحنه، ولو كان كذلك لظهر في التخم ولهم الفقه، والصحبة، ولهم حب البان ومنها يحمل إلى جميع البلدان، وهي حشيشة تنبت في باديتها وجبلها أحد.

قال رسول الله: «رضوى - رضي الله عنه - وقُدُس قُدسه الله، وأُخذ جبل يحبنا ونحبه، جاءنا سائرا إلينا متعبدا، له تسبيح يزف زفا»، ومن عجائبها جبل العرج الذي بين المدينة ومكة، يمضي إلى الشام حتى يتصل بلبنان من حمص، ويمر حتى يتصل بجبال أنطاكية والمضيصة، ويسمى هناك اللكام، ثم يتصل بجبال ملطية، وشمشاط وقاليقلا إلى بحر الخزر، وفيه باب الأبواب يسمى هناك القبق وعليه سبعون لسانا لا تعرف اللغة اللغة واللسان اللسان إلا بترجمان.

والعقيق خارج المدينة ولما رآها رسول الله ﷺ: «قال لو علمنا بهذه أولاً لكانت المنزل»، وقصر عروة بن الزبير بالعقيق وسئل بعضهم لم سمي العقيق عقيقاً قال: لأن سيله عق في الحرة، وبها الجماعات الثلاث: جماء تضارع التي تسيل إلى قصر عاصم، وبئر عروة ومكمن الجماء، وجماء أم خالد، وجماء العاقل، وبها بئر رومة ويقال: أرومة وبئر أريس وبئر بُضاعة، ويقال: إن ماء بئر رومة أعذب ماء وبالعقيق، وفي العقيق وقصوره وأوديته وحراره أخبار كثيرة، وللزبير بن بكار فيه كتاب مُفَرَّد، وفي عالية المدينة قُبَا، ومما يلي الشام خَيْبَر، ووادي القرى وتيماء، ودَّومة الجندل، وفدك وهو أقربها إلى المدينة، ومن عمل المدينة مُرَّان وقُبَا والدثينة، ويقال: الدفينة، وفلجة، وضرية وطخفة، وإمرة، وأضاح، ومعدن الحسن، وبئر غرس بقُبَا، وبئر بضاعة بالمدينة، وكانوا يستشفون بمائها.

الفرق بين تهامة والحجاز

قال الأصمعي: إذا خلفت عجلزًا مصعدًا فقد أنجدت فلا تزال منجدًا حتى تنحدر في ثنايا ذات عرق، فإذا فعلت ذلك فقد أتهمت، وإنما سمي الحجاز حجازًا؛ لأنه يحجز بين تهامة ونجد.

وقال ابن الأعرابي: الجزيرة ما كان فوق بقعة، وإنما سميت الجزيرة؛ لأنها تقطع الفرات ودجلة وبعد تقطع البر، وإنما سميت الموصل؛ لأنها وصلت بين الجزيرة والشام.

وقال ابن الكلبي: الحجاز ما يحجز بين تهامة والعروض، وما بين اليمن ونجد.

وقال جعفر: أودية نجد تسيل مشرقًا وأودية تهامة تسيل مغربًا، وقد قيل: فرق ما بين الحجاز ونجد أنه ليس بالحجاز غصًا فما أنبت الغصا فهو نجد، وما أنبت الطلح والسمر والأسل وواحدُه أسلة فهو حجاز.

وقال الأصمعي: طرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج، وأول تهامة من قبل نجد ذات عرق، وقالوا: طول تهامة ما بين جبل السراة إلى شط البحر، وطول الحجاز من حد العرج إلى السراة، فطائف والمدينة من نجد وأرض اليمامة والبحرين إلى عمان من العروض، وتهامة تسالير البحر.

القول في اليمامة

سميت اليمامة بامرأة من طسم بنت مَرَّة، وكانت منازل طسم وجديس اليمامة وما حولها إلى البحرين، ومنازل عاد الأولى الأحقاف وهو الرمل ما بين عمان إلى عدن، وكانت مساكن غسان ييثرب ومساكن أميم بالرمل، ومساكن جُرْهُم بتهائم اليمن، ثم لحقوا بمكة فنزلوا علي إسماعيل، وكانت منازل العماليق موضع صنعاء اليوم، ثم خرجوا فنزلوا مكة ولحقت طائفة منهم بالشام ومصر، وتفرقت طائفة منهم في جزيرة العرب إلى العراق، ويقال: إن فراعنة مصر كانوا من العماليق منهم فرعون إبراهيم -عليه السلام- واسمه سنان بن علوان، وفرعون يوسف اسمه الريان بن الوليد، وفرعون موسى اسمه الوليد بن مصعب، وملك الحجاز رجل من العماليق يقال له: الأرقم، وكان الضحاك من العماليق غلب على ملك العجم بالعراق وهو فيما بين موسى وداود.

صفة اليمامة وأوديتها

اليامة واديان يصبان من مهب الشمال، ويفرعان في مهب الجنوب، وعيون اليمامة كثيرة فيها عين يقال لها: الخضراء، وعين يقال لها: الهيت، وعين بجو تجري من جبل يقال له: الرام، وهو جبل معترض مطلع اليمامة يحول بينها وبين يبرين والبحرين والدو والدهناء، وبجو عين يقال لها: الهجرة، ولا يُشرب ماؤها لحبثه، وبالمجازة نهران وبأسفلها نهر يقال له: سيح الغمر، وبأعلاها قرية يقال لها: نعام، بها نهر يقال له: سيح نعام.

وأول ديار ربيعة باليمامة مبدؤها من أعلاها أولها دار هزان، قال: واليمامة لبني حنيفة، والبحرين لعبد القيس، والجزيرة لبني تغلب، وذات النسوع قصر باليمامة، والمشقر فيما بين نجران والبحرين، وبتيل حجر عليه قصر مشيد عجيب من بناء طسم، ومعنق قصر عبيد بن ثعلبة، وهو أشهر قصور اليمامة من بناء طسم على أكمة مرتفعة، والثرملية حصن من حصون طسم.

ويقول أهل اليمامة: غلبنا أهل الأرض شرقها وغربها بخمس خصال ليس في الدنيا أحسن ألواناً من نسائنا، ولا أطيب طعاماً من حنطتنا، ولا أشد حلاوة من تمرنا، ولا أطيب مضغة من لحمنا ولا أعذب من مائنا، فأما قولهم في نسائهم فإنهم دريات الألوان كما قال ذو الرمة:

كأنهم فافضة قـد مسها ذهب

وكقول امرئ القيس:

كبكر المقانـاة البيضا ضـبـb

وذلك أحسن الألوان، ويقال: لا تبلغ مولدة مائة ألف درهم إلا يمامية، وأما حنطتهم، فتسمى بيضاء اليمامة، وهي عذي لا سقي، يُحْمَل منه إلى الخلفاء، وأما تمره فلو لم يعرف فضله إلا أن التمر ينادى عليه بين المسجدين:

ييامي اليمامة، ييامي اليمامة، فيباع كل تمر ليس من جنسه بسعر اليمامي، وبها أصناف التمور وبها نخلة تسمى العُمرة، ويقال: إنها نخلة مَرَّيم، وجمعها العُمَر، والجُدَامِيَّة تمر ينفع من البواسير والصفرقان: ثمرة سوداء طيبة، والحضري، و الهجنة، والبردي، والصفراء، والققعاعي، واللصف، والصفري، والصفايا، والتعضوض، والعماني، والجعاب، والمري، وخرائف بني مسعود، والصَّرْفَان، والرُّغْرِي، والصَّنْعَانة، وزُبُّ رُبَّاح، يقال في المثل: أَلَدَّ من زُبْدٍ بَزْبٍ، وصَرَفَانٌ جَلَّاجِل، والخيل، هذه كلها تمور اليمامة ألوان ملونة.

قالوا: أجود تمر عمان: الفرض، والبلعق، والخبوت، وأجود تمر اليمامة: البردي، والزرقاء، والجُدَامِيَّة، وأجود تمر البحرين: التعضوض، والمكري، والآزاد، وأجود تمر الكوفة: النرسيان، والسابريُّ، وأجود تمر البصرة: الآزاد، والقريشاء، وأما لحم اليمامة فإنه يطيب لطيب مراعيهم، وماؤهم نَمِيرٌ يَجْلُو البلغم، وينقي الصدر، وفيها قالت الشعراء أَرْقُ من ماء اليمامة، واليمامة صُرَّة نجد ومدينة نجد حَجْرٌ.

القول في البحرين

قال أبو عبيدة: بين البحرين واليمامة مسيرة عشرة أيام، وبين هجر مدينة البحرين، وبين البصرة مسيرة خمس عشر يومًا على الإبل، وهي الخط القطيف والآة، وهجر، والبيثونة، والزارة، وجوآثا، والسابور، ودارين، والغابة، وقصبة هجر الصفا، والمشقر، والشبعان، والمسجد الجامع في المشقر، وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له: العين، ومن قرى البحرين: الحوس، والكثيب الأكبر، والكثيب الأصغر، وأرض نوح، وذو النار، والمالحة، والذرائب، والبدي، والخرصان، والسهلة والحوجر، والوجير، والطربال، والمنسلخ، والمرزي، والمطلع، والشط، والقرحاء، والرميلة، والبحرة، والرجراجة، والعرجة، فهذه قرى بني محارب بن عمرو بن دبيعة، وقرى بني عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن دبيعة أضعاف هذه، وبين مكة واليمن عشرون يومًا.

الحزون

قال أبو عبيدة: الحزون ما بين زبالة فما فوق ذلك مُضَعِدًا في بلاد نجد.

وقال أبو سعيد الضَّرِير: الحزون ثلاثة: حزن بني جَعْدَةَ، وهم من ربيعة، ثم حزن يربوع، ثم حزن بني غاضرة، وأما واقصة فهي واقعة الحزون وهي دون زبالة، وإنما سميت واقصة الحزون؛ لأن الحزون أطافت بها من كل ناحية.

والحرات

في بلاد العرب ثمانية حرّة بني سُليْم، وهي سوداء وحرّة لَفْلَف، وحرّة بني هلال وحرّة النار، وحرّة ليلي، وحرّة راجل، وحرّة واقم، وحرّة ضرغد.

والسروات

ثلاث سراة بين تهامة ونجد أدناها بالطائف، وأقصاها قرب صنعاء، والسروات أرض عالية وجبال مشرفة على البحر من المغرب وعلى نجد من المشرق والطائف من سراة بني ثقيف، وهو أدنى السروات إلى مكة، ومعدن البرم هي السراة الثانية بلاد عدوان في بركة العرب وبها معدن البلور، وهو أجود ما يكون في صفاء الماورد توجد القطعة فيها منا وأكثر، وقال الكندي: رأيت قطعة فيها مائة من.

والبراق

برقة مُنشد ما بين بني تميم وبين بني أسد، وبرقة تُهمد لبني دارم وبرقة ضاحك لبني دارم، وأبرق العزاف لبني أسد، وأبرق الحنّان لبني فزارة، وإنما سمّي أبرق العزّاف لعزف الجن بها، والحنّان؛ لأنه يسمع الحنين بها، وأبرق النعارة لطيع وغسان، وأبرق الروحان.

والدارات

في بلاد العرب سبع عشرة دارة قال ابن حبيب: الدور جمع دارة وكل أرض اتسعت فأحاطت بها الجبال في غلظ أو سهولة فهي دارة، فمن ذلك دارة وشجي ودارة جُلجل، ودارة رَفَرَف، ودارة مَكَمَن، ودارة الجُمُد، ودارة الدُّور، ودارة الكور، ودارة قَطْقَط، ودارة صُلْصُل، ودارة الجُأَب، ودارة العليق، ودارة مَأْسَل، ودارة الحَرْج، ودارة رَهْبِي، ودارة حَيْقُور، والبُهْرَة مثل: الدارة؛ لأن البهرة تكون في سهولة وغلظ جميعًا.

القول في اليمن

قال الكلبي: سميت اليمن؛ لأن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح أقبل بعد خروج ثلاثة عشر ذكراً من ولد أبيه فنزل موضع اليمن، فقالت العرب: تيمّن بنو يقطن، فسميت اليمن.

ويقال: بل سميت اليمن؛ لأنها عن يمين الكعبة، ولما جاء أهل اليمن قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن أرق قلوباً منكم وهم أول من جاءنا بالمصافحة»، وقال «الإيمان يمان والحكمة يمانية والإسلام يمان»، وقال «أهل اليمن زين الحاج»، وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، قال: سبي اليمن.

قال: وقدم رجل على النعمان بن المنذر فقال: أخبرني عن أهل اليمن. فقال: أكثر الناس سيلاً وأكثرهم جمعاً. قال: فأخبرني عن بني عامر. قال: أعجاز النساء وأعناق الطباء. قال: فتميم. قال: حجر إن وقعت عليه أذاك، وإن وقع عليك أذي، وقال رسول الله ﷺ: «إذا تعذر على أحدهم الملتمس فعليه بهذا الوجه» وأشار إلى اليمن، وفي قوله عز وجل ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، قال: هم أهل اليمن، وفضائل كثيرة، قال: فاليمن ثلاثة وثلاثون منبراً قديمة، وأربعون محدثة.

وسميت صنعاء بصنعاء بن أزال بن يقظن وهو الذي بناها وفي قوله عز وجل ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبا: ١٥]، قال: صنعاء، وقوله عز وجل ﴿غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢]، قال: كان سليمان بن داود - عليه السلام - يغدو من إصطخر ويروح بصنعاء ويستعرض الشياطين بالري، قال: وصنعاء أطيب البلدان وهي طيبة الهواء كثيرة الماء يشتون مرتين ويصيفون مرتين.

وأهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء، فيُمطر صنعاء وما والاها في حزيران وتمّوز وآب وبعض أيلول من الزوال إلى المغرب، يَلْقَى الرجل الآخر منهم فيكلمه فيقول: عَجِّلْ قبل الغيث لا بُدَّ من المطر في هذه الأيام، وكان ابن عباس يقول: مُجاهد عالم أهل الحجاز وسعيد بن جبير عالم أهل العراق وطاؤوس عالم أهل اليمن ووهب عالم الناس.

وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر ما يستصغر ما ينبت في بلاد الأكاسرة والقيصرة وقد تفاخرت الروم وفارس بالبيان وتنافست فيه فعجزوا عن مثل عُمدان ومأرب وحَضْرَمَوْت وقصر مَسْعُود وسدّ لُقْمَان وسَلْحِين وصُرُواح ومرواح وَيَنْنُون وهُنْدَة وهُنَيْدَة وفَلْثُوم بَرِيدَة، قال: أَبْعَد بَيْنُون لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ وَبَعْدَ سَلْحِين بَيْنِي النَّاسَ بَنِيَانًا، وبصنعاء عُمدان قصر عجيب قد بُني على أربعة أوجه وجه بالجروب الأبيض، ووجه بالجروب الأصفر، ووجه بالجروب الأحمر، ووجه بالجروب الأخضر، والجروب الحجارة وابتنى في داخله على ما أتقن من أساسه قصرًا على سبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا، وسقفه من رخامة واحد وجُعِلَ على كل ركن تمثال أسد من شبه كأعظم ما يكون من الأسد.

فكانت الريح إذا هبَّت من ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت جوفه من دُبْره ثم خرجت من فيه فَيُسْمَعُ له زئير كزئير الأسد وكان يأمر بالمصاييح فتسرج في بيوت الرخام إلى الصبح، فكان القصر يلعب من ظاهره كلعن البرق فإذا أشرف الإنسان ليلاً، قال: أرى بصنعاء برقًا شديدًا ومطرًا كثيرًا، ولا يعلم أن ذلك من ضوء السُّرُج فكان كذلك حتى أُحْرِقَ، وعلى ركن من أركانه مكتوب أسلم غمدانُ هادمُك مقتول فهدمه عثمان بن عفان فقتل، وقالوا: إن الذي بناه سليمان بن داود، وذلك أنه أمر الشياطين أن يبنوا لبَلْقَيْس ثلاثة قصور بصنعاء أحدها: غمدان وسَلْحِين وبينون وفيها يقول الشاعر:

هَلْ بَعْدَ عُمْدَانَ أَوْ سَلْحِينَ مِنْ أَكْبَرٍ وَبَعْدَ يَنْتُونَ يَنْبِي النَّاسُ بُنْيَانًا

قال أبو عبيدة لأهل اليمن: أربعة أشياء ليست لغيرهم: الركن اليماني في القبلة، وسُهَيْل اليماني في السماء، والبحر اليماني في البحور، واليمن في البلدان، ولهم الخطُّ المُسْنَدُ، وعَقْدُ الجُمَّل، والحساب، والخط الحُميري.

وقال الكلبي: علوج مصر القبط، وعلوج الشام جَرَجِجَة، وعلوج الجزيرة جرامقة، وعلوج السواد نبط، وعلوج السند سَبَابِجَة، وعلوج عمان المَزُون، وعلوج اليمن سامران، ويُمَكِّل العقيق من مخاليف صنعاء وأوجده ما أتى به من معدن يسمَّى مُقَرَّى، وقرية أخرى تسمَّى الهام، وجبل يقال له: قُساس فيُعْمَل بعضه باليمن ويحمل بعضه إلى البصرة.

وحدّث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبرئيل: يا مُحَمَّدُ تَحْتَمُّ بالعقيق، فقلت: وما العقيق؟ قال: جبل باليمن يشهد لله بالتوحيد، ولي بالرسالة، ولك بالنبوة، ولعلي بالوصية، ولذريته بالإمامة، ولشيعتهم بالجنة»، بها معدن الجزع وهو أنواع وجميع هذه الأنواع يؤتى بها من معدن العقيق، وأجود هذه الأنواع البقراني وأثمنها، ومنه العرواني والفارسي والحبشي والمَعْسَل والمَعْرَق.

وقال الأصمعي: أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لا تكون إلا باليمن الورس والكندر والخطر والعصب، فإما المَعْرَق من الجزع، فإنه يتخذ منه الأواني لكبره وعظمه، ولهم الحلل اليمانية والثياب السعدية والعدنية والشب اليماني وهو ماء ينبع من قلة جبل فيسيل على جانبه قبل أن يصل إلى الأرض فيجمد فيصير هذا الشب اليماني الأبيض، ولهم الورس وهو شيء يسقط على الشجر كالترنجبين، ولهم البُنْكَ ويقال: إنه من خشب أم غيلان، ومن أبنيته القشيب الذي يقال له:

أَقْفَرُ مَرْمَرٍ أَهْلُهُ الْقَشِيبُ

وعن مكحول قال: أربعة مدن من مدن الجنة: مكة والمدينة وإيلياء ودمشق، وأربعة من مدن النار: أنطاكية والطَّوَّانة وقسطنطينية وصنعاء، وبها سد أسعد الملك وهو سد بين جبلين بحجارة مربعة منقشة بين الحجرين عمود من حديد من الأسفل إلى الأعلى وقد رصص ما بين الجبلين مقدار ميلين وسمكه ثلاثمائة ذراع تنصب إليه أودية وأنهار فيرتفع الماء حتى يسقوا مزارعهم وحدائقهم، وهو أعجب سد في الأرض مكتوب عليه بالمسند أشياء كثيرة، ومن عجائب اليمن القردة وهي بها كثيرة جداً وفيهم قرد عظيم في عنقه لوح يقال: إنه عهد من سليمان بن داود - صلى الله عليه وعليه سيدنا محمد - ويقال: إن هذه القردة وكلَّهم سليمان بحفظ شياطين محبين في هذه الناحية من الجن ومن عجائبهم العدار وهو شيطان يتعرض للنساء والرجال منهم، وله أير كالقرن صلابة فيجامعه في دبره فيموت من ساعته، وفي المثل أَلُوْطُ من عَدَار، وباليمن قرية وبار وهي مسكن الجن وهي أخصب بلاد الله أنزهها لا يقدر أحد على الدنو منها الأنس.

وقال أبو المنذر: وَبَار ما بين نَجْران وحضر موت وزعمت العرب أن الله حين أهلك عادًا وثمودًا أن الجن سكنت في منازل وبار وحمتها من كل من أرادها وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرًا وأطيبها تمرًا ونخلًا وعنبًا وموزًا، فإن دنا اليوم من تلك البلاد إنسان متعمدًا أو غالطًا حثو في وجهه التراب فإن أبي إلا الدخول خبَلوه وربما قتلوه وزعموا أن الغالب على تلك البلاد الجن والإبل الخوشية والخوش من الإبل عندهم التي قد ضرب فيها فحول إبل الجن وهي من نسل إبل الجن والهندية والمهرية والعسجدية والعمانية هذه كلها قد ضرب فيها الخوش قال ذو الرمة:

جَرَّتْ رَذَائِي مَن بَلَادِ الْخَوْشِ

قال بعضهم: قدمنا البحرين فلحقنا أعرابي على ناقة له صغيرة قد أكل
الجرب جنبها ومعنا إبل لم ير الناس مثلها فقلنا يا أعرابي: أتبيع ناقتك ببعض
هذه الإبل؟ قال: والله لو أعطيتوني بها جميع إبلكم كلها ما بعتمكم. قلنا: فلك
مائة دينار. فأبى، فقلنا: ألف دينار. فأبى، ونحن في كل ذلك نهزأ به، فقال: لو
ملأتم جلودها ذهباً ما بعتمكم. قلنا: فأرنا من سيرها شيئاً. قال: نعم فسرنا فإذا
نحن بحمير وحش قد عنت، فقال: أي الحمير تريدون أعرضه لكم. فقلنا:
نريد غير كذا فغمزها ثم زجرها فمرت ما يرى منها شيء حتى لحقت الحمير،
ثم تناول قوسه فرمى فلم يخط الحمار فلم يزل يرشقه حتى صرعه ولحقناه وقد
ذبحه، فلما رأينا ذلك ساومناه بجدة فقال: ليس عندي من نسلها إلا ابن لها
وابنة ولا والله لا أبيعها أبداً بشيء.

وبأرض وبار النسناس ويقال: إن لهم نصف رأس وعين واحدة
ويصادون فيؤكلون قال: وهو شيء له وجه كوجه الإنسان وإنما له يد ورجل
في صدره ويتكلمون وهم في غياض هناك.

وباليمن جبل فيه شق يقال له: شمع يدخل منها الرجل الضخم حتى
ينفذ إلى الجانب الآخر ما خلا ولد الزنا فإنه يضيق عليه حتى لا يقدر أن ينفذ
منه، قال المدائني: كان أبو العباس السفاح أبو الخلفاء يعجبه منازعة الناس
فحضر ذات ليلة إبراهيم بن مخزومة الكندي وناس من بلحارث بن كعب
وكانوا أخواله وخالد بن صفوان فخاضوا في الحديث وتذاكروا مضر واليمن،
فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين عن اليمن الذين هم العرب الذين دانت لهم
الدنيا لم يزالوا ملوكاً وأرباباً ووزراء الملك منهم النعمانات والمنذرات
والقابوسات، ومنهم غاصب البحر وحى الدبر وغسيل الملائكة، ومنهم من
اهتز لموته العرش ومكلم الذئب، ومنهم البذاخ والفتاح والرماح ومن له
مدينة الشعر وبابها، ومن له أقفال الوفاء ومفتاحها، ومنهم الخال الكريم

صاحب البؤس والنعيم وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب من فرس رائع أو سيف قاطع أو درع حصينة أو حلة مصونة أو درة مكنونة، وهم العرب العاربة وغيرهم متعربة.

قال أبو العباس: ما أظن التميمي يرضى بقولك. ثم قال: ما تقول أنت يا خالد. قال: إن إذنت لي في الكلام تكلمت. قال: تكلم ولا تهب أحدًا، قال: اخطأ المتقحم بغير علم ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليست لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة ولا حجة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة وأنهم منّا لعلى منزلتين: إن جازوا حكمنا قتلوا، وإن جاروا عن قصدنا أكلوا يفخرون علينا بالنعمانات والمنذرات والقابوسات وغير ذلك.

مما سيأتي ونفخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام محمد -عليه السلام- فله المنة علينا وعليهم، وقد كانوا أتباعه به عرفوا وله أكرموا فمنا النبي المصطفى، والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور والمشعر الحرام وزمزم والمقام والبطحاء معها لا يحصى من المآثر فليس يعدل بناء عادل ولا يبلغنا قول قائل ومنا الصديق والفأروق وذو النورين والولي والسبطان وأسد الله وذو الجناحين، وسيف الله وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه.

ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: أعالم أنت بلغة قومك. قال: نعم. قال: فما اسم العين؟ قال الجحمة. قال: فما اسم السن؟ قال: الميذر. قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة. قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتر. قال: فما اسم اللحية؟ قال: الزب. قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكتع. قال: أفعالم أنت بكتاب الله؟ قال: نعم. قال: فإن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فنحن العرب والقرآن علينا أنزل

بلساننا ألم تر أن الله عز وجل يقول: ﴿الْنَفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ
 بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولم يقل الجَحْمَةُ بِالْجَحْمَةِ
 وَالصَّنَارَةُ بِالصَّنَارَةِ وَالْمِيذَرُ بِالْمِيذَرِ، وقال: ﴿جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧]،
 ولم يقل شناترهم في صناراتهم. وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ [طه: ٩٤]، ولم يقل
 بزُيٍّ، وقال: ﴿أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٤]، ولم يقل أكله الكنع، ثم قال
 خالد: إني أسألك عن أربع خصال لا يجعل الله لك منها مخرجاً، إن أقررت بهن
 فُهرت، وإن جحدت بهن كُفرت، قال: وما هي؟ قال الرسول ﷺ: «منا أو
 منكم»، قال: بل منكم، قال: «القرآن علينا أنزل أو عليكم»، قال: بل عليكم،
 قال: «فالبيت لنا أم لكم»، قال: بل لكم، قال: «فالمنبر فينا أو فيكم»، قال: بل
 فيكم، قال: «فاذهب فما كان بعد هذا فهو لكم»، قال: فغلب خالد إبراهيم
 فأكرم أبو العباس خالداً وحباهما جميعاً فقام خالد وهو يقول ما أنتم إلا سائس
 قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد ملكتكم امرأة وغرقتكم فأرة ودل عليكم
 الهدهد.

باب في تصريف الجذ إلى الهزل والهزل إلى الجذ

قال منصور بن عمار: خرجت في ليلة قد قيدت العيون ظلامها وأخذ بالأنفاس حندسها فما يسمع إلا غطيظ ولا يحس إلا نباح، فوجدت في بعض أبواب أهل الدنيا الذين قد سخرهم زُخرفُها وراقهم زبرجها وشغف قلوبهم بهجتها رجلا واقفا وهو يقول بصوت لم يسمع أحسن منه ولا أشجى لقلب ولا أقرح لكبد ولا أبكى لعين:

أنا المسيء المذنب الخطي المفرط البين الإفراطي
فإن تعاقب كنت أهلاً له وأنت أهل العفو عن خاطي

فلا والله أن ملكت نفسي وتذكرت ما سلف من ذنوبي ووقفت كالواله المرعوب الخائر قد امتلأت من الله خوفا وعملت على أي قد أحرزت وعظا فقلت: أيها القائل: ما أسمع والباكي على ما سلف زدنا من هذا فإن دواءك قد وافق داء قديماً فعسى أن يشفيه فزاد في صوته بترجيع قوله الذي قرح قلبي وذكرني ذنبي ثم قال:

يا ساحراً أورطني حبه وعشقه في شرايط

قلت قبحك الله واعظا وترحك وأجرني على وقفتي عليك وطلبي منك وأنت تطيع الشيطان وتعصي الرحمان ثم قلت اللهم اغفر لي وتب عليه.

وقال عوف بن مسكين سمع الربيع بن خثيم في جوف الليل رجلا يقول:
بعفوك يستكين ويستجير عظيم الذنب مسكين فقير
رجاك لعفو ما كسبت يسداه وأنت على الذي يرجو قدير

فقال الربيع أسألك بحق من ترجوه لما تريد ألا رددت ما تقول فجعل يردده فقال الربيع زدني يرحمك الله فقال:

فقد علم الإله بما ألقى من الحب الذي ستر الضمير. فقال الربيع:
واسوءتاه من استماعي دعاء لغير الله جل وعز.

ومر سفيان الثوري برجل يبكي ويقول:
أتوب إلى الذي أمسى وأضحى وقلبي يتقيسه ويرنجيه
تشغال كل مخلوق بشيء وشغلي في محبته وفيه

قال له سفيان: يا هذا لا تقنط كل هذا القنوط ولا تيأس من الله، فإن الله
يقبل التوبة من عباده وذنبك بين المقصر والغالي فإن كنت قد أسلفت ذنباً
فإنك من الإسلام لعل خير كثير استغفر الله وتب إليه وأقلل من هذا البكاء
عصمنا الله وإياك فتعم من شغلت به نفسك فقال الرجل:
عسى قلب الممكن من فؤادي يرق لترك طاعة عاذليه

فقال سفيان اللهم أعذنا من الحور بعد الكور ولا تضلنا بعد إذ هديتنا.
اعزب عزب الله بك.

وقال إبراهيم بن الفرج: مرّ خليل الناسك بغرفة مغلّد الموصلي الشاعر
وهو لا يعرفه فسمعه يقول:

أسأت ولم أحسن وجئتك هارباً وآتني لعبد غير مولاه مهرب

فوقف الخليل ومغلّد يردّد البيت ويبكي معه ثم ناداه يا قائل الخير عد يا سائل
الفصل زد فقال مغلّد نعم وكرامة يا أبا محمّد.

غزل إذا قبلته ولثمته رشفت له ريقاً من الشهد أطيب

فقال الخليل سقاك الله حميماً وغساقاً. ثم قال: اللهم لا تؤاخذني بهذا
الموقف ومضى.

وخرج عمر بن الخطاب يوماً فإذا جوار يضربن بالدفّ ويغنين ويقلن

تغنين تغنين فلهو خلقتن.

فجعل يضرب رءوسهن بالدرة ويقول: كذبتن كذبتن فأخزى الله شيطاناً رمى هذا اليكن.

وقال بعض المتعبدين: كنت أماشي بعض الصوفية بين بساتين البصرة فسمعنا ضارب طنبور يقول:

يا صباح الوجوه ما تنصفونا أنتم زدتم القلوب فتونا
كان في واجب الحقوق عليكم إذ بئسنا بكم بأن ترحموا

قال فشهو شهقة ثم آفاق وقال يا مغرور قل:
يا صباح الوجوه سوف تموتون وتبلى حدودكم والعيونا
وتصبرون بعد ذاك رمياً فاعلموا ذاك أن ذاك يقينا

ومر بعض الشعراء بنسوة فأعجبه شأنهن فأنشأ يقول:
إن النساء شياطين خلقن لنا أعوذ بالله من شر الشياطين
فأجابته واحدة:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شمم الرياحين

ومر حسين بن علي رضي الله عنه بنسوة فقال لهن: لولا أنتن لكانا مؤمنين
فأجابته واحدة منهن وقالت: لولا أنتم لكانا آمنين.

وكان عمرو الجهنني ناسكا فدخل المسجد الجامع بالبصرة فوقف على
حلقة النهديين والقرشيين وأنشأ يقول:

ما جرت خطرة على القلب مني منك إلا استترت من أصحابي
بدموع تجري وإن كنت وحدي خالياً أتبع الدموع انتجابي

أنت همي ومنيتي وهواي ورجائي وغايتي وارتيابي

قال فتصوب الفلق يستمعون إليه فأقبل عليهم وقال: هذا يقوله مخلوق لمخلوق وتدعون الخيرات الحسان المقصورات في الخيام.

وقال بشر بن أبي قبيصة: قلنا لأبي همام وقد كان غلب على عقله وما تأمر في ميراثك عن أبيك. فأقبل علينا مغضباً وقال: يا بشر أو يتوارث أهل ملتين قلت ونحن أهل ملتين قال نعم أنتم تزعمون أن الله قضى الخير ولم ييؤس الشر وأنا أزعم أن الله قضى الخير والشر، وأن من عذبه الله عذبه غير ظالم له ومن رَحِمَهُ فرحمته وسعت كل شيء.

وقال عبد الله بن إدريس: مررت بابن أبي مالك، وكان معتوهاً ذاهب العقل لا يتكلم حتى يكلم فإذا كلم أجاب جواباً معجباً فقلت يا ابن أبي مالك ما تقول في النبيذ؟ قال حلال قلت: أتشربه قال: إن شربته فقد شربه وكيع وهو قدوة قلت تقتدي بوكيع في تحليله ولا تقتدي بي في تحريمه وأنا أسنُّ منه قال: قول وكيع مع اتفاق أهل البلد معه أحبُّ إليَّ من مقاتلتك مع خلاف أهل البلد عليك.

وقال عبد الله بن إدريس: مررت بابن أبي مالك فناديته فقال: ما تشاء قلت متى تقوم الساعة؟ قال ما المسئول بأعلم من السائل غير أن من مات فقد قامت قيامته والموت أوّل عدل الآخرة. قلت فالمصلوب يعذب؟ قال: إن كان مستحقاً فإن روحه يعذب وما أدري لعل هذا البدن في عذاب من عذاب الله لا تدركه عقولنا وأبصارنا فإن الله لطفاً لا يدرك.

وكان جالساً في موضع قد كان فيه رماد ومعه قطعة جصّ فكان يخط به فيستبين بياض الجصّ في سواد الرماد فتبسّم فقلت له: أي شيء تصنع؟ قال ما كان يصنع صاحبنا مجنون بني عامر قلت وما كان يصنع؟ قال أو ما سمعته

يقول:

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الدار مولع
أخط وأنحو الخط ثم أعيده بكفّي والغزلان حولي ترتع

قلت ما سمعته فتضاحك ثم قال أما سمعت الله عز وجل يقول ألم تر إلى ربك كيف مد الظل أسمعه أم رأيته يا ابن إدريس هذا كلام العرب.

وقال خلف بن تميم عبدنا مريضاً فقال رجل ممن كان في البيت ناد رب الدار ذا المال الذي جمع المال بحرص ما فعل فأجابه من ناحية البيت:
كان في دار سسواها دارة علته بالمني ثم ارحمل

وقال بعضهم أحببت جارية من العرب ذات جمال ودأب فما زلت أحتال في أمرها حتى التقينا في ليلة ظلماء شديدة السواد فقلت: لها طال شوقي إليك قالت وأنا كذلك وإنما تجري الأمور بالمقادير فتحدثنا ثم قلت قد ذهب الليل وقرب الصبح قالت وهكذا تنفذ اللذات وتنقطع الشهوات قلت لو أدنيني منك قالت هيهات أي أخاف الله من العقوبات قلت فما دعاك إلى الحضور في هذا الموضع الخالي قالت شقوتي وبلائي قلت فما أراك تذكريني بعد هذا قالت ما أراي أنساك وأما الاجتماع فما أراي أراك ثم ولّت عني وقالت:

أخاف الله ربي من عذاب شديد لا أطيق له اضطبارا.

قال فاستحييت والله مما سمعت منها وانصرفت وقد ذهب عني بعض ما كنت أجد بها.

قال وكان سليمان بن عبد الملك شاباً وضيّاً وكان يعجبه اللباس والخمرة فلبس ذات يوم وتهيأ ثم قال لجارية له حجازية: كيف ترين الهيئة؟ قالت أنت أجمل الناس قال انشديني على ذلك فقالت:

أنت خير المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خلو من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فان

قال عبد الملك بن مروان يوما لجارية له ألقى على جلسائي صدر بيت
فأعياهم إجازته قالت وما هو قال:

نروح إذا راحوا ونغدو إذا غدوا

فقلت:

وما قليل لا نروح ولا نغدو

باب في مدح الغربة والاعتراب

قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] قال: وروى الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيث ما أصبت خيراً فأقم، واتق الله» وقال: «سافروا تغنموا» وقال ﷺ: «موت الغريب شهادة». قال أبو المليح: أتيت ميمون بن مهران، وقلت له: إني أريد سفراً، فقال: اخرج لعلك تصيب من آخرتك أفضل ما تؤمل من دنياك، فإن موسى بن عمران خرج يقتبس ناراً لأهله فكلمه الله -عزَّ وجلَّ-، وخرجت بلقيس تطلب ملكها فرزقها الله الإسلام.

وقال عمر -رضي الله عنه-: لا تلتثوا بدار معجزة، أي: لا تقيموا، وقال سفيان الثوري: لما خرج يوسف -عليه السلام- من الحب قال قائل منهم: استوصوا بالغريب خيراً، فقال يوسف: من كان الله معه فلا غربة عليه، وعن شريح ابن عبيد قال: ما مات غريب في أرض غربة غابت عنه بواكيه، إلا بكت السماء عليه والأرض، وأنشد:

إِنَّ الْغَرِيبَ إِذَا بَكَى فِي جَنَدِسٍ بَكَتِ النُّجُومُ عَلَيْهِ كُلُّ أَوَانٍ

وقال معاوية للحارث بن الحباب: أيُّ البلاد أحبُّ إليك؟ قال: ما حسنت فيه حالي وعرض فيه جاهي، ثم أنشأ يقول:

فَلَا كُوفَةَ أُمِّي وَلَا بَصْرَةَ أَبِي وَلَا أَنَا بَثْنِي عَنِ الرَّحْلَةِ

وَقُرِّيَ عَلَى بَابِ خَانَ طَرْسُوسَ:

ما من غريب وإن أبدى مجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطن

وأسفل منه مكتوب:

أبر الحمار وأبر البغل في قرن في است الغريب إذا ما حن للوطن

وقال بعضهم: غرس المشقة مع دوام الغربة يجيبان الدعة، وحسن التعب يصير إلى محل الراحة، وقال بعضهم: اطلبوا الرزق في البعد فإنكم إن لم تغنموا ما لا كثيرًا، غنمتم عقلاً كبيرًا وأنشد:

لا يمتنعك خفض العيش في دعة حين نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن خللت بها أهلًا بأهل وجيران بجيران

هذا كما قيل في الأثر: ليس بينك وبين البلدان عداوة، فخير البلاد ما احتملك، وقال بعض المحدثين:

وما بلد الإنسان غير المواقى ولا أهله الأذنون غير الأصادق

وقال آخر:

وإذا الديار تنكرت عن حالها فدع الديار وأسرع التحويل
ليس المقام عليك قرصًا لازمًا في بلدة تدع العزيز ذليلاً

وقال آخر:

إذا كنت في أرض تكرهت أهلها فدعها وفيها إن رجعت معاد

وقالو: الراحة عقلة، وقال أحمد بن المعافى:

إن الثواني أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجه مهرًا
فراشا وطيا ثم قال لها أنكي فقصرها لا شك أن يلد الفقرا

نعوذ بالله منه، وقال آخر:

أَعْرَكَ أَنْ كَانَتْ لِبَطْنِكَ عُكَّةٌ وَأَنْتَ مَكْفِيٌّ بِمَكَّةَ طَاعِمٌ

وقال الحطّيثة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَيْهَا واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ

وقالوا: قناعة الناس بالأوطان من النقص والفشل، والطلب من علم التجارب والعقل.

وقال أكثم بن صيفي: ما يسرني أني مكفيّ أمر الدنيا، وأنّي أُسَمِنْتُ وَأُلْبِنْتُ.

قالوا: ولم؟

قال: مخافة عادة العجز.

وقالوا: لا توحشك الغربة إذا آنت بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار.

وقالوا: الفقر أوحش من الغربة، والغنى آنس من الوطن، وترك الوطن أدنى إلى فرح الإقامة.

وقيل: الفقير في الأهل مصروم، والغني في الغربة موصول.

وقالوا: أوحش قومك ما في إيحاشهم أنسك، واهجر وطنك ما تبث عنه نفسك.

وقالوا: إذا عدمت أنكرك قريبك، وإن أثريت عرفك غريبك.

وقال قس بن ساعدة: أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات، وأفضل الذكر ذكر الله، وخير الزاد التقوى، وأحسن الجواب الصمت، وأزين الأمور

الاحتمال، والحزم شدة الحذار، والكرم حسن الاصطبار، وفي طول الاغتراب فوز الاكتساب.

وقال آخر: تألّفوا النعم بحسن مجاورتها، والتمسوا المزيد بحسن الشكر، واغتربوا لتكسبوا، ولا تكونوا كالنساء اللاتي قد رضىن بالكن، واقتصرن على القعود فإن الغربية تخرّج الغمر، وتشجّع الجبان، وتحرك المضطجع، وتزيد بصيرة الماهر.

وقال: الفقر في أوطاننا غربة، والمال في الغربية أوطان.

وقال آخر: لا يألف الوطن إلا ضيق العطن، وقال آخر: ما حنّ أحد إلى بلد جمع فيه شمله إلا لوصمة في عقله، ولا تنزع بامرئ نفسه إلى بلد قلّ به رفته إلا لاستيلاء الموق عليه.

وقالوا: الحنين إلى الأوطان من أخلاق الصبيان، وفي طول الاغتراب فوز الاكتساب، وفي فائدة صالح الإخوان مع النزوح عن الأوطان سلو عن مقارنة الجيران، ولولا اغتراب الناس في محالهم لضاقت بهم البلدان، وسئم ألفهم الإخوان، ومن طالب أخاه بمحلّه قلّت هيئته، وسئمه أهله، وتمنّوا الراحة منه.

قال: ولولا اغتراب المغترين ما عُرف ما بين الأندلس إلى الصين، ولا ردّم الإسكندر السدود، ولا دوّخ الأقاليم ومدّن المدّن، وبخع له ملوكها بالطاعة، ولا قُتل دارا بن دارا، ولا أسر الأساورة، ولا جمعت الملوك بين الصفائح اليمانية، والقضب الهندية، والرّماح البلوصية، والأسنة الحزريّة، والأعمدة الهروية، والأجرزنة الأشروشية، والخناجر الصغدية، والسروج الصينية، والدروع السابرية، والجواشن الفارسية، والقسي الشاشية، والأوتار التركية، والسهام الناوكية، والجعاب السجزيّة، والدرق المغربية والأترسة التبتية، والجلود الزنجية، والنمور البربرية، واللجم الخاندية، والركب المروزيّة،

والستور الصينية، والخليل الحزريّة، والكراسيّ القميّة، والشهاريّ البخاريّة،
والبغال الأرمينية، والحمير المريسيّة، والكلاب السلوقيّة، والبزاة الروميّة،
والصوألجة النهاونديّة، والثياب المنيرة الرازيّة، والأكشية القزوينيّة، والثياب
السعيديّة، والحلل اليمانيّة، والأردية المصريّة، والملاحم الخراسانيّة، والثياب
الطاهريّة، والحلل الأندلسيّة، والدّر العُمانيّ، والياقوت السّرندبيّي، والحرير
الصينيّ، والخرّ السوسيّ، والديباغ التُسُريّ، والبزبون الروميّ، والكتّان
المصريّ، والوشى الكوفيّ، والعتّابيّ الأصبهانيّ، ولا عُلّم أن ببلاد المغرب
ومصر عجائب لا تكون إلا بها مثل: منارة الإسكندريّة، وعمود عين الشمس،
والهرمان، وجسر أذنة، وقنطرة سُنْجَة، وكنيسة الرُّها، وسور أنطاكية، والأبلق
الفرد، وبُرهوت وهاروت والفرس الذي في أقصى المغرب، والأسد الذي
بهمذان، والسمكة والثور بنهاوند، وإيوان كسرى بالمدائن، وتحت شُبْدِيز في
الطاق، وبناء قصر شيرين، والدكان، وأساطين قصر اللصوص، وعجائب
رُوميّة، والتمساح بالنيل، والرّعاد والسقنقور، وغير ذلك مما لا يحصى ولا
يُعدّ.

وقالوا: أبعد الناس نَجعةً في الكسب بصريّ وحميريّ، ومن دخل فرغانة
القصوى والسوس الأقصى فلا بدّ أن يرى فيها بصريّاً أو حميريّاً، على أن أهل
أصبهان والخور معروفون بذلك، ويجد في كلّ بلد منهما صفّاً قائماً، ومما قالوا في
التقلّب في البلدان والتباعد في الأطراف، قول أبي العتاهيّة في الرشيد:

ولولا أمير المؤمنين وعدّله	إذا لبغى بعض البلاد على بعض
وسياره هارون في الأرض بالهدي	ليحكّم بالإبرام لله والتنقض
لئن كان ذو القرنين أدرك غايه	لحسبك من هارون ما سار في الأرض

وقال آخر في غزوة خراسان:

وما كان ذو القرنين يبلغ سعيه ولا غزو كسرى للهياطة الجرد

وَجَوَّابُ آفَاقٍ وَطَّلَاعُ أَنْجَدٍ وَطَّلَابُ وَثَرٍ لَا يَنَامُ عَلَى حَقْدٍ

وقال آخر في تقلبه في البلاد:

خَلِيفَةُ الْخَضِرِ مَنْ يَزْبَعُ عَلَى وَطَنِ فِي بَلَدَةٍ فَظُهُورُ الْعَيْسِ أَوْطَانِي
بِالشَّامِ دَارِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَطْنِي بِالرَّقَمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تُسَافِرَ بِي أَقْصَى خُرَاسَانِ

وقال الطائي:

إِنْ تَرَانِي تَرَى حُسَامًا صَقِيلًا مَشْرِفِيًا مِنَ السُّيُوفِ الْحَدَادِ
ثَانِي اللَّيْلِ ثَالِثَ الْيَدِ وَالسَّيْرِ نَدِيمَ التُّجُومِ تَرْبَ الشُّهَادِ
كَلِمَ السَّخْرِ لِي يُصْبِرُنِي بَعْدَكَ عَيْنًا عَلَى عِمَارِ الْبِلَادِ
لَيْلَةً بِالشَّامِ ثُمَّتَ بِالْأَهْوَا يَوْمًا وَلَيْلَةً بِالسَّوَادِ
وَطْنِي حَيْثُ حَطَّتِ الْعَيْسُ رَحْلِي وَذِرَاعِي الْيُوسَاذُ وَهُوَ مِهَادِي

وقال آخر في شبيهه هذا المعنى:

قَسَّبَحَ اللَّهُ أَلْ بَرَمَسَكَ إِنِّي صِرْتُ مِنْ أَجْلِهِمْ أَخَا أَسْفَارِ
إِنْ يَكُ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَدْ مَسَحَ الْأَرْضَ ضَ فِإِنِّي مُوَكَّلٌ بِالْعِمَارِ

ويقول الشاعر للمعتصم بالله:

تَنَاوَلْتَ أَطْرَافَ الْبِلَادِ بِقُدْرَةٍ كَأَنَّكَ فِيهَا تَبْتَغِي أَثَرَ الْخَضِرِ

قال: وقد كانت للخلفاء فتوح، ولكنه لم يتسق لأحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله؛ إلا أن فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد إلى ملكها، فبلغا في ذلك ما لم يبلغه أحد في الإسلام من الملوك، وللمعتصم ست فتوح عظام جليلة لم يحارب في واحدة منهن إلا من قصد المسلمين دون ملكه خاصة.

فمن ذلك: مازيار ملك طبرستان، بعد أن غلب وقتل وتمكّن من تلك القلاع والجبال المنيعة والسبل الوعرة؛ حتى ظفر به وقتله.

ومن ذلك بابك: كسر العساكر، وفلّ الأجناد، وقتل القوّاد، وأخرب البلاد، وملاّ القلوب هيبة وخافة، فأخذه أسيراً وقتله وصلبه إلى جانب مازيار.

ومن ذلك فتح عمورية وهزيمة الطاغية أمير ياطيس، صاحب الضّواحي فأسره وصلبه إلى جنب بابك ومازيار.

ومن ذلك استباحته الرُّطّ حتى اجتثّ أصلهم وأباد خضراءهم، بعد أن منعوا بغداد الميرة، وقتلوا القوّاد، وغلبوا على البلاد، وبعد أن رامهم خليفة بعد خليفة.

ومن ذلك أمر جعفر الكرديّ وإخافته السبل، فظفر به وقتله.

ومن ذلك ما كان منه في أمر الهند وشقّ الهند كلّها؛ حتى ظفر من عدد البرّوج ورؤساء الهند، وإبطال المقاتلة، وأخرب السواحل على يدي عمر بن الفضل الشيرازي.

ثم خليفتنا المعتضد بالله اتّسق له من الفتوح الجليلة العظيمة مثل ذلك، فمن ذلك أسره هارون الخارجيّ الشاري، بعد أن كان قد تغلّب على البلاد ومنع الميرة من جميع الآفاق.

ومن ذلك قصده لآل عبد العزيز بن أبي دؤف، بناحية الجبل حتى اجتثّ أصلهم واستباح حريمهم.

ثم ما كان من شأن رافع بن هُرَيمَةَ وخلعه الطاعة، فحمل رأسه إلى مدينة السلام، ثم أمر محمد بن زيد العلوي بطبرستان بعد أن تمكن من القلاع والحصون التي لا ترام، بعد أن كانت الخطبة قد انقطعت عنهم ثمان وثلاثين سنة بمقامه ومقام الحسن بن زيد، وكان دخول الحسن بن زيد إليها في المحرم سنة ٢٥٠هـ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٢٧٠هـ، وصار مكانه أخوه محمد بن زيد فقتل - رحمه الله - بجرجان يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة ٢٨٧هـ. ومن ذلك عمرو بن الليث الصفار وقتله إياه، ومن ذلك فتح آمد، وهي أحصن مدينة في بلاد العرب، وإيقاعه بابن الشيخ، وأخذه أسيرًا.

ثم أمر وصيف الخادم وخروجه إليه بنفسه إلى تخوم أرض الروم حتى أوقع به وأخذه أسيرًا، ثم قتله وصلبه.

وكان الحسن بن علي - عليه السلام - يتمثل:

مَنْ عَادَ بِالسَّيْفِ لَا قَىٰ فُرْصَةً عَجَبًا مَوْتًا عَلَىٰ عَجَلٍ أَوْ عَاشَ مُتَّصِفًا
لَا تَرْكَبُوا السَّهْلَ إِنَّ السَّهْلَ مَفْسَدَةٌ لَنْ تُلْرِكُوا اللَّجْدَ حَتَّىٰ تَرْكَبُوا غُشًّا

وقالوا: ليكن اليقين من أفضل سلاحك والرضا بالقضاء من أفضل أعوانك والجد في طلب الخير من بالك وأنشد:

فَلَا تُحْسِبَنَّ الرَّزْقَ بَابًا سَدَّ ذَنَّهُ عَلَيَّ وَلَا آتَىٰ إِلَيْكَ فَقِيرٌ
فَفِي الْعَيْسِ مَنَاجَاةٌ فِي الْأَرْضِ مَذْهَبٌ وَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ سِوَاكَ كَثِيرٌ

وكتب بعضهم إلى أهله من بلاد بعيدة:

كِتَابِي إِلَيْكُمْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ تَحْسَبُهَا كَنَى لَا يَضُرُّ بِيَ الْفَقْرُ

وأنشد:

اضْبِرْ لَهَا فَالْحُرَّ صَبَّارُ أَوْ اشْكُهَا إِنْ مَسَّكَ الْعَارُ
دَائِرَةٌ دَارَتْ عَلَىٰ عَاقِلٍ لَمْ يَخْشَسْهَا وَالْدَّهْرُ دَوَّارُ

نَبَتْ بِكَ الدَّارُ فَمِنْ أَمْنَا فَلَلْفَتَى حَيْثُ انْتَهَى دَارُ

ولبعضهم:

تَبَدَّلَ بِدَارٍ غَيْرِ دَارِكَ مَوْطِنَا إِذَا صَعُبَتْ فِيهَا عَلَيْكَ الْمَطَالِبُ
فَمَا الْكَرَجُ الدُّنْيَا وَلَا النَّاسُ قَاسِمٌ وَفِي غَيْرِهَا لِلطَّالِبِينَ مَكَاسِبُ

وللطائي:

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِإِدْبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرِبَ تَتَجَدَّدُ
أَلَمْ تَسِرْ أَنَّ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدُ

وقالوا: العُسر في الغربة مع العز خير من اليُسْر في الوطن مع الدُّل.

وقيل لآخر: ما العيش؟ قال: دَوْرَانِ البلدان، ولقاء الإخوان، ومغازلة
القيان، ومرافقة الفتيان، واستماع النغمات من الزير والمثاني.

وقيل لآخر: ما السرور؟ قال: غيبة بعد غِنَى، وأوبة تُعَقِّبُ مَنَى.

وقال آخر:

سَرَى طَيْفُهَا نَحْوَ افْرِئِ مَتَطَوُّوحٍ طَلَّيْحَ سِفَارِ أَسْفَعِ اللَّوْنِ
تَرَاهُ كَنَظْلِ السَّيْفِ أَضْدَا صَفْحَةً مَقَادِمُهُ وَالنَّضْلُ مَا هِيَ
تَغَرَّبَ يَنْغِي الْيُسْرَ لِنَفْسِهِ خُصُوصًا وَلَكِنْ لَابَنَ عَمٍّ وَصَاحِبِ
وَمَا عُدُّ ذِي الْعِشْرِينَ وَالْخُمْسِ قَاعِدًا وَلَمْ يُبَلِّ عُدْرًا فِي طِلَابِ الرِّغَائِبِ
وَمَنْ لَا يَزَلْ يَخْشَى الْعَوَاقِبَ لَا يَزَلْ مَهِيئًا رَهِينًا فِي حِبَالِ الْعَوَاقِبِ
وَأَشْفَقَ مِنْ اسْمِ التَّنَكُّرِ مُفْتَرَا فَلَمْ يُنْجِهِ إِلَّا نِجَاءَ الرِّكَائِبِ

ولعبد الله بن طاهر:

وَأَسْوَأَتِي لَا مَرِيءَ شَيْبَتُهُ فِي عُنُقَوَانٍ وَمَاؤُهَا خَضِيلُ

وَهُوَ مُقِيمٌ بِدَارِ مَضِيعَةٍ رَاضٍ بِدُونِ الْمَعَاشِ مُتَضَعٌ
 لَا حِفْظَ اللَّهِ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ كَلَّا وَرَبِّي حَتَّى يَكُونَنَّ قَتَى
 تَسْمُو بِهِ هَمَّةٌ مُنَازَعَةٌ نَالٍ بِسَلَامِنَةٍ وَلَا ضَرَعَ
 إِلَّا بَعَضُ أَوْ مَثَبُ شُفْرَتِهِ حَتَّى مَتَى يَضْحَبُ الرَّجَالُ وَلَا
 طِبَاعُهُ فِي اصْطِنَاعِهِ الْفِشْلُ عَلَى ثَرَاثِ الْآبَاءِ مُتَكِلٌ
 وَلَا رِعَاءَ مَا حَنَّتِ الْإِبِلُ قَدْ نَهَكَتُهُ الْأَسْفَارُ وَالرَّحَلُ
 وَطَرَفُهُ بِالسُّهَادِ مُكْتَحِلٌ وَلَا بُوْجِهَ تَقْوُتُهُ الْحِجَلُ
 كَفَّ تَحْطَى بِهَا قَتَى بَطَلٌ يُضْحَبُ يَوْمًا لِأُمِّهِ الْهَبَلُ

وكان عمرو بن العاص يقول: عليكم بكل أمر مُزْلِفَةٌ مهلكة أي: عليكم بجسام الأمور، ولما نظر معاوية إلى عسكر أمير المؤمنين - رضي الله عنه - قال: من طلب عظيمًا خاطر بعظيمته، يعني برأسه.

وكان يقال: من سرّه أن يعيش مسرورًا فليقتنع، ومن أراد الذكر فليجتهد، ومن أراد أن يعتبر فليغترب.

وقالوا: لا ينبغي للعاقل أن يكون إلا في إحدى منزلتين: إما في الغاية القصوى من الدنيا والطلب لها، أو الغاية والنهاية من الترك لها.

وقال آخر: الدنيا مرعى فمن وجد الكلأ في موضع فليلزمه.

ولأبي نواس:

أَرَى النَّفْسَ قَدْ أَضْحَتْ تُثَوِّقُ إِلَى مَضْرٍ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَلِلْخَفْضِ وَالْغِنَى
 سَأَزْمِي بِنَفْسِي عَنْ قَرِيبِ أَمَامِهَا لَأَنَّ الَّذِي قَدْ قَدَّرَ اللَّهُ كَائِنٌ
 وَمِنْ دُونِهَا جُوبُ الْحُرُونَةِ أَسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أَسَاقُ إِلَى قَبْرِ
 وَأَتْرُكُ قَوْلَ الْعَاذِلِينَ ذَوِي الزَّجْرِ أَلَا إِنَّمَا تَجْرِي الْأُمُورُ عَلَى قَدَرٍ

وقال آخر: السلامة إحدى العصمتين، والمرأة الصالحة إحدى الكاسيين،
واللبن إحدى اللحمين، والعادة إحدى الطبيعتين، والدعاء للسائل إحدى
الصدقتين، وخفة الظهر أحد اليسارين، والغربة إحدى اللذتين.

وأنشدني صديق لابن عبدوس الكاتب:

رَعِمَ الَّذِينَ تَشَرُّقُوا وَتَغْرُبُوا أَنْ الْغَرِيبَ وَإِنْ أُعِزَّ ذَلِيلُ
فَأَجَبْتُهُمْ إِنَّ الْغَرِيبَ إِذَا اتَّقَى حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهِ الرِّكَابُ جَلِيلُ
قَالُوا الْغَرِيبُ يَهَانُ قُلْتُ مَجْلِدًا إِنَّ الْإِلَهَ بَنَصْرِهِ لَكَفِيلُ
قَالُوا إِذَا مَاتَ الْغَرِيبُ بَبْلَدَةٍ أَذِلِّي وَلَمْ يُسْمَعْ عَلَيْهِ عَوِيلُ
قُلْتُ الْغَرِيبُ كَفَاهُ رَحْمَةُ رَبِّهِ وَغَنَى الْبُكَاءِ عَنِ الْفَقِيرِ قَلِيلُ

وله أيضًا:

يقولون لي لا تَغْرِبْ قُلْتُ إِنِّي
إِذَا كُنْتُ ذَا عُسْرٍ وَحَالٍ خَسِيسَةٍ
وَإِنْ كُنْتُ ذَا مَالٍ وَحَالٍ جَلِيلَةٍ
إِذَا مَا اتَّقَيْتُ اللَّهَ غَيْرُ غَرِيبٍ
أَمِنْتُ شِمَانَاتٍ بِهَا لِقَرِيبٍ
فَأَخَذَرُ أَنْ لَا يُطَيَّبُونَ عُيُوبِي

القول في مصر والنيل

قال الكلبِيُّ: سُمِّيتِ مِصْرُ بِمِصْرَ بْنِ أَيْنَمَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ، وافتتحها عمرو بن العاص، وروي في قول الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال مصر.

قال ابن السِّكِّيت: سميت مصر؛ لأنها الحُدُّ، وأهل هَجَرَ يكتبون في شروطهم، اشترى جميع الدار بمصورها، أي: بحدودها.

قال عَدِيُّ بْنُ زَيْدِ التَّمِيمِيِّ:
وَصَبَّرَ الشَّمْسُ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلَا
أي حدًا حاجزًا.

وقال عبد الله بن عمرو: من أراد أن ينظر إلى الفردوس؛ فليُنظر إلى مصر حين تُنْحَرُث.

ورُوي عن الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، عن ابن مسعود مرفوع، قال: ينادي يوم القيامة منادٍ من السماء، يا أهل مصر.

فيقولون جميعًا أو لهم وآخرهم: لبيك.

فيقال: إن الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: "ألم أؤمن عليكم بسكنى مصر، وأطعمتكم فيه الخمر والخمير، وصيد طير السماء، وحيثان البحر والماء العذب".

فيقولون: بلى ربنا.

وأرض مصر محدودة أربعين ليلة في مثلها، وكانت منازل الفراعنة، وكان اسمها باليونانية "مَقْدُونِيَّة"، وطول مصر من الشَّجَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَيْنَ رَفَحَ والعَرِيشِ إلى أُسْوَان، وعرضها من بَرْقَّةَ إلى أَيْلَةَ، وهي مسيرة أربعين ليلة في أربعين ليلة، ومن بغداد إلى مصر خمس مائة وسبعون فرسخًا، يكون ذلك أميالًا ألف وسبع مائة وعشرة أميال.

قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: البركة عشر بركات، في مصر تسع بركات، وفي الأرض بركة واحدة، والشرُّ عشرة أجزاء، بمصر جزء واحد، وفي الأرض كلها تسعة أجزاء.

وأما معنى قولهم: عمر مَصْرُ الأمصار، فإنه لم يحدث إلا البصرة والكوفة، وقد تفعل العربُ هذا فتسمِّي الاثنين باسم الجميع.

وقال الحسن: مَصْرُ عمر سبعة أمصار: المدينة، والبحرين، والبصرة، والكوفة، والجزيرة، والشام، ومصر.

وقال أبو الخطاب: لم يذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- شيئًا من البلدان باسمه في القرآن ما ذكر مصر حين قال: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، وقال أيضًا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧]، وكنّاها -فقال عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٣٠]، وسماها الله -عَزَّ وَجَلَّ- الأرض فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]، وسمى الله -عَزَّ وَجَلَّ- ملكها العزيز فقال: ﴿قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨].

وأخبرني شيخ من آل أبي طالب قال: رأيت بمنف من كور مصر، دار فرعون، ودرت في مجالسه ومشارفه وغُرْفِهِ وصفافه، فإذا كله حجر واحد

منقور، فإن كانوا لاحكوا بينه حتى صار في الملامسة لا يستين فيه مجمع حجرين، ولا ملتقى صخرتين، فهذا عجبٌ، وإن كان حجرًا واحدًا فنقرته الرجال بالمناكير حتى تحرقت فيه تلك المخارق إن هذا لأعجب.

والنيل قد سمّاه الله بحرًا قال الله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] واليَمُّ ها هنا النيل، وهي ذات عيون سفّاحة.

ومن مفاخر أهل مصر مارية القبطيّة أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وتزوَّج خمس عشرة امرأة، وتوفي ﷺ عن تسع، وحرّم الله -عزّ وجلّ- مارية على الرجال بعد أن ولدت إبراهيم من بعد وفاة النبي -عليه السلام- كما حرّم سائر نسائه.

ومن مفاخر مصر هاجر أم إسماعيل ﷺ الصادق الوعد، وقال النبي ﷺ: «إذا استفتحتُم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإنّي لهم صهر» وقالوا: لو عاش إبراهيم ما مُلكت قبطية أبدًا.

قالوا: وأرض السودان مسيرة سبع سنين، فما فضل عنهم من مائها صار إلى مصر، وأرض مصر جزء من ستين جزءًا من أرض السودان، وأرض السودان جزء من ستين جزءًا من الأرض.

ومن مفاخر مصر وسكانها من القبط مؤمن آل فرعون، والسحرة، وأصحاب التوبة النصوح، وهاجر، وآسيّة، وأم إبراهيم، وفي نسائهم مُلح، وهن يُشبهن في الحظوة البربريات، والقبط أحذق في الكمانكيّة، واللعب من السند، ومع القبط خفة عجيبة.

وبمصر جبل المقطم، ويروى عن كعب أنه قال: جبل مصر مقدّس من القصير إلى اليحموم، وسأل كعب رجلًا يريد مصر فقال: أهديني تربة من سفح

مقطمها، فأتاه بجراب فلما توفي أمر به ففُرش تحت جنبه في قبره، وقالوا: جبل الزمرد من جبال البجة موصول بالمقطم، والمقطم جبل مصر.

وقال ابن هبة: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم كله بسبعين ألف دينار، فكتب عمرو إلى عمر.

فقال عمر: سله لم أعطانا بها وهي لا تُستنبط ولا تُزرع؟

فقال: إني أجد في الكتب أن فيه غرس الجنة.

فأعلم عمرو عمر ذلك، فكتب إليه: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين، فأقبر فيه من مات من المسلمين ولا تبعه بشيء، فكان أول من قُبر فيه رجل من العافر يقال له: عامر، فقيل: عُمرت.

ومدينة فسطاط هي مدينة مصر سميت بذلك؛ لأن عمرو بن العاص ضرب فسطاطه بذلك المكان بباب اليون، وسويقة وزدان بمصر.

ويمصر حائط العجوز على شاطئ النيل، بته عجوز كانت في أول الدهر ذات مال، وكان لها ابن، وكان واحدا فقتله السبع، فقالت: لأمنعن السباع أن ترد النيل فبنت ذلك الحائط حتى لا تصل السباع إلى النيل.

ويقال: إن ذلك الحائط كان طلسمًا، وكان فيه تماثيل كل إقليم على هيئتهم وزيمهم والدواب والسلاح، وكل أمة مصورة في طرقها التي تجيء منها، فإذا أراد أهل إقليم غزو مصر وانتهوا إلى تلك الصور انصرفوا.

ويقال: بُني ذلك ليكون حاجزًا بين أهل الصعيد والنوبة؛ لأنهم كانوا يغيرون على أهل الصعيد ولا يستعرفون، فبُني ذلك من أجل النوبة.

وقيل: أمر بعض الملوك أفلاطون فبنى بناحية مصر مما يلي البرّ حائطاً طوله ثلاثون فرسخاً ما بين الفَرَمَا إلى أسوان حاجزاً بينهم وبين الحبشة.

وبالفسطاط صورة امرأة من حجر عظيمة قاعدة على رأسها إجانة، وعلى كل واحدة من ركبتها درّجة إلى غُرْفَةٍ تسمّى أم يزيد الخولانية.

وقالوا: البطّ ترعى بمصر كما ترعى الغنم، وبها الثعابين وليس هي في بلد غيرها، وإليها حوّل الله عصا موسى، قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِي ظَهِيرٌ لِّأُولَئِكَ أَنِ حَاكِمٌ فَغِيَتِ الْحَصَىٰ فَمُيِّنًا فَجِئْنَا بِهَا طَوِيلًا مِّنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني أنه حولها ثعباناً، ومن أعاجيب مصر النّمس، وليس ذلك لأحد غيرهم، وهي من أعاجيب الدنيا، وذلك أنها دويبة متحرّكة كأنها قُديرة، فإذا رأت الثعبان دنت منه فينطوي الثعبان عليها؛ يريد أن يعصّها ويأكلها، فتزفر زفرة تقدّ الثعبان بقطعتين وربّما قطعته قطعاً، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر، وهي هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سِجِسْتَان، وسجستان بلد كثيرة الأفاعي وفي شُروطهم أن لا يُقتل لهم قنفذ ولا يصاد.

وبمصر أعجوبة أخرى، وهي التماسح، لا يكون إلا في النيل، ويكون في نهر السند مِهْرَان، فإذا عض أو غل أسنانه واختلقت، فلم يدع ما أخذه حتى يقطع بأسنانه ما قبض من شيء وحنكه الأعلى يتحرّك، ولا يتحرك الأسفل، وليس ذلك في غيره من الدواب، ولا يعمل الحديد في جلده وما بين رأسه وذنبه عظم واحد، وليس يلتوي ولا ينقبض؛ لأنه ليس في ظهره خرز، وإذا انقلب لم يستطع أن يتحرّك، وإذا سفد الذكر الأنثى خرج من النيل فيلقبها على ظهرها، ثم يأتيها مثل ما يفعل الرجل بالمرأة، فإذا فرغ ألقبها، وإن أقرّها على ظهرها صيدت؛ لأنها لا تقدر أن تنقلب.

وذنب التمساح حادٌ جداً، فربّما قتل من الضربة، وربّما جرّ الثور إلى نفسه فيأكله، وله بيض مثل بيض الأوز، ويبيض ستين بيضة، وله ستون سنّاً، فإذا سفد ففي ستين مرّة، فإذا خرج التمساح من بيضة، خرج مثل الحردون في خلقه وجسمه، فيعظم حتى يكون عشرة أذرع أو أكثر، وهو يزيد كلّما عاش.

وإن أخذ من جانب حنكه الأيمن أوّل سنّ في الحنك، وعلق على من به حمّى نافض تركته من ساعته، وربّما دخل اللحم في خلال أسنانه فيفتح فاه، وله صديق من الطير يشبه بالطيطوى، يجيئه حتى يسقط على شذقه فيخلل بمنقاره ذلك اللحم، فيكون ذلك طعاماً للطير وترفيهاً للتمساح؛ لأنه ينقي ما في أسنانه من اللحم، ويحرسه هذا الطائر ما دام ينقي أسنانه، فإن رأى صياداً أو إنساناً يريد، أو ابن عرس فإنه عدوّه أعلمه ذلك.

وذلك أن ابن عرس يجيء إلى التمساح وهو نائم - ويحبّ النوم على شطّ النهر - فيستحمّ في الماء ويتمرّغ في الطين، ثم ينتفض حتى يقوم شعره، فيشب في فم التمساح فيقتله قتلاً عنيفاً أو يأكل ما في جوفه، فلذلك الطير يحرس التمساح، وإذا رأى ابن عرس مقبلاً أنبه التمساح وأذنه، فيهرب التمساح إلى الماء.

وليس هذا بأعجب من الحلّد، وهي دابة عمياء فتخرج من جحرها فتفتح فاهاً فيتساقط الذبّان في فيها وأشداقها، ولا تزال تضمّ فاهاً على الذبّان وتبلعه حتى تشبع، ثم تدخل جحرها.

وليس هذا بأعجب من طائرين يراهما الناس من أدنى حدود البحر من شقّ البصرة إلى غاية البحر من شقّ السند أحدهما كبير والآخر صغير يقال لأحدهما: جُوانْكَركَ ويُسمّى الآخر جَرُشي، فلا يزال الصغير يرنق على رأس الكبير ويعبث به ويطوف حوله ويخرج من بين رجله ويغمّه ويكربه حتى يتقيّه بذرقه،

فإذا ذرق الجرشي تلقاه الجوانكرك فلا يخطئ أقصى حلقه حتى كأنه ردي في بئر
فإذا استوفى ذلك الذرق رجع شبعان ريان بقوت يومه ومضى ذلك الكبير لطيته
وأمرهما مشهور ظاهر.

وأعجوبة أخرى، وهو أن الدخس من دواب الماء مما يقايس السمك وليس
بسمك يعرض للغريق فيدنو منه حتى يضع الغريق على ظهره فيسبح، والغريق
يذهب معه ويستعين بالاتكاء عليه والتعلق به حتى ينجيه، وهو عند البحرين
مشهور.

قالوا: ومن أذهن بشحم حرذون ثم ألقى نفسه على التماسح في الماء صاده،
والحرذون: دوية تكون بمصر، وزبله ينفع من وجع العين، ويقاثل العقرب،
وإذا ظفر بالجلدي أكل أذنه.

وأهل مصر يعدون كون التماسح في النيل من غرائب ما عندهم، وهو كثير
في خلجان سندان والزنج؛ ولكنهم لا يعرفون له هناك هذا الطائر الذي يخلل
أسنانه، وكون التماسح موصول في نيل مصر بوادي مهران وهو وادي السند
ومن هناك أتاه.

وبمصر من العجائب الفرس الذي يكون في النيل، يأكل التماسيح وغيره
من الدواب، ويربى هذا الفرس إذا كان فلوا في البيوت مع النساء والصبيان،
وفي سنه شفاء من وجع المعدة، والنوبة والحبشة تتعالج به؛ لأنهم يأكلون
الأطعمة الغليظة، فيشرفون على الموت من وجع المعدة، فيأخذون سن هذا
ويتعالجون به فيبرءون، وأعفاجه تبرئ من الجنون الذي يأخذ في الأهلة.

ومن عجائب النيل: دابة تسمى ذا القرن تكون في النيل على أنفها مثل
السيف الحاد، تقطع الصخرة إذا ضربتها، وربما قتلت به الفيل.

وأهل مصر يعدُّون النيل من أحد عجائبهم؛ وذلك أنه يخالف لجميع الأودية التي عليها صُبَّ الغلَم، وكل سرب ومغيض فإنَّها استقباله من ناحية الشمال، وليس النيل كذلك؛ لأن مجراه من ناحية الجنوب، وليست التماسيح في شيء من هذه الأودية المعروفة، لا تُرى بالفرات ولا دجلة، ولا سيحان ولا جيحان، ولا نهر بلخ، ولا فيها من الفساد والدواب الخبيثة، وشرب أهل مصر في البواقي، وقال النبي ﷺ: «تغور المياه كلها وترجع إلى أماكنها إلا نهر الأردن، ونيل مصر، والحجرات، وعَرَقات، ومنا».

وقال ابن الكلبي: إذا طلع العيوق غارت المياه كلها ونقصت، إلا نيل مصر، ويمتدُّ النيل لسبع من آبار، وقال عبد الله بن عمرو: نيل مصر سيّد الأنهار، سخر الله له كلَّ نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجريه، أمر كلَّ نهر أن يمدّه فأمدته الأنهار بائها فإذا فجر الله به الأرض عيوناً وانتهى من جريته إلى ما أراد الله، أوحى الله - عزَّ وجلَّ - إلى كلِّ ماء أن يرجع إلى عنصره.

وفي الخبر أربعة أنهار من الجنة: النيل، والفرات، وسيحان، وجيحان، وقال بعضهم: النيل يخرج من خلف خط الاستواء من بحيرتين يقال لهما بحيرتا النيل، وهو يطيف أرض الحبشة، ويحيي فيمَر بين بحر القلزم وهو بحر الفرما ... فيجىء فيصبُّ بدمياط، ويخرج إلى البحر الرومي المغربي، ودمياط على البحر الرومي المغربي.

وقال أبو الخطّاب: قال المُشترى بن الأسود: غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى، فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل يخرج النيل من تحته.

وقال بعض الفلاسفة: أقول إنه قد يكون البحر في موضع من بعض المواضع، ثم ينضب الماء عنه حتى يصير أرضاً يابسة ثم يعود بحراً، والعلة في

ذلك أن قرار الأرض يشبه أجسام الحيوانات والنبات، وأن لها نهاية وغاية بمنزلة الشباب والهرم، ينقص ويزيد، فإذا قربته من الشمس حيناً طويلاً حلّته فارتفع وجفّ ذلك الموضع، فإذا بعدت الشمس عنه رطب ذلك الموضع ونديّ، واجتمعت فيه المياه من الندى والأمطار.

ذكروا أن أرض مصر كانت بحرًا، وكذلك جميع الأرض عليها، فنضب ذلك الماء قليلاً؛ فجفّت تلك المواضع في مدّة من الزمان فظهر اليبس وغرس فيه الأشجار، وزرّع فيه الزرع.

ولما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤونة، فقالوا: أيها الأمير لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها.

قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لا تتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضيناها، وجعلنا عليها من الحلّي والحلل والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل.

قال عمرو: إن هذا أمر لا يكون أبدًا في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله. فهمّوا بالجلء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطّاب، فكتب إليه: إنك قد أصبت، وإنّي قد بعثت إليك بطاقة في داخل كتابي هذا - يعني رقعة - فألقها في النيل، فلما قدم كتاب عمر على عمرو أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر إلى نيل مصر، أمّا بعد، فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله العزيز الغفّار الواحد القهّار هو الذي يُجريك؛ فنسأل الله الواحد القهّار أن يجريك. فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلء؛ لأنهم لا تقوم مصلحتهم إلّا بالنيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستّة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر، قال الكلبي: كتاب عمر إلى نيلها هو الطلسم الأكبر.

ومن عجائب مصر حشيشة يقال لها: الدقس، يُتَّخَذُ منها حبال للسفن تسمى تلك الحبال: القرقس، يؤخذ من القرقس قطعة فيشعل بين أيديهم كالشمع ثم يطفأ فيمكث سائر الليل فإذا احتاجوا إليه أخذوا طرفه فأداروه كالخراق فيشتعل.

ومن أعاجيب مصر الشجرة التي تدعى باليونانية المومقس، يرى بالليل من بعيد كأنه حريق، فإذا دنا منه الإنسان لم يجد عنده شيئاً بته.

ومن أعاجيب مصر الرماد الذي يقال له: رماد السنط، وهو خشب يوقد نهارهم كله ولو جمع الإنسان ذلك الرماد لما ملأ راحته، ولهم حجارة الواحات، كل من تناول منها حجراً فحركه فكأنها يحرك مقلّة نواتها في جوفها، ولهم القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد، ولهم دابة يقال لها: الأشقنقور، يهيج الجماع إذا أكل، وفيه أعجوبة أخرى؛ وذلك أن ثلثه من الحيوان للذكر منها أيران الأشقنقور، والورل والضب.

ومن مفاخرهم شراب العسل، وهو هناك يختار على الخمر البابلي؛ للذته وطيبه وشدة أخذه، وموضع الأعجوبة فيه أنه يتخذ في زمان مدود النيل، ويعمل من ذلك الماء الخائر الكدر، ولو عمل من الصافي لم يخرج على صفاء هذا ولا جودته، ولا تزيده تلك الكدرة إلا صفاء وحسناً، ولهم البلسان ودهن الفجل، ودهن الخردل، ولهم الخيش والريش، ولهم أن كل واد في الأرض مخالف لواديه؛ لأنه يستقبل الشمال، وماؤها يجري من الجنوب.

وأعجوبة أخرى: أنها لا تمطر مطراً، وأعجوبة أخرى أن اسمها مصر، وعلى اسمها سميت الأمصار مثل: الكوفة، والبصرة، وإنها سميت البصرة فسطاطاً على التشبيه بفسطاط مصر.

وقال الكلبي: كان لفرعون ما بين مصر إلى مغرب الشمس، وهي مملكة أفريقية والأندلس، وإنها هو مثل أرض واسط أربعون في مثلها.

وأعجوبة أخرى بمصر: وهي الأترج ربها وضع الرجل الأترجة بينه وبين صاحبه فلا يرى أحدهما الآخر لِكِبَرِهَا، وبمصر من الأعاجيب: السمك الرعاد، ومن صاد منه سمكة لم تزل يده ترعد وتتفض ما دام في شبكته وشصه، وليس هذا بأعجب من الجبل الذي بآمد، يراه جميع أهل البلد فيه صدع، فمن انتضى سيفه فأولجه فيه ثم قبض على قبيعته بجميع يديه اضطرب السيف في يديه وارتعد هو، ولو كان أشد الناس.

وفيه أعجوبة أخرى؛ لأنه متى حُكَّ بهذا الجبل سيف أو سكين حل ذلك السكين الحديد وجذب الإبر والمسأل بأكثر من جذب المغناطيس، وأعجوبة أخرى: أن ذلك الحجر بعينه لا يجذب الحديد، فإن حُكَّ عليه سكين أو حُدَّ به جذب الحديد.

وفيه أعجوبة أخرى: أنه لو بقي مائة سنة لكانت تلك القوة قائمة فيه ولو سُقي كما تُسقى السكاكين، والمغناطيس نفسه إذا حُكَّ عليه الثوم لم يجذب الحديد، وذلك شبيه بنباب الأفعى، لأنهم إذا حَشَوْا فيه حُمَاض الأترج ثم عَضَّ وانقلب لم يكن له سم قاتل.

قد بارك رسول الله - عليه السلام - في بَنُهَا قرية مصر، وقال أهل مصر: اتَّخَذَ يوسف - عليه السلام - الْفَيُومَ بِالْشَّرْقِيِّ فِي جَبَلٍ شَرِبَ أَسْفَلُهَا وَأَعْلَاهَا وَوَسَطُهَا بَإِءٍ وَاحِدٍ، لَا تَعْدَمُ الثَّمَرَةُ فِيهَا رَطْبَةً شَتَاءً وَلَا صَيْفًا.

قالوا: وإذا جاوزت بلاد غانة إلى أرض مصر انتهيت إلى أمة من السودان يقال لها: كوكو، ثم إلى أمة يقال لها: مرندة، ثم إلى أمة يقال لها: مُراوة، ثم إلى واحات مصر بمَلْسَانَة.

صفة الهرمين

وبمصر الهرمين الذي يُرى أصحابه كأنهم دُفِنُوا حديثاً إلا أنهم في عمق من الأرض وهي ثلاثة أهرام، كل هرم أربع مائة ذراع طول، في أربع مائة ذراع عرض، في سمك أربع مائة ذراع في الهواء، مبنية بحجارة من المرمر والرخام، غلظ كل حجر وطوله وعرضه عشرة أذرع مُهَنْدَز مُهَنْدَم، لا يستين هندامه إلا حادُّ البصر، منقور في كل حجر بالكتاب المسند يقرؤه كل من يقرأ المسند، كل سحر وكل عجب من الطب، وكل طلسم، وكل خلقة طير.

وحدث بعض المشايخ بمصر أنه قرئ لبعض خلفاء بني العباس على الهرمين مكتوب: إني بنيتُهما، فمن كان يدعي قوّة في ملكه فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء؛ فأرادوا هدمهما، فإذا خراج الأرض لا يقوم به فتركوهما.

وقال عبد الله بن طاهر: رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء: النيل، والهرمين، وابن عفير، وكان ابن عفير هذا كثير العلم واسمه سعيد بن كثير بن عفير.

قالوا: ووجد في أهرام مصر حيّة من ذهب في شدقها صُفِيحة فضّة مكتوب فيها:

إِنِّي وَرَبُّ الْبُذْنِ وَالْقِلَاصِ عَمِلْتُهَا مِنْ خَالِصِ الرِّصَاصِ

وقرئ عليه أيضاً أَنِّي نَقَبْتُهَا وكسوتها الأنطاع، ثم كسوتها الخبر اليمانية، ثم كسوتها الديباج، فمن ادّعى القوّة في ملكه فليكسها الحَصْر، فأراد المأمون أن يكسوها الحصر، فكان يُخْرِجُ فيها خراج مصر أجمع.

وبمصر الرمل المحبوس، والطور الذي كلم الله - عَزَّ وَجَلَّ - موسى - عليه السلام - بها وهو في صحراء التيه، فيما بين القُلْزُم وأَيْلَة، وفيها الصَّرحُ

الذي لم ير قط شيء مثله، وهم يقولون: نحن أكثر الناس عبداً وشهداً وقنّداً ونقداً.

قالوا: والصوف والكتان لنا، ليس لأحد من أهل البلدان مثلها، وقالوا: ولنا الحمير المريسيّة، والبغال المصريّة، والخيول العتاق، والمطايا من الإبل.

قالوا: ولنا الأودية والمراع التي ليس لأحد مثلها، وربّما خيف على الإبل الهلاك من السمن؛ لأنها إذا بلغت الغاية في السمن فرّبها انصدعت كراكرها عن شحمة كالسنام؛ حتى يخر البعير ميتاً، قالوا: ولنا الشمع والعسل والريش والخيش، ولنا الضروب الرقيق والجواهر.

وبمصر الإسكندريّة، قال النبي ﷺ: «خير مسالحكم الإسكندرية»، وهي من بناء الإسكندر وبه سمّيت، ويروى في قول الله -عزّ وجلّ- ﴿إِذْ ذَاتِ الْيَوْمِ﴾ [الفجر: ٧] قال: هي الإسكندرية.

وقال الحسن البصري: لأنّ أبيت بالإسكندريّة ليلة على فراشي، أحبّ إليّ من عبادة سبعين ليلة، كلّ ليلة منها ليلة القدر بمقدارها.

وروى زهرة بن معبد القرشي، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: أين تسكن بمصر؟ قلت: الفسطاط.

قال: تسكن المدينة الخبيثة وتذر الطيبة؟ قلت: أين؟

قال: الإسكندريّة، فإنك تجمع ديناً ودنيا وهي طيبة الموطأ، والذي نفسي بيده لوددت أن قبري فيها، ولما همّ الإسكندر ببنائها دخل هيكلًا لليونانيّين عظيمًا، فذبح فيه ذبائح كثيرة. وسأل أحبارها أن تبيّن له أمر المدينة هل يتمّ بناؤها؟ وكيف يكون؟ فرأى في المنام كأن جدار ذلك الهيكل يقول له: إنك تبني مدينة يذهب صوتها في أقطار الأرض، ويسكنها من الناس ما لا يحصى

عددهم، ويختلط الرياح الطيبة بهوائها، ويثبت حكم أهلها، ويصرف عنها سورة السموم والحر، ويطوى عنها قسوة البرد والمهريير ويظعن عنها الشرور؛ حتى لا يصيبها خبل من الشيطان، وإن حلب إليها الملوك والأمم بجنودهم وحاصروها، لم يدخل عليها ضرر، فبناها وسماها الإسكندرية، ثم رحل عنها.

فيقال: إنه مات بابل ومُحِل إلى الإسكندرية فدفن بها، ويقال: إنها عملت في ثلاثمائة سنة، وحُمرت نورتها ثلاث سنين، وخربت ثلاثمائة سنة، ولقد غُبر أهلها سبعين سنة، ما يمشون بالنهار فيها إلا بخرق سود؛ فَرَقَّ أن تذهب أبصارهم من بياض جُدُرِها، وما أسرج فيها أحد سراجًا بليل من ضوئها، ومنارة الإسكندرية على سرطان من زجاج في البحر.

والجُوف بمصر وبالليامة وهما جوفان مثل الطُوح بالعراق، وحُلوان بمصر على فرسخ من الفسطاط، وبه نخل كثير والكِرْيُون على ٣ فراسخ منها.

فأما منارة الإسكندرية فلها عمودان من نحاس على صورتين: أحدهما من زجاج، والآخر من نحاس، أما النحاس فعلى صورة عقرب والزجاج على صورة سرطان، والمنظرة إلى جنبهما ويقال لها المنارة.

وعَيْنُ الشَّمْس على ٣ فراسخ من الفسطاط، وَمَنْفُ مساكن فرعون بينها وبين عين الشمس ٣ فراسخ.

وقد اختلفوا في الإسكندر، فزعم بعضهم أنه ذو القرنين، وقال آخرون: ليس هو ذو القرنين بنَ فيلفوس، ولكنه لكثرة جولانه في الأرض وطيه الأقاليم، شَبَّ مَنْ لا علم له بذِي القرنين وبينه وبين ذِي القرنين.

المعمر صاحب سدّ يأجوج ومأجوج، وباني مدينة مرو، ومنارة الإسكندرية المركّزة على سرطان من زجاج، وباني مدينة البهت بالمغرب، وتعرف بالبُها، وهي مبنية من حجر يسمى حجر البهت من تطلّع فيه تاه واستغرب ضحكاً حتى يتلف نفسه دهرٌ طويلٌ.

وذو القرنين المعمر هو الذي وقف على صاحب الصُور حين دخل الظلمات، وبلغ مكاناً لم ينفذ وراءه فصور فرساً من نحاس عليه فارس من نحاس ممسك على عنان فرسه بيسرى يديه، ومادّ يده اليمنى مكتوب فيها بالحميرية: ليس ورائي مسلك فهذا عُمرٌ طويلاً، حتى عاش سبع مائة سنة، وأوتي من كل شيء سبباً، ورُفِع إلى السماء، وكان يسمّى عياشاً؛ والروميُّ عُمرٌ عمراً قليلاً وكانت سيرته أخبث سيرة.

وقال عطاء بن أبي خالده المخزومي: كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار، فكانوا إذا غربت الشمس، لم يخرج منهم واحد من بيته، ومن خرج اختطف، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر، وكان يخرج من البحر شيءً فيأخذ من غنمه، فكَمَّن له الراعي في بعض المواضع؛ حتى خرج فإذا جارية فتشبّث بشعرها ومانعته، فذهب بها إلى منزله، فأنست بهم فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج في ذلك الوقت اختطف، فعملت لهم الطلسات، وكانت أول من وضع الطلسات بمصر.

ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: عجائب الدنيا أربعة:

مرآة معلقة بمنارة الإسكندرية: كان يجلس الجالس تحتها، فيرى من بالقسطنطينية، وبينهما عرض البحر.

وفرس نحاس عليه راكب من نحاس بأرض الأندلس، باسط يده رافعها إليه، مكتوب: ليس خلفي مسلك، ولا يطاق تلك البلاد أحد إلا ابتلعه النمل.

ومنارة من نحاس بأرض عاد عليها راكب من نحاس، فإذا كان الأشهر الحرم؛ هطل منه الماء فشربوا منه، وسقوا، وصبوا في الحياض والآبار، فإذا انقضت الأشهر الحرم؛ انقطع ذلك الماء.

وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية، فإذا كان أوان الزيتون؛ صفرت السودانية التي من نحاس، فتجيء كل سودانية من الطيارات بثلاث زيتونات: زيتونة في منقارها، وزيتونتان في رجليها؛ حتى تلقيها على الشجرة، فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لإدامهم وسرجهم إلى قابل.

وبعين شمس من أرض مصر بقايا أساطين كانت هناك، في رأس كل أسطوانة طوق من نحاس يقطر من أحدهما ماءً من تحت الطوق إلى نصف الأسطوانة، لا يجاوزه ولا ينقطع قطره ليلاً ولا نهاراً، فموضعه من الأسطوانة أخضر، ولا يصل الماء إلى الأرض، وهو من بناء هوشنك.

وبالإسكندرية موضع فيها سوار وأساطين من حجارة من بقية بناء قديم، وفيها سارية تعرف بسارية سليمان - عليه السلام -، فيها أعجوبة، وذلك أن الرجل فيها يحيى إليها ومعه زجاج أو خزف أو غير ذلك، فيلقيه على السارية ويقول: بحق سليمان بن داود إلا انكسرت، فيتفتت الزجاج والخزف، وليس هذا إلا في هذه السارية، وإن لم يقل بحق سليمان لم ينكسر.

وبمصر منى مدينة فرعون، لها سبعين باباً، وحيطان المدينة من حديد وصفر، وفيها كانت الأنهار التي تجري من تحتها وهي أربعة.

ومن كور مصر مَنفُ، وَوَسِيمُ، وَدَلَاصُ، وَبُوصِيرُ، وَالْقِيُومُ، وَأَهْنَاسُ،
وَالْقَيْسُ، وَطَلْحَا، وَأَشْمُونِينَ قَهْفَا الْبَهْتَسَى، هُوَ وَقَتْنَى قِفْطُ، الْأَقْصَرُ، إِسْنَا،
أَزْمِنْتُ، أَسْوَانُ، الْإِسْكَندَرِيَّةُ الْمَلِيدَسُ، الطُّورُ، مَصِيلُ، قَرَطَسَا، خَرِبَتَا،
الْيَدْقُونُ، صَاوَشْبَاسُ، تَيْدَةُ، الْأَفْرَاحُونَ، لُوبِيَا، الْأَوْصِيَّةُ مَنُوفُ الْعَلِيَا، وَمَنُوفُ
السُّفْلَى، دَمْسِيسُ، أَتْرِبُ، عَيْنُ شَمْسُ، قَرْخَطَشَا، الْجَوْفُ الشَّرْقِيُّ، الْجَوْفُ
الْغَرْبِيُّ.

وبمضَر نهر اللاهُون، ويقال: إن يوسف - عليه السلام - احتفَره وهو
يأخذ من النيل، وآخر عمل مصر من حدِّ النوبة أَسْوَانُ، وَدُمُقْلَةُ مَدِينَةُ النُّوبَةِ،
وبينهما مسيرة أربعين ليلة.

ومن عيوب مصر أنها لا تمطر، ويكرهون المطر، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول:
﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ومن
عيوبها الريح الجنوب التي يدعوها بالمريسية؛ وذلك أنهم يسمُّون أعلى الصعيد
إلى بلد النوبة مَرِيْسَ.

فإذا هبَّت الريح المريسية ثلاثة عشر يومًا تَبَاعًا، اشترى أهل مصر الأكفان
والحنوط، وأيقنوا بالوباء القاتل، والفناء العاجل - نسأل الله العافية - .

ومن عيوبها اختلاف هوائها؛ لأنه في يوم واحد يختلف عليهم أهوية برد
وحر وإذا أجذبوا انقضوا؛ لأنه ليست لهم ميرة من وجه من الوجوه والناس
من عندهم يمتارون فإذا انقطعت من عندهم نسأل الله العافية، وهم قتلوا
عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعميرًا المأموني، ونساء مصر والقبطُ ضدُّ
نساء خراسان؛ لأن نساء خراسان يلدن أذكارًا، ونساء القبط لا يكاد يرى
منهن إلا إناث، وتلد الاثني والثلاثة والأربعة، ولا نعلم ناسًا في الأرض أكثر
ذكرًا من آل أبي طالب.

وتربة مدينة الرسول - عليه السلام - طيبة، والغالية والطيب بها يزداد على العَبَق وطول الأيام طيباً، والغالية الثمينة الخطيرة بالأهواز تنقلب في أيام يسيرة، ومُحَامَها على الصغير منهم والكبير، لا تزايله حتى على المولود ساعة يولد، قال رسول الله ﷺ: «إن مصر سَتُفْتَحُ بَعْدِي فانتجعوها، ولا تَتَّخِذُوهَا دَارًا، فإنه يساق إليها أعجل الناس أعمارًا، فمُحَامَها أخبثُ من مُحَمَى الأهواز، ووباءه أشدُّ من ذلك». وقال رسول الله ﷺ: «انتجعوا خيرها، واسكنوا غيرها، فإنها معدن السحر والزنا، ودار الفاسقين، ولا تغسلوا رءوسكم بطينها الأسود، فإنه يميت القلب، ويكثر الهمم، ويذهب بالغيرة». نعوذ بالله منه.

قال: وكُشِفَ عن حجر بمصر، فإذا فيه كتابه: ويلك يا مصر، خرابك سَيَلُوكُ، ملوكك غُرباء، لا يسود منك فيك، ولا منك في غيرك.

وقال وَهْبُ المَعَاوِيَّ: إذا رأيتم منبر الفسطاط قد حُوِّلَ عن مكانه فتحولوا منها.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتينَّ على الناس زمانٌ قَتَبَ على جَمَلٍ دَيبِرٍ، خير من دار بمصر.

وقال يَحْيَى بن مَحْفُوظ: خلق الله العقل، وخلق معه المكر وأسكنه العراق، وخلق المكر، وخلق معه الجفاء فأسكنه الشام، وخلق الفقر، وخلق معه القنوع وأسكنه الحجاز، وخلق الغناء، وخلق معه الذلَّ وأسكنه مصر.

وقال كعب القرظي: خلق الله السرقة تسعة أجزاء سبعة منها في القبط.

ومن عجائب مصر الشَّبُّ؛ وهو حجر أسود مجدَّر يطفو فوق الماء، والأبنوس يرسب في الماء، فأَيُّ شَيْءٍ أعجب من خشب يرسب في الماء! وحجر

يطفئ على الماء! وضروب من الخشب ترسب في الماء الأبنوس، والشيز والعنّاب والآهندال، وحجر المغناطيس عجب، وإن شأن الألماس لعجب!

ومن أعاجيب الحجارة الحصاة التي في صورة النواة، تسبح في الخل كأنها سمكة، والخرزة التي تجعل في حقو المرأة لثلا تحبل، والحجر الذي يوضع على حرف التنور فيساقط خبز التنور كله، ويدعون أن كعب الأرنب إذا شد بساق الملسوع لم يضره.

قال: وخراج مصر وحدها، يضعف على جميع خراج الروم وحمل منها موسى بن عيسى في دولة بني العبّاس ألفي ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار.

وعلى أعلى مصر النوبة والحبشة والبجّة، وكان عثمان صالح النوبة على أربع مائة رأس في السنة، وفي الخبر قال رسول الله ﷺ: «من لم يكن له أخ فليأخذ أخاً من النوبة»، وقال: «خير سبيكم النوبة»، وللنوبة كفٌ ووفاءٌ، وحسن عهد، وبها الأبنوس الأبيض الذي يتخذ منه الأسرة، وبها الكرّكذن، وهو مثل العجل وفي جبهته قرن يقاتل به، وآخر صغير أسفل منه بين عينيه، يقلع به الحشيش، ويطعن الأسد بالذي في جبهته فيقتله، وله ظلف كظلف البقر، ويهرب منه الأسد والفيل، وبالنوبة الزرافة، وذكروا أنها بين النمر والناقة، وأن النمر ينزو على الناقة فتلد الزرافة، ولا تغتذي إلا بما تستخرجه من البحر فخلق الباري - عزّ وجلّ - لها عنقاً طويلاً؛ لتبلغ الموضع الذي تستخرج منه الغذاء، ومثله في الحيوان فيما يشاكله ويقرب منه في التناج.

كما يُلقح الفرس الحمار، والذئب الضبع، والنمر اللبوة، فيخرج من بينهما الفهد، فالزرافة لها جثةٌ جمل، ورأس آيل، وأظلاف بقر، وذنب طير، وليديها ركبتان، وليس لرجليها ركبة، وجلدها منمرّ، وهو منظر عجيب، وتسمّى

بالفارسيَّة أَشْتُرْكَاوبَلَنْك، أي هي بين الجمل والثور والنمر، والزرافة في اللغة:
الجمع، وسمَّيت هذه الدَّابة لاجتماع هذه المشابهة فيها.

وذكر بعض الحكماء: أن الزرافة نتاجها من فحول شتَّى، وهذا باطل؛ لأن
الفرس لا يلقح الجمل، ولا الجمل يلقح البقرة، وبالحبشة دابة يقال لها:
الرَّعَقَى، تقبض على خرطوم الجمل فتصرعه، وتشرب دمه، ولا تأكل لحمه.

والنوبة يعقوبيَّة، وللصقالبة صُلْبَان - الحمد لله على الإسلام -، وكذلك
أهل عُلُوْا، وتكريت، والقبط، والشام كُلُّها نصارى يعقوبيُّ، ومَلَكِيَّ،
وَنَسْطُورِيَّ، ونيقلائيَّ، وركُوسِيَّ، ومِرْقِيُونِيَّ، وصابيَّ، ومَنائيَّ - الحمد لله على
الإسلام -.

والنوبة أصحاب ختان، لا يطأ في الحيض، ولا يغتسل من الجنابة، وهم
نصارى يعقوبيَّة، يَهْدُون الإنجيل، والروم مَلِكانيَّة، يقرءون الإنجيل
بالحزْمَقانيَّة، وأهل بُجَّة عباد أوثان، يحكمون بحكم التورية.

وَدُمُقَلَّة: مدينة النوبة، وبها منزل الملك، وهي على ساحل البحر، ولها سبع
حيطان، وأسفلها بالحجارة، وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة، وطوله علوا
إلى بلاد النوبة مع المغرب، مسيرة ثلاثة أشهر.

ومن دُمُقَلَّة إلى أسوان أوّل مصر، مسيرة أربعين ليلة، ومن أسوان إلى
الفسبَاط خمس عشرة ليلة، ومن أسوان إلى أدنى النوبة خمس ليال.

وفي الشرق من بلاد النوبة البُجَّة ما بين النيل وبحر اليمن، وهو بحد
القلزم بمصر، وبحر الجار بالمدينة، وبحر جُدَّة بمكَّة، وبحر اليمن بالشَّحْر،
وعمان وفارس والأبَلَّة، وفيها بين أرض النوبة والبُجَّة جبال منيعة، وهم
أصحاب أوثان.

وفي بلادهم معدن الزبرجد، يُحفر التراب من معدنه، ثم يغسل، فيوجد فيه قِطْعُ الزبرجد، والبُجَّةُ أصناف، فالنوبة والبُجَّةُ تسمي الله - عَزَّ وَجَلَّ - بحير، وبالزنجية لملو جلو، والقبطية أبثوذه، وبالبربرية مديكش.

ومن خلف بلاد علوا أمة من السودان، تدعى تكنة، وهم عراة مثل الزنج، وبلادهم تنبت الذهب، وفي بلادهم يفترق النيل - وقد ذكرنا مخرجه - ، وقالوا: من وراء مخرج النيل الظلمة، وخلف الظلمة مياه تنبت الذهب في تكنة وغانة.

القول في المغرب

أسفل الأرض من الفسطاط إلى برقة ستمائة وستون ميلاً، وبرقة مدينة حسناء في صحراء، وهي صُلَحِيَّةٌ، صالح عليها عمرو بن العاص، وجَبَرَ أهلها على الجزية، وهي خصبة ممتعة، ومن برقة إلى القيروان مدينة إفريقية ستمائة وثمانية وثلاثون ميلاً، وسميت بإفريقش بن أبرهة الرائش، وهو الذي بناها، وإفريقية افتتحها عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري - رحمه الله - وجَّهه معاوية، وهي الآن في يدي ابن الأغلب، وفي يديه أيضاً قابس، وجَلُولاء، وسُبَيْطَلَّة، مدينة جُرْجِير الملك، وكان روميّاً، وبينها وبين القيروان سبعون ميلاً.

وَزَرْوَد، وقَفْصَة، وقَصْطَلِيَّة، ومدينة الزاب، وودّان، وصفرجيل، وزَغْوَان، وتُونِس، وبينها وبين إفريقية مرحلتان على البغال.

واسم مدينة تونس قَرطاجنة، وهي على ساحل البحر يحيط بسورها أحد وعشرون ألف ذراع، ومن مدينة تونس إلى الأندلس ستة فراسخ، وإلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة خمسة أيام، وفي يدي الرُّسْتَمِيّ الأَبَاضِيّ، وهو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رُسْتَم من الفُرس، يسلم عليه بالخلافة بقيروة، وسلمة، وسلمية، وتاهرت، وما والاها، وبين إفريقية وتاهرت مسيرة شهر على الإبل.

ومدينة سَبْتَة إلى جانب الخضراء، وملك سبتة: إليان، وفي يدي ابن صَفِير البربري خلقاية إلى وادي الرمل، ووادي الزيتون، وقصر الأسود بن الهيثم، إلى طرابلس.

وفي يدي الخارجي الصُفَرِيُّ مدينة كبيرة تدعى دَرَعَة، فيها معدن الفضة، وهي مما يلي الحبشة في ناحية الجنوب، ومدينة تدعى زيز، وفي يدي إبراهيم بن محمد بن محمود البربري المعتزلي، مدينة تلي تاهرت، تدعى أيزرج.

وفي يدي ولد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مدينة تلمسين، ومن تاهرت إليها مسيرة خمسة وعشرين يومًا عمران كلّه، وطَنْجَة، وفاس، وبها منزله، ووليلة، ومدركة، ومثروكة، ومدينة رَقُور، وغَزَة، وغُمَيْرَة، والحاجر وماجراجرا، وفنكور، والخضراء، وأوراس، وما يتصل ببلاد زاغي بن زاغي.

وطنجة خلف تاهرت بأربع وعشرين ليلة، وخلف طنجة السوس الأدنى، وخلف السوس الأدنى السوس الأقصى على بحر اليمن في شرقي النيل، ومدينة السوس الأقصى تدعى طُرْقُلَة، ومدينة الأندلس تدعى قُرْطَبَة.

وبلاد أنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة في براري ومفاوز، وأهلها وأهل لُطَّة أصحاب الدرق يتقعونها في اللبن حولًا مجرّدًا؛ فينبو عنها السيف، وإن قطع السيف منها شيئًا نشب السيف في الدارقة، ولم يكن أن ينزع من الدارقة، والدارقة اللَّمْطِيَّة ليس عليها قياس.

وكان سبب خروج إدريس ووقوعه إلى هذه النواحي ما حكاه صالح بن علي قال: أخبرنا مشايخنا أن إدريس بن عبد الله بن حسن الطالبي، أفلت من وقعة العباسيين بالطالبيين بفخّ مكة وذلك في خلافة الهادي، فوقع بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى المنصور، وكان رافضياً فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طنجة بمدينة يقال لها: وليلة، فاستجاب له من بها، وبأعراضها من الناس.

فلما استخلف الرشيد أعلم بذلك، فضرب عنق واضح وصلبه، ودس إلى إدريس الشماخ اليماني مولى المهدي، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية، فخرج حتى وصل إلى ليلة، وذكر أنه متطّب، وأنه من أوليائهم فاطمأن إليه إدريس، وأنس به فشكا إليه إدريس علة في أسنانه، فأعطاه سنوناً مسموماً ليلاً، وأمره أن يستنّ به عند طلوع الفجر، وهرب من الليل، فلما طلع الفجر استنّ إدريس بالسنون فقتله، وطُلب الشماخ فلم يُظفر به، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه، ولحقت الأخبار بعد مقدمه بموته فكتب بذلك إلى الرشيد، فوَلَّى الشماخ يريد مصر، ثم ملك من بعد إدريس إدريس ابنه، وإلى هذه الغاية هي ثابتة في ولده.

وفي يديّ محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أمية ما واء بحر الأندلس، وفي يديه قرطبة، وبينها وبين الساحل مسيرة خمسة ليال، ومن ساحل قرطبة إلى أَرْبُونة آخر الأندلس مما يلي فرنجة ألف ميل، وطُلَيْطَلَة، وبها كان ينزل الملك، ومن طليطلة إلى قرطبة عشرون ليلة.

وللأندلس أربعون مدينة، ويجاور الأندلس فرنجة وما والاها من بلاد الشرك، والأندلس مسيرة أكثر من شهر في شهر، وهي خصبة كثيرة الخير والفواكه، ومما يلي الشمال والروم فرنجة.

والأندلس افتتحها طارق بن زياد، وموسى بن نصير، فأصاب بها مائة سليمان - عليه السلام - فيها جواهر لم يرى خلق مثلها، فقطع طارق قائمة من قوائم المائدة، وصير مكانها أخرى لا تشبهها، فلما قدموا بها على الوليد بن عبد الملك، وكان موسى وجَّهها إليه فقال طارق: أنا أصبتها فكذب موسى، فقال طارق للوليد: ادعُ بالمائدة فنظر إلى قائمته فإذا هي لا تشبه القوائم. فقال

طارق: سله عنها، فسأله فقال: كذي أصبتها. فأخرج طارق إليه القائمة فصَدَّقه الوليد. وقُومت المائدة مائتي ألف دينار.

ومن العجائب بيتان وُجدا بالأندلس عند فتحها، في مدينة الملوك، في أحدهما عدد تيجان الملوكها، وفي هذا البيت وُجد مائدة سليمان بن داود -عليه السلام-، وعلي البيت الآخر عشرون قفلًا كَلَّمَا ملك منهم ملكٌ زاد عليه قفلًا، ولا يدرون ما في البيت؛ حتى ملك لذريق، وهو آخر ملوكهم، فقال: لا بدَّ أن أعرف ما في هذا البيت، وتوهم أن فيه مالا، فاجتمعت الأساقفة والشمامسة وأعظموا ذلك عليه، فأبى، فقالوا له: انظر ما يخطر ببالك من مال تراه فيه فنحن ندفعه إليك ولا تفتحه، فعصاهم وفتح الباب، فإذا في البيت تصاوير العرب على خيولهم بعمائمهم ونعالهم وقسيهم ونبلهم، فدخلت العرب بلدهم في السنة التي فتح فيها ذلك البيت.

وكان ملك الأندلس حين فُتحت يسمَّى لذريق من أهل أصبهان، وبأصبهان يسمَّى أهل قرطبة الإشبان، ويسلم على الأموي بها السلام عليك يا ابن الخلائف، وذلك لأنهم لا يرون اسم الخلافة إلى لمن ملك الحرمين.

أعراض البربر هواره، وزنانة، وَصْرِيسَة، وَمَغِيلَة، وَوَزَفْجُومَة، وأحياء كثيرة، فدوابُّ هواره غاية في الفراهة، وكانت دار البرابرة فلسطين، وملكهم جالوت، فلما قتله داود، انتقلت البربر إلى المغرب، ثم انتشرت إلى السوس الأدنى خلف طنجة، والسوس الأقصى وهي من مدينة قَمُونِيَّة من موضع القيروان على ألفين وخمسين ميلاً، وكرهت البربر نزول المدائن فنزلوا الجبال والرمال.

وَبُرْجان وبلدان الصقالب، والإبر شمالي الأندلس.

والذي يجيء من هذه الناحية، الخدم الصقالبة، والغلمان الرومية والإفريقية، والجواري الأندلسيات، وجلود الخنز، والوبر والسمور، ومن الطيب الميعة، والمصطكي، ويقع من بحرهم البُسْد، وهو الذي تسميه العامة المرجان، ولهم الخيل العراب، والقسيّ العربية، وهم أهل غفلة، وقلة فطنة، وقال رسول الله ﷺ: «نساء البربر خير من رجالهم، بُعث إليهم نبي فقتلوه فتولت النساء دفنه»، والحدة عشرة أجزاء تسعة منها في البربر وجزء في الناس.

قالوا: وبلاد طنجة مدينتها وليلة، والغالب عليها المعتزلة، وعميدهم اليوم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد، وهو صاحب إدريس بن إدريس، وإدريس موافق له، وأم إدريس بربرية مولدة، وبربر أخواله، واسم أم إدريس كنز، وهي التي تتولّى طعامه وطبيخه خوفاً من السم.

ومن وليلة إلى طنجة إلى ناحيتي مدينة السوس الأدنى مسيرة عشرين ليلة، وليس في بلادهم نخل ولا كرم، ولا زيتون، ولهم القمح والشعير والأغنام، والرماء، والبقر، والعسل وليس لهم قطن، ولا كتان، لباسهم الصوف، وزرعهم على ماء السماء، ومن آخر مدينة السوس إلى آخر طرقة مدينة السوس الأقصى شهران، وليس وراء طرقة إنس.

ومن عجائبهم وادي الرمل، ومدينة البهت، وهي بعض مفاوزها، قال: ولما فرغ الإسكندر أخذ متيامناً نحو المغرب، حتى انتهى إلى أمة من بني إسرائيل، قوم موسى بمدينة لهم، وكانوا عباداً أتقياء، فلما انتهى إلى تخوم أرضهم بلغهم وروده عليهم، فاجتمع عظماءهم وأخبارهم وكتبوا إليه:

بسم الله ذي الطول والمن، من البرجائين الفقيرين إلى الله، وذوي التواضع لله، إلى الإسكندر المغترّ بالدنيا... أما بعد ... فقد بلغنا مسيرك إلينا، فإن كنت محارباً كما حاربت غيرنا لتأخذ من دنيانا، فارجع فمالك عندنا طائلة،

ولا لك في قتالنا نفع، لأننا أناس مساكين ليس لنا أموال، ولا للملوك في أرضنا إرب، وإن كنت إنما تقصد نحونا لتطلب العلم، فازغب إلى الله أن يفقهك ويهديك، مع علمنا أنك لا تحب ذلك لأن انهماك في طلب الدنيا بلا فكرة في زوالها وانقطاعها عنك، يدل أنك غير راغب فيها، فأما نحن فقد خَلَّينا الدنيا، ورفضناها ورغبنا في الآخرة، وتشوقناها، فانصرف أيُّها العبد عنا، ولا تؤذينا وتخرب بلادنا، ولا إرب لك فينا.

فلما أتاه الكتاب عزم على إتيانهم في مائة فارس من علماء أصحابه وزهادهم، وكان بينه وبينهم بحر رمل يجري كما يجري الماء ويسكن كل يوم سبت، فلا يتحرك إلى الليل، ومدينتهم تسمى مقيارات، وحولها تسع قريات، وهم متفرقون فيها وأسماءهم: عُطْرُوت، وَرَبْعُون، وَيَمْحُون، وَقَنُوء، وَحَسْنُون، وَبَغْلِي، وَسَبَام، وَبَنُوء، وَدُورهم مستوية، وليس فيهم رجل أغنى من الآخر، وقبورهم على أبواب دورهم، فأقام الإسكندر على حافة ذلك البحر؛ حتى إذا كان يوم السبت سكن ذلك الرمل، فسلكه وسار يومه كله إلى اصفرار الشمس؛ حتى جاز النهر في أصحابه، فاستقبلوه وسلَّموا عليه، فلما دنا منهم نزل، فاجتمع إليه من أفاضلهم وعلمائهم زهاء مائة رجل، فدعوا له بالصلاح، فرحَّب بهم الإسكندر، ودخل معهم المدينة، فجلس على الأرض، وجلس أولئك الأخبار حوله.

ثم قال: ما بال قبوركم على أبواب منازلكم؟ قالوا: ليكون ذكر الموت نصب أعيننا.

قال: فهل فيكم مسكين؟ قالوا: ما فينا أحد أغنى من الآخر.

قال: فمن شرُّ عباد الله؟ قالوا: من أصلح دينه وأخرب آخرته.

قال: فمن أقسى الناس قلباً؟ قالوا: من أغفل أمر الموت، ونسي الحساب والعقاب.

قال: فالبرُّ أقدم أم البحر؟ قالوا: لا بل البرُّ؛ لأن البحر إنما يحول إلى البرِّ.

قال: فالليل أقدم أم النهار؟ قالوا: بل الليل أقدم؛ لأن الخلق إنما خلِقُوا في الظلمة في بطون الأمهات، ثم خرجوا بعد ذلك إلى النور.

قال الإسكندر: طوبى لكم، لقد رُزقتم زهادة وعلماً، قالوا: بل طوبى لمن وقاه الله فتنة الدنيا، وأخرجه منها سالماً.

قال: أحبُّ أن تعظوني، قالوا: وما يُغني وعظنا إياك مع انهماك على الدنيا، وحرصك عليها، بلا فكرة منك في زوالها.

قال: فسلوني حوائجكم، قالوا: نسألك الخلد.

قال: هل يقدر على هذا أحد إلا الله! قالوا: فإن كنت موقناً بالموت، فما تصنع بقتل أهل الأرض.

قال: نعم، إني موقن بذلك غير أني لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً، ثم قال: يا معشر البرّجُمانيّين، إن الله قد خصكم بالعلم، وحلّاكم بالزهادة، وزيّنكم بالحكمة، وصرف قلوبكم عن الشهوات، فسلوني حُكمكم من زهرة الدنيا.

قالوا: لا حاجة لنا في شيء من ذلك.

قال: فأحب أن تقبلوا مني شيئاً، فإن معي يواقيت وجواهر حسناً.

قالوا: أحضره لتنظر إليه.

فأمر بإخراج إسقاط فيها جواهر مثمّنة ففتحت، فلما نظروا إليها قالوا له: أيها الملك، ويعجبك مثل هذا؟

قال: ليس شيء من عرض الدنيا أحب إلينا منه.

قالوا: فانطلق بنا حتى نريك ما هو أحسن منه وأكثر، وليس عليك فيها مؤونة، فانطلقوا إلى نهر عظيم فيه صنوف الجواهر واليواقيت، وفيه من الجواهر ما لم ير مثله.

فقالوا: هذا أكثر أو ما معك؟ قال: بل هذا.

فقالوا: بالذي نزع عن قلوبنا الشهوات ووفّقنا لطاعته، وقوانا على العبادة، ما تزيّنت امرأة منا قط بشيء من هذا، ولا انتفعنا به بفصّ خاتم.

فأقام عندهم إلى السبت الآخر؛ حتى سكن البحر، فجاز حتى أتى معسكره.

فيقال: إنهم القوم الذين ذكرهم الله -عزّ وجلّ- في كتابه فقال وقوله الحق: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال: فلما ملك ناشر ينعم جهّز وسار في جمع لا يحصى عددهم نحو المغرب، حتى إذا بلغ وادي الرمل أراد أن يجوزه فلم يجد مجازاً، فأقام حتى يوم السبت، فلما سكن الرمل يوم السبت، أرسل نفراً من أصحابه وأمرهم أن يقطعوه ثم يقيموا من ذلك الجانب إلى السبت الآخر ثم ينصرفوا إليه بخبر ما رأوه، فساروا يومهم ذلك حتى هجم عليهم الليل قبل أن يقطعوه، فجرى ذلك الرمل فغرقوا فيه، فلما رأى ذلك، ولم يرجع إليه من أصحابه أحد، أمر بصنم فنصب على حافة الوادي وكتب على جبهته، ليس ورائي لامرئ مذهب، فلا يتكلّفن أحد المضيّ إلى الجانب الآخر، ثم انصرف إلى مملكته.

ومن طَرَقَلَة إلى مدينة غانة، مسيرة ثلاثة أشهر مفاوز وقفار، وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتًا في الرمل، كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس، وطعامهم الذرة، واللوبياء، ويسمُّون الذرة الدخن، ولباسهم جلود النمر، وهي هناك كثيرة.

ومعدن الفضة والذهب بموضع يقال له تَدْمِير، بينه وبين قرطبة عشرة أيام، ومعدن الفضة في أعلى مدينة يقال لها: جِيَان، وبها معدن الزبيق في موضع يقال له: فَحْصُ البُكُوط، ومن معدن الزبيق إلى قرطبة خمسة أيام، وأهلها بربر، وهم في سلطان الأموي.

ويتاخم الشُّركَ أمة يقال لها علجشكش وهي قرية من البحر.

وبقرطبة دار الضرب في موضع يقال له: باب العطارين، وليس في دراهمهم مقطعة، ولهم فلوس يتعاملون بها ستين فلسًا بدرهم، ودراهم تسمى طبليًا، وللأموي جند وديوان، يعطيهم أرزاقهم من العرب والموالي وغيرهم.

وقرطبة طيبة الهواء، لا يحتاجون في الصيف إلى خيش، وبها عيون وآبار وعندهم ثلج يقع على جبل يقال له شُلَيْر بينه وبين قرطبة أربعة أيام، وبقرطبة آبار طيبة عذبة باردة، يشربون في الصيف من تلك الآبار لشدة بردها.

ويروى عن عامر الشعبي قال: إن الله -عَزَّ وَجَلَّ- خلق خلقًا خلف الأندلس ليس بينهم وبين الأندلس إلَّا كما بيننا وبين الأندلس، لا يرون أن الله عصاه أحد لا يحرثون ولا يزرعون ولا يحصدون، على أبوابهم شجر ينبت لهم ما يأكلون منه، وللشجرة أوراق عراض يوصلون بعضها إلى بعض، فيلبسونها وفي أرضهم الدر والياقوت، وفي جبالهم الذهب والفضة فأبأهم ذو القرنين فخرجوا إليه، فقالوا له: ما جاء بك تريد أن تملكنا؟ فوالله ما ملكنا أحد قط، وإن كنت تريد المال فخذ.

فقال: والله ما واحدة من هاتين أريد ولكنني سألت ربّي أن يسيرني فيما بين مطلع الشمس إلى مغربها فهذا حيث جئتكم من المطلع قالوا هذا المغرب عندك.

وبالأندلس نحل قليل وبها زيتون كثير وزيت وقطن وكثان.

حديث البهت: فمن عجائب الأندلس البهت، وهي المدينة التي في بعض مفاوزها ولما بلغ عبد الملك بن مروان خبر هذه المدينة أن فيها كنوزاً كتب إلى موسى بن نصير، وكان عامله على المغرب يأمره بالمسير إليها ودفع الكتاب إلى طالب بن مُدرك فسار حتى انتهى إلى مدينة القيروان، وموسى مقيم بها فوصل كتاب عبد الملك إليه فلما قرأه تجهّز وسار في ألف فارس من أبطال قومه وأشرافهم وحمل معه الزاد لأربعة أشهر، ومن الماء لنفسه وأصحابه ما يكفيهم، وأخرج رجالاً أدلاء بذلك الطريق فسار ثلاثة وأربعين يوماً حتى انتهى إليها فأقام ثلاثاً حتى علم كنه علمه، ثم ارتحل إلى البحيرة وكانت على ميلين من المدينة وتفهم أمرها ثم انصرف إلى القيروان وكتب إلى عبد الملك بن مروان مع طالب بن مدرك:

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمير المؤمنين صلاحاً يبلغ به شرف الدنيا والآخرة.

أخبرك يا أمير المؤمنين أني تجهّزت لأربعة أشهر وسرت في مفازة الأندلس في ألف رجل من أصحابي حتى وغلّت في طرق قد انطمست فيها الآثار، وانقطعت عنا الأخبار نحاول بلوغ مدينة لم يسمع السامعون بمثلها، فرنا ثلاثة وأربعين يوماً، فلاح لنا بريق شرف تلك المدينة من مسيرة خمسة أيام فها لنا منظرها، وامتألت قلوبنا منها رعباً فلما قربنا منها إذا أمرها عجيب هائل، ومنظرها مخيف موجل، كأن المخلوقين لم يصنعوها، فنزلنا عند ركنها

الشرقيّ فصلينا عشاء الآخرة، ثم بتنا بأربع ليلة بات بها أحد من المسلمين، فلما أصبحنا كبرنا استئناساً بالصبح وسروراً ثم أرسلت رجلاً من أصحابي في مائة فارس وأمرته أن يدور مع سور المدينة ليعرف لنا موضع بابها فغاب عنا يومين ثم أتانا صبيحة يوم الثالث فأخبر أنها مدينة لا باب لها ولا مسلك إليها فجمعت أمتعة أصحابي إلى جانب سورها بعضها إلى بعض لأنظر من يصعد إليها فلم تبلغ أمتعتنا ربع الحائط لارتفاعه في الهواء، فأمرت فأتخذ سلاليم كثيرة وصلت بعضها في بعض، وناديت في المعسكر من يتعرّف لي خبر هذه المدينة ويصعد هذه السلاليم، فله عشرة آلاف درهم فانتدب رجل من أصحابي، فتسّم السّلم وهو يتعوّذ ويقرأ فلماً صار في أعلاها وأشرف على المدينة فقهقه ضاحكاً، ثم هبط إليها فنادينه أخبرنا بما رأيت فيها فلم يجيبنا فجعلنا أيضاً لمن يصعد إليها ويأتينا بخبرها ونخبر الرجل ألف دينار، فانتدب رجل من حمير وأخذ الدنانير وجعلها في رحله ثم صعد فلما استوى على السور فقهقه ضاحكاً ثم نزل إليها فنادينه أخبرنا بما وراءك، وما الذي ترى فلم يجيبنا أحد حتى صعد ثلاثة رجال كلهم يقهقه ضاحكاً ويتطير إليها فلما يثست من أولئك الرجال ومن معرفة المدينة رحلت نحو البحيرة، فسرت مع السور المدينة فانتهينا إلى مكان من السور فيه كتابة بالعربية فوقفت حتى أمرت باستنساخه وهي:

لِيُعْلَمَ المرء ذو العز المنيع ومن	يرجو الخلود ولا حي بمخلود
لو أن خلقاً ينال الخلد في مهل	لنال ذاك سليمان بن داود
سالت له العين عين القطر فائضة	فيها عطاءً جليلٌ غيرُ مصرود
وقال للجنّ ابنوا منه لي أثراً	يبقى إلى الحشر لا يبلى ولا يُودي
فصبروه صفاحاً ثمّ ميل به	إلى السماء بأحكام وتجويد
وأفرغوا القطر فوق السور منحدرًا	فصار صلباً شديداً مثل صيخود
وردّ فيها كُنُوز الأرض قاطبة	وسوف يظهر يوماً غير محدود

لم تبق من بعدها في الملك شارقةً حتى يُضَمَّنَ رَمْسًا بَطْنٌ أُخْدُود
وصار في قعر بطن الأرض مضطجعاً مضمناً بطواييق الجلاميد
هذا لتعلم أن الملك منقطع إلا من الله ذي التقوى وذو الجود

ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند مغيب الشمس فنظرنا فإذا رجل قائم
فناديناه من أنت؟

قال: أنا رجل من الجن، وكان سليمان بن داود حبس والذي في هذه
البحيرة؛ فأتيته لأنظر ما حاله، قلنا: فما لك قائماً فوق الماء؟

قال: سمعت صوتاً فظننته صوت رجل يأتي هذه البحيرة؛ فيصلي على
شاطئ هذه البحيرة أياماً، ويهلل الله ويمجده؛ قلنا: فمن تظنه؟

قال: أظنه الخضر ثم غاب عنا فبتنا تلك الليلة على شاطئ البحيرة، وقد
كنت أخرجت معي عدة من الغواصين؛ فغاصوا في البحيرة فأخرجوا منها حُبًّا
من صفر، مطبقاً رأسه بصفر مسموراً بمسامير من صفر فأمرت بقلع الصفر؛
فخرج منه رجلٌ من صفر بيده مطرد من صفر فطار في الهواء وهو يقول: يا نبي
الله لا أعود، ثم غاصوا ثانية، وثالثة؛ فأخرجوا عدة من أولئك ثم ضج
أصحابي، وخافوا أن ينقطع بهم الزاد، فأمرت بالرحيل، وانصرفت بالطريق
الذي سلكته، وأقبلت حتى نزلت القيروان، وكتابي منها و الحمد لله الذي
حفظ لأمير المؤمنين جنده والسلام، فلما قرأ عبد الملك بن مروان كتاب موسى
بن نصير، وكان عنده الزهري، قال: ما تظن بأولئك الذي صعدوا فوق السور
كيف استطيروا؟

قال: أظنهم خبلوا فاستطيروا من السور، قال: فمن أولئك الذين خرجوا
من الحجاب ثم يطرون؟

قال: أولئك مردة الجن الذين حبسهم سليمان بن داود -عليه السلام- في البحار.

القول في الشام

قال: سميت الشام شامًا؛ لأنها شامة للكعبة، وقالوا سميت لشامات بها
 حمر وسود، وقال ابن الأعرابي: إذا جرت جلي طيء يقال لأحدهما: سلمى
 وللآخر أجا؛ فقد أشامت حتى تجوز غزة، ودمشق، وفلسطين، والأردن،
 وقشّرين من عمل العراق.

وقالوا: الشام من الكوفة إلى الرملة، ومن بالس إلى أيلة، وقال عبد الله بن
 عمرو: قسم الخير عشرة أجزاء؛ فجعل منها تسعة أعشار في الشام وجزء في
 سائر الأرضين، وقال وهب الذماري: إن الله - جل وعز - أوحى إلى الشام إني
 باركتك، وقدستك وجعلت فيك مقامي، وإليك محشر خلقي فاتسعي لهم كما
 يتسع الرحم إن وضع فيه اثنان وسعهما، وإن وضع ثلاثة وسعهم، وعيني
 عليك من أول السنين إلى آخر الدهر من عدم فيك المال لم يعدم فيك الخبز
 والزيت.

وروى جبير بن نفير الحضرمي قال: شكت الشام إلى ربها فقالت: يا رب
 فضّلت الأرضين عليّ بالجمال والأنهار، وتركتني كظهر الحمار؛ فأوحى الله - عز
 وجل - إليها أن المسكين يشبع فيك، وعيني عليك، ويدي إليك.

وفي خبر آخر قال: قال رسول الله ﷺ «الشام صفوة الله من بلاده، وإليه ينجي
 صفوته من عباده يأهل اليمن عليكم بالشام؛ فإن صفوة الله من الأرض
 الشام».

وقال الحجاج لابن القتيبة: أخبرني عن مكران قال: ماؤها وشل، وتمرها
 دقل، وسهلها جبل، ولصّها بطل، إن كثر بها الجيش جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا.

قال: فأخبرني عن خراسان.

قال: ماؤها جامد، وعدوها جاهد، وبأسهم شديد، وشرهم عنيد.

قال: فأخبرني عن اليمن.

قال: أرض العرب، وأهل بيوتات وحسب.

قال: فأخبرني عن عمان.

قال: حرها شديد، وصيدها عتيد، وأهلها بهائم ليس بها رائم.

قال: فأخبرني عن البحرين.

قال: كناسة بين مصرين، كثيرة جبالها، جهلة رجالها.

قال: فأخبرني عن مكة.

قال: رجالهم علماء، وفيهم جفاء، ونساؤها كساء عراة.

قال: فأخبرني عن المدينة.

قال: رسخ العلم فيها ثم علا، وانتشر منها في الآفاق.

قال: فأخبرني عن اليمامة.

قال: أهل جفاء وجلد، وثروة وعدد، وصبر ونكر.

قال: فأخبرني عن البصرة.

قال: حرها شديد، وماؤها مالح، وحربها صالح، مأوى كل تاجر،

وطريق كل عابر قال: فأخبرني عن واسط.

قال: جنة بين حماة، وكنة تحسدانها، ودجلة والزاب يتباريان عليها.

قال: فأخبرني عن الكوفة.

قال: سفلت عن برد الشام، وارتفعت عن حر اليمن؛ فطاب ليلها وكثر خيرها.

قال: فأخبرني عن الشام.

قال: عروس في نسوة جلوس كلهن يُزِفْنَهَا، ويرفدنّها.

وقال: عدي بن كعب في قوله: «وَجَمَّيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
لِلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ٧١] قال: الشام.

القول في بيت المقدس

قال في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس: ٩٣] قال: بيت المقدس.

وقال: مقاتل بن سليمان في قول الله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] قال: هي بيت المقدس.

وقوله: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال: إلى بيت المقدس. وقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] قال: بيت المقدس، وشدد الله -عز وجل- ملك داود بها، وسخر الله له الجبال والطير يسبحن بيت المقدس، ووهب الله -عز وجل- له سليمان بها، وغفر لسليمان ذنبه، وفهمه الحكمة في بيت المقدس، وكانت أنبياء بني إسرائيل تقرب بها، واصطفى الله -عز وجل- مريم بها على نساء العالمين، وآتى الله -عز وجل- يحيى الحكمة بها، وسرة الأرض بيت المقدس.

وفي الخبر من صلى في بيت المقدس فكأنما صلى في السماء، وتزف الكعبة بجميع حجاجها يوم القيامة إلى بيت المقدس، ويقول لها: مرحبًا بالزائر والمزور، وتزف مساجد الله -عز وجل- كلها إلى بيت المقدس، وأول ما انحسر عنه الطوفان صخرة بيت المقدس، وينفخ في الصور يوم القيامة بها، ويحشر الله -عز وجل- الخلائق إليها، وتزف الجنة عند بيت المقدس، وباب السماء مفتوح على بيت المقدس، ويغفر الله -عز وجل- لمن أتى إلى بيت المقدس، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

قال الله -عز وجل- لموسى انطلق إلى بيت المقدس؛ فإن بها نوري وناري، وتكفل الله -عز وجل- لمن أتاها أن لا يفوته الرزق، وقال: رسول الله ﷺ لنا: «ستهاجرون هجرة إلى مهاجر إبراهيم» يعني بيت المقدس فمن صلى في بيت

المقدس ركعتين خرج من ذنوبه مثل يوم ولدته أمه، وكان له بكل شعرة في جسده مائة ثور عند الله - عز وجل - وحشره الله - عز وجل - يوم القيامة مع الأنبياء.

وقال لسليمان بن داود حين فرغ من بنائها: سلني أعطك قال: يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي قال: الله - عز وجل - لك ذلك قال: يارب وأسألك من جاء إلى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه أن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه قال: -جل وعز- ولك ذلك قال، وأسألك من جاءه فقيرا أن تغنيه أو سقيماً أن تشفيه، قال: ذلك لك قال، وأسألك أن تكون عينك عليها إلى يوم القيامة قال: ولك ذلك.

وقال: رسول الله ﷺ «لا تشد الرحال إلى أفضل من ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في سواه، ومن صبر على لأوائها، وشدتها جاءه الله برزقه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه، وعن يساره، ومن فوقه ومن تحته فأكل رغدا ثم دخل الجنة»، وهي أول أرض بارك الله -جل وعز- فيها، وبشر الله -جل وعز- إبراهيم، وسارة بإسحاق بها، وبشر الله -جل وعز- زكرياء بيحيى، وبها تسور الملائكة المحراب على داود بها، ويمنع الدجال -عدو الله- أن يدخلها، ويهلك يأجوج، ومأجوج حول بيت المقدس، وأوصى آدم أن يدفن بها، وكذلك إسحاق، ويعقوب، وحمل يعقوب من أرض مصر إليها، ودفنت مريم بها، وبها موضع الصراط، ووادي جهنم، والسكينة، وإليها المحشر والمنشر، وتاب الله -جل وعز- على داود بها، وصدق إبراهيم الرؤيا بها وكلم عيسى الناس في المهد بها، وتقاد الجنة والنار إليها يوم القيامة.

وقال كعب: من زار بيت المقدس دخل الجنة، وزاره جميع الأنبياء وغبطوه، ومن صام يومًا ببيت المقدس كان له براءة من النار، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة التي ببيت المقدس.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْقِمْكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، قال: أربعة أنهار: سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل الذي مصر فأما سيحان: فدجلة، وأما جيحان: فنهر بلخ، وأما الفرات فبالكوفة.

قال: وقال كعب: كان لسليمان بن داود النبي ﷺ سبعمائة سرية، وثلاثمائة محصنة وإن الله -عز وجل- أوحى إليه أن يبني بيت المقدس فكان يعمل به بالجن والإنس؛ فكان طعامهم الذي يطعمهم كل يوم من اللحم ستين ألف شاة وعشرين ألف عجل وعشرين ألف فدان، والذي يصلح لذلك من الحنطة.

وقال كعب: هبط آدم بالهند؛ فخر ساجدًا؛ فوقعت جبهته على صخرة بيت المقدس، وقال كعب: لا تسموها إيلياء ولكنها بيت المقدس إنما إيلياء امرأة بنت بيت المقدس.

وقال كعب: من أتى بيت المقدس يسأل الله -عز وجل- فيها حاجة لا يسأله غيرها إلا أعطاه الله إياها.

وقالت ميمونة مولاة رسول الله ﷺ: قلت لرسول الله -عليه السلام-: أفتنا عن بيت المقدس، قال: «نعم المصلى: هو أرض المحشر وأرض المنشرائتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كآلف صلاة» قلت بأبي وأمي أنت! من لم يطق أن يأتيه؟

قال: «فليهد إليه زيتًا يسرج فيه فإنه من أهدى إليه كان كمن صلى فيه».

وقال كعب: دخلت امرأة الجنة في مغزل شعر أهدته إلى بيت المقدس.

وعن ابن عباس قال: بيت المقدس بنته الأنبياء، وعمرته الأنبياء، ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي وقام عليه ملك.

وقال فضيل بن عياض: لما صرفت القبلة نحو الكعبة؛ قالت صخرة بيت المقدس: إلهي لم أزل قبلة لعبادك حتى بعثت خير خلقك فصرفت قبلتهم عني، فقال: أبشري فإني واضع عليك عرشي، وحاشر إليك خلقي، وقاض عليك أمري، وناشر منك خلقي.

وقال وهب: أهل بيت المقدس جيران الله -عز وجل- وحق على الله ألا يعذب جيرانه، وقال كعب: من زار بيت المقدس شوقاً إليها دخل الجنة، ومن صلى فيه ركعتين خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأعطى قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، ومن تصدق فيها بدرهم كان فداءه من النار، ومن صام فيها يوماً واحداً كتبت له براءة من النار.

وقال كعب: قرأت في التوراة إن الله -جل وعز- يقول للصخرة: أنت عرشي الأدنى منك ارتفعت إلى السماء، ومن تحتك بسطت الأرض من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني، ومن مات فيك فكأنها مات في السماء، أنا جاعل لمن يسكنك أن لا يفوته الخبز والزيت أيام حياته، وكل ماء عذب من تحتك يخرج، لا تذهب الأيام حتى يزف إليك البيت الحرام، وكل بيت يذكر فيه اسمي يحفون بك كما يحف الركب بالعروس.

وقال بعضهم: ردَّ الله -جل وعز- على سليمان ملكه بعسقلان؛ فمشى إلى بيت المقدس على قدميه تواضعاً لله وشكراً، ويقول الله -عز وجل- لبيت المقدس: أنت نصب عيني لا أنساك، أنت مني بمنزلة الولد من والديه فيك جنتي وناري، وإليك محشري، وفيك موضع ميزاني.

وقال يحيى بن كثير: لا تقوم الساعة حتى يضرب على بيت المقدس سبعة حيطان حائط من ذهب، وحائط من فضة، وحائط من لؤلؤ، وحائط من ياقوت، وحائط من زبرجد، وحائط من نور.

وبيت المقدس افتتحه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وعن وهب بن منبه قال: أمر إسحاق ابنه يعقوب ألا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأن ينكح من بنات خاله لابان، وكان مسكنه الفدان فتوجه إليه يعقوب فأدركه في بعض الطريق تعب فبات متوسداً حجراً، فرأى فيما يرى النائم كأن سلماً منصوباً إلى باب السماء عند رأسه والملائكة تنزل منه، وتخرج فيه، وأوحى الله -عز وجل- إليه إني أنا الله لا إله إلا أنا إلهك، وإله آبائك إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك، وباركت فيك وفيهم، وجعلت فيكم الكتاب والحكم والنبوة، ثم أنا معك حتى أردك إلى هذا المكان فأجعله بيتاً تعبدني فيه وذريتك فيقال: إن ذلك بيت المقدس، ومات عنه داود -عليه السلام- فلم يتم بناءه، وأتمه سليمان فأخبره بختنصر فمر عليه شعياً فرآه خراباً فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟ فأماه الله مائة عام ثم بعثه، وابتناه ملك من ملوك فارس يقال له: كوشك.

وقال وهب بن منبه: لما أراد الله -جل وعز- أن يبني بيت المقدس ألقى على لسان داود فقال: يا رب ما هذا البيت؟

فأوحى الله -عز وجل- إليه يا داود هذا محلة رسل، وأهل مناجاتي، وأقرب الأرض إلى فصل القضاء يوم القيامة، ضمنت ألا يأتيه عبد كثرت ذنوبه وخطياه إلا غفرت له، ولا يستغفرني إلا غفرت له، وتبت عليه؛ قال: يا رب ارزقني أن آتيه؛ فأوحى الله -عز وجل- إليه يا داود لا يخالط من التبت كفاء بالدنيا.

قال: يا رب أما قبلت توبتي وأعطيتني رضائي؛ فأوحى الله -عز وجل- إليه أن البيت طاهر طهرته من الذنوب، وغسلته من الخطايا؛ فلذلك منعك بناءه حتى يجري بناؤه على يدي نبي من أنبيائي نقي الكفين.

وقد كان داود أسس أساس المسجد حتى ارتفعت الجدر؛ فأوحى الله -جل وعز- إليه يأمره أن يمسك عن البناء، ويعلمه أن الذي يتولى بناءه من بعده ابنه سليمان، وأنه قد جعل له اسم ذلك البناء، وبشّره بما يعطي سليمان بعده من عظيم الملك؛ فلما أوحى الله -جل وعز- إلى داود بذلك أمسك عن البناء.

فلما توفي داود وملك سليمان؛ أمر ببناء البيت، وأمر أن يجري في كل سنة من البر عشرون ألف كر، ومن الزيت عشرون ألف كر زيتون، وكان له سبعون ألف رجل أصحاب مساح ومرور، وثمانون ألف رجل ممن ينحت الحجارة؛ فبناه بالحجارة، وبطنه بالواح من خشب مزخرف، وبطن البيت الذي كان يقرب فيه بصفائح من ذهب، ووضع في البيت الذي يقرب فيه مثال ملكين من خشب منقوشين والبسهما صفائح الذهب وجعلها عن يمين المذبح، وعن يساره في الحائط، واتخذ له أبوابًا منقوشة بالذهب، واستتم عمله في ثلاث عشرة سنة ثم وجه إلى الصين؛ فأتي برجل يعمل الشبه والنحاس؛ فاتخذ أمتعة للبيت لا تحصى عددًا، واتخذ عمودين من نحاس طول كل واحد ثمانية عشرة ذراعًا في غلظ اثني عشر ذراعًا، واتخذ على رأسهما أجنتين كل واحدة في طول خمسة أذرع، واتخذ لهما أغطية وسلاسل، وعلّق فيهما أربعمائة رمانة شبه صفيين يقابل بعضهما بعضًا، واتخذ حوضًا من نحاس يحمله اثنا عشر ثورًا مستديرًا مع تماثيل وعجائب، وفصص سقفه وحيطانه بألوان الياقوت وسائر الجواهر.

فلما فرغ من بنائه اتخذ سليمان ذلك اليوم عيداً في كل سنة، وجمع عظماء بني إسرائيل وأخبارهم؛ فأعلمهم أنه بناه الله -جل وعز-، وأن كل شيء فيه خالص لله، ثم قام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله -جل وعز- وحمده، ومجّده وقال: اللهم أنت قويتني على بناء هذا المسجد، وأعتنتني عليه، وسخرت لي الجن، والشياطين، والريح، والطير اللهم أوزعني شكر نعمتك عليّ وعبادتك، وأعني عليهما، وتوفني علي ملّتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي ذلك، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال فاستجبها لي يا إله العالمين، لا يطلبه مذنب بطلب التوبة؛ إلا غفرت له ذنبه، وتبت عليه، ولا يدخله خائف إلا أمنت روعته وخوفه ووقيته شر ما يخاف ويحذر، ولا يدخله سقيم إلا وهبت له الشفاء والعافية، ولا يدخله فقير يطلب من فضلك إلا أغنيته ورزقته من حيث لا يحتسب من حلال رزقك، والخامسة يا رب لا تصرف بصرك عمن يدخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحاداً وظلماً يا رب العالمين!!

ويقال: إن طول مسجد بيت المقدس ألف ذراع، وعرضه سبعمائة ذراع، وفيه أربعة آلاف خشبة وسبعمائة عمود، وخمسمائة سلسلة نحاس، ويسرج فيه كل ليلة ألف وستمائة قنديل، وفيه من الخدم مائة وأربعون خادماً، وفي كل شهر له مائة قسط زيت، وله من الحصر في كل سنة ثمانمائة ألف ذراع، وفيه خمسة وعشرون ألف حب للماء، وفيه ستة عشر تابوتاً للمصاحف المسبلة، وفيها مصاحف لا يستقلها الرجل، وفيه أربع منابر للمطوعة، وواحد للمرتزة، وله أربعة مياضئ، وعلى سطوح المسجد مكان الطين خمسة وأربعون ألف صحيفة رصاص، وعلى يمين المحراب بلاطة سوداء مكتوب فيها: خلقة محمد ﷺ وفي ظهر القبلة في حجر أبيض كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله نصره حمزة.

وداخل المسجد ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعًا، وفيه خمسون بابًا داخليًا وخارجًا.

ووسط المسجد دكان طوله ثلثمائة ذراع في خمسين ومائة ذراع، وارتفاعه تسعة أذرع، وله ست درجات إلى الصخرة، والصخرة وسط هذا الدكان، وهي مائة ذراع في مائة ذراع، وارتفاعها سبعون ذراعًا، ودورها ثلثمائة وستون ذراعًا يسرج فيها كل ليلة ثلثمائة قنديل، وبها أربعة أبواب مطبقة، على كل باب أربعة أبواب، وعلى كل باب دكانة مرخمة وحجر الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعًا في سبعة وعشرين ذراعًا تحتها مغارة يصلى فيها الناس يسعها تسعة وستون نفسًا، وفرش القبة رخام أبيض، وسقوفها بالذهب الأحمر في دور حيطانها، وفي أعلاها ستة وخمسون بابًا مزججة بأنواع الزجاج، والباب ستة أذرع في ستة أشبار.

والقبة بناها عبد الملك بن مروان على اثني عشر ركنًا، وثلثين عمودًا، وهي قبة على قبة عليها صفائح الرصاص، وصفائح النحاس مذهبة جدرها من الداخل والخارج، ملبّس بالرخام الأبيض، ومن شرقي قبة الصخرة قبة السلسلة على عشرين عمودًا رخامًا ملبّسة بصفائح الرصاص، وأمامها مصلى الخضر - عليه السلام - وهو وسط المسجد.

وفي الشامي قبة النبي ﷺ ومقام جبريل - عليه السلام - وعند الصخرة قبة المعراج، وفيه من الأبواب باب داود، وباب حطة، وباب النبي، وباب التوبة، وفيه محراب مريم، وباب الوادي، وباب الرحمة، ومحراب زكرياء، وأبواب الأسباط، ومغارة إبراهيم، ومحراب يعقوب، وباب دار أم خالد.

ومن خارج المسجد على باب المدينة في الغرب محراب داود، ومربط البراق في ركن منارة القبلة، وعين سلوان في قبلة المسجد، وطور زيتا مشرف على

المسجد، وفيما بينهما وادي جهنم ومنه رُفِعَ عيسى -عليه السلام- وعليه ينصب الصراط، وفيه مصلى عمر بن الخطاب، وفيه قبور الأنبياء.

وبيت لحم على فرسخ من المدينة وهو موضع ولد فيه عيسى، ومسجد إبراهيم على ١٥ ميلاً، وفيه قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وسارة، ونعل النبي ﷺ عند الإمام.

وكانت سلسلة قضاء الخصوم من اتحاذ سليمان، وكان مما اتخذ أيضًا بيت المقدس من الأعاجيب أن نصب في زاوية من زوايا المسجد عصا أبّنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره مسها، ومن مسها من غيرهم احترقت يده فلم يزل كذلك على ما بناه سليمان حتى غزا بختنصر؛ فخرّب بيت المقدس، ونقض المسجد، وأخذ ما كان في سقوفه من الذهب، والفضة، والجواهر فحمله معه إلى دار مملكته بالعراق، وبقي بيت المقدس خرابًا، حتى مرّ به شعيا النبي ورآه خرابًا وهو الذي قال: الله -عز وجل-: «أَوَكَلَّيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ آوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» [٢٥٩]، وابتناه بعد ذلك ملك من ملوك فارس يقال له: كوشك.

وبين بيت المقدس، والرملة ١٨ ميلاً، وهي من كورة فلسطين، وكانت دار ملك داود، وسليمان، ورجعم بن سليمان، وولد سليمان، ولما ملك الوليد بن عبد الملك، ولي سليمان بن عبد الملك جند فلسطين؛ فنزل لدّا ثم أحدث مدينة الرملة ومصرها، وكان أول ما بني فيها قصره، والدار التي تعرف بدار الصباغين، وجعل في الدار صهريجًا متوسطًا لها ثم اختط المسجد وبنائه، وأذن للناس في البناء فبنوا، واحتفر أيضًا آبار عذبة، وولي النفقة على بنائه بالرملة ومسجد الجامع كاتبًا له نصرانيا من أهل لد يقال له: البطريق بن بكا.

ولم تكن مدينة الرملة قبل سليمان، وكان موضعها رملة، وصارت دار الصباغين لورثة صالح بن علي بن عبد الله بن عباس؛ لأنها قبضت عن بني أمية، وكانت بنو أمية تنفق على آبار الرملة، وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك فلما استخلف أبو العباس أنفق عليها، ثم كان ينفق خليفة بعد خليفة؛ فلما استخلف المعتصم بالله سجل بتلك النفقة سجلاً؛ فانقطع الاستثمار، وصارت جارية يحتسب بها العمال فتحسب لهم.

ومن كور فلسطين أيضاً عمواس، وكورة لُدّ، وكورة يُبْناء، وكورة يافا، وكورة قيسارية، وكورة نابلس، وكورة سبسطية، وكورة بيت جبرين، وكورة غزة، وعسقلان، وسميت فلسطين بفيلسطين بن كسولخيم بن صديقا بن كنعان بن حام بن نوح النبي -عليه السلام- .

وقال ابن الكلبي في قول الله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] قال: هي فلسطين، وفي قوله: ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] قال: فلسطين.

وفلسطين بلاد واسعة كثيرة الخير ويقال: إنها من بناء اليونانيين، والزيتون التي بها من غرسهم.

وقال: النبي -عليه السلام- «أبشركم بالعروسين غزة، وعسقلان».

وقال عمر بن الخطاب لولا أن تعطل الثغور وتضيق عسقلان بأهلها لأخبرتكم بما فيها من الفضل.

وقال عبد الله بن سلام لكل شيء سراة وسراة الشام عسقلان، وافتتحها معاوية في خلافة عمر بن الخطاب

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أريد العراق فقال: ﷺ «عليك بالشام فإن الله -جل وعز- قد تكفل لي بالشام وأهله ثم الزم من الشام عسقلان؛ فإنه إذا دارت الرحى في أمتي كان أهل عسقلان في راحة، وعافية».

وقال: أبو أمامة الباهلي قال رسول الله ﷺ: «من رابط بعسقلان يومًا وليلة ثم مات بعد ذلك بستين سنة مات شهيدًا، ولو مات في أرض الشرك» وخراج فلسطين خمسمائة ألف دينار.

القول في دمشق

قال الكلبي: دمشق بناها دمشق بن فاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وقال الأصمعي: أخذت دمشق من دمشقوها أي أسرعوها.

وقال كعب في قول الله - عز وجل -: والتين، قال: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون، قال: الذي عليه بيت المقدس، وطور سينا حيث كلم الله موسى - عليه السلام -، والبلد الأمين: مكة.

وقال كعب: مريض ثور في دمشق خير من دار عظيمة بحمص قال في قوله عز وجل: «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» [الفجر: ٨] قال: دمشق، وقال كعب: معقل المسلمين من الملاحم دمشق، ومعقلهم من الدجال: نهر أبي فطرس ومن يأجوج: وماجوج الطور.

وقال هارون الرشيد للحسين بن عمار: وليتك دمشق، وهي جنة تحيط بها غدر، تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري فما برح بك التعدي لإرفاقهم أن جعلتها أجرد من الصخر، وأوحش من القفر.

قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفيق من جهته، ولكني رأيت أقوامًا ثقل الحق على أعناقهم؛ فتفرقوا في ميادين التعدي، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار السلطان، وأرادوا بذلك المشقة على الولاة، وإن سخط أمير المؤمنين فقد أخذ بالخط الأوفر من مساعي؛ فقال: الرشيد هذا أجزل كلام سمع من خائف.

وقال: الأصمعي جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبله، وحشوش الدنيا ثلاثة: الأبله، وسيراف، وثمان.

وقال: عروسا الدنيا: الري، ودمشق وقال: يحيى بن أكثم ليس في الأرض بقعة أنزه من ثلاث بقاع: قهندز سمرقند، وغوطة دمشق، ونهر الأبله.

وقال المدائني: دمشق مدينتها الغوطة، وكورها إقليم سنير، وكورة جيبيل وبيروت، وصيدا، وبثنية، وهوران، وجولان ظاهر البلقاء، وجبرين، والغور، وكورة مآب، وكورة جبال، وكورة الشراة: بصرى، وعمان، والجابية، والقريتان، والحولة، والبقاع.

والسواحل منها ستة: صيدا، وبيروت، وطرابلس، وعرقه، وصور، منبرها إلى دمشق، وخراجها إلى الأردن، وخراج دمشق أربعمئة ألف ونيّف، ودمشق هي أربعة أخماس صلح وخمس عنوة وهو خمس خالد بن الوليد، وفتحت سنة ١٤ في رجب للنصف منه في خلافة عمر بن الخطاب وقال: البحر يري في دمشق.

وقد وفى لك مطربها بما وعدا	أما دمشق فقد أبدت محاسنها
مستحسن، وزمان يشبه البلدا	إذا أردت ملأت العين من بلد
ويصبح النور في صحرائها بددا	تمسى السحاب على أجبائها فرقا
ويانعا خضرا أو طائرا غردا	فلست تبصر إلا واكفا خضلا
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا	كانها القيظ، ولي بعد جيته

وقال: أبو تمام:

عرشا هناك ظننتها بليقسا	لولا حداثتها وأني لا أرى
جدلان بساما، وكان عبوسا	وأرى الزمان غدا عليك بوجهه
تلك الظهور بقربه تقديسا	قد نورت تلك البطون وقدست

وقالوا: عجائب الدنيا أربعة: قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرها، ومسجد دمشق.

ولمدينة دمشق ستة أبواب: باب الجابية، وباب الصغير، وباب كيسان، وباب الشرقي، وباب توما، وباب الفرديس... هذه التي كانت على عهد الروم.

ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشق فقال: إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيسةكم هذه، ونعطيك موضع كنيسة حيث شئتم فحذروه ذلك، وقالوا: إنا نجد في كتابنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق فقال: الوليد فأنا أول من يهدمها فقام عليها، وعليه قباء أصفر؛ فهدمها بيده وهدم الناس معه ثم زاد في المسجد فلما هدمها كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كان حقاً ما عملت فقد أخطأ أبوك، وإن كان باطلاً فقد خالفت أباك فلم يعرف الوليد جواباً فاستشار الناس، وكتب إلى العراق فقال الفرزدق: أجه يا أمير المؤمنين بقول الله - عز وجل -: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] إلى قوله حكماً وعلماً، وكتب إليه الوليد بذلك؛ فلم يجبه، والوليد ممن زاد في المساجد وبنائها؛ فبنى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد قباء، ومسجد دمشق، وأول من حفر المياه في طريق مكة إلى الشام، وأول من عمل البيمارستانات للمرضى، وكان في ذلك أنه خرج حاجاً فمر بمسجد النبي ﷺ فدخله فرأى بيتاً ظاعناً في المسجد شارعاً بابه فقال: ما بال هذا البيت؟!

فقيل: هذا بيت علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أقره رسول الله ﷺ، وردم سائر أبواب أصحابه فقال: إن رجلاً نلعه على منابرنا في كل جمعة ثم نقر بابه ظاعناً في مسجد رسول الله ﷺ من بين الأبواب اهدم يا غلام!!

فقال: روح بن زنباع الجذامي لا تفعل يا أمير المؤمنين حتى تقدم الشام ثم تخرج أمرك بتوسيع مساجد الأمصار مثل: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، وتبني بدمشق مسجداً فيدخل هدم بيت علي بن أبي طالب فيما يوسع من

مسجد المدينة؛ فقبل منه، وقدم الشام، وأخذ في بناء مسجد دمشق، وأنفق عليه خراج المملكة سبع سنين؛ ليكون ذكرًا له، وفرغ من المسجد في ثماني سنين فلما حمل إليه حساب نفقات مسجد دمشق على ثمانية عشر بعيرًا أمر بإحراقها.

قال في كتاب المسالك والممالك: أنفق على مسجد دمشق خراج الدنيا ثلاث مرات، وبلغ ثمن البقل الذي أكله الصانع في مدة أيام العمل ستة آلاف دينار، وهذا المسجد مقعد عشرين ألف رجل، وإن فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل.

قال زيد بن واقد: وكلني الوليد على العمال بمسجد دمشق؛ فوجدنا فيه مغارة؛ فعرفنا الوليد ذاك؛ فنزل في الليل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في مثلها، وإذا فيها صندوق وفيه سبط مكتوب عليه: هذا رأس يحيى بن زكرياء؛ فرأيناه فأمر به الوليد أن يجعل تحت عمود معين فجعل تحت العمود المسقط الرابع الشرقي، ويعرف بعمود السكاسك.

وقال أبو مهران: رأس يحيى بن زكرياء تحت عمود السكاسك.

وقال: زيد أيضًا رأيت رأس يحيى بن زكرياء حين وضع تحت العمود، والبشرة والشعرة لم تتغير.

قالوا فمن عجائب مسجد دمشق أن لو بقي الرجل فيها مائة سنة؛ لكان يرى فيها في كل وقت أعجوبة لم يرها قبل!!

وقال كعب: لسينين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الأرض أربعين عامًا، والمثناة التي بدمشق كانت ناطورًا للروم في كنيسة يحيى؛ فلما هدم الوليد الكنائس وأدخلها المسجد تركت على حالها، وهدم الوليد عشرة كنائس واتخذها مسجدًا، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال: إني أرى في مسجد دمشق أموالًا أنفقت في غير حقها، فأنا مستدرك ما استدركت منها ورادها

إلى بيت المال أنزع هذا الرخام، والفسيفساء، وأطينه، وأنزع هذه السلاسل وأصير بدله حبالاً؛ فاشتد ذلك على أهل دمشق؛ فخرج أشرافها إليه، وكان فيهم يزيد بن سمعان، وخالد بن عبد الله القسري فقال خالد لهم: دعوني والكلام قالوا: تكلم، فلما دخلوا عليه قال له خالد: بلغنا أنك هممت بمسجدنا بكذا وكذا؟

قال: نعم.

قال والله ما ذلك لك.

قال: فلمن ذاك لأملك الكافرة - وكانت أمه نصرانية -.

فقال: إن تك كافرة فقد ولدت مؤمناً.

فاستحيا عمر وقال: صدقت.

وورد علي عمر رسل الروم فدخلوا مسجد دمشق؛ لينظروا إليه فرفعوا رؤوسهم إلى المسجد فنكس رؤيس منهم رأسه، واصفر لونه؛ فقالوا له في ذلك؟

فقال: إنا كنا معشر أهل رومية نتحدث إن بقاء العرب قليل؛ فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها؛ فأخبر عمر بذلك؛ فقال: أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار فترك ما هم به من أمر المسجد، والمسجد مبني بالرخام والفسيفساء، مسقف بالساج، منقوش باللازورد، والذهب، والمحراب مرصع بالجواهر المثمنة، والحجارة العجيبة، وبنى معاوية الخضراء بدمشق في زمن عثمان بن عفان، وأمر على الشام وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، واستخلف وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وتوفي لثمان وسبعين سنة وهو أول من اتخذ المحارب، والمقاصير، والشرط، والحرس، والخصيان، وأصفى الأموال، وقد أنكر قوم

بناء الدور، والأبنية، والنفقة، والتبذير عليها، وهذا طلحة بنى داره بالآجر
والقصة، وأبوابه ساج، وبنى عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة المطابقة،
وخشب الصنوبر، والساج، وحمل له من بالبصرة في البحر، ومن عدن في
البحر، وحمل له القصة من بطن نخل، وبنى الزبير أربعة أدور: دارًا بمصر،
وأخرى بالإسكندرية، وأخرى بالكوفة، وأخرى بالبصرة، وأنفق زيد بن ثابت
على داره ثلاثين ألف درهم.

وقال كعب الخبر: أربع مدائن من مدائن الجنة: حمص، ودمشق، وبيت
جبرين، وضمفار اليمن، وأجناد الشام أربعة: حمص، ودمشق، وفلسطين،
والأردن.

ولقي كعب رجلًا فقال: من أين أقبل الرجل؟

قال: من الشام، قال: أفمن أهله أنت؟

قال: نعم.

قال: فلعلك من الجند الذين ينظر الله إليهم كل يوم مرتين؟

قال: وأي جند هم؟

قال: جند فلسطين؟

قال: لا.

قال: فلعلك من الجند الذين يلقون الله في الثياب الخضراء؟

قال: وأي جند هم؟

قال: جند الأردن قال: لا.

قال: فلعلك من الجند الذين يستظلون تحت العرش يوم لا ظل إلا ظله؟

قال: وأي جند هم؟

قال: جند دمشق.

قال: لا.

قال: فلعلك من الجند الذين يبعث الله منهم سبعين ألف نبي؟

قال: وأي جند هم؟

قال: جند حمص.

قال: لا.

قال: فمن أين أنت؟

قال: من قنسرين.

قال: ليست تلك من الشام؛ تلك قطعة من الجزيرة يفرق بينهما الفرات.

وخراج حمص ثلثمائة ألف وأربعون ألف دينار، وأقاليمها كثيرة منها إقلييا: سلمية، وتدمر.

قال: ولما هدم مروان بن محمد حائط تدمر وصل إلى بيت مخصص عليه قفل ففتحه فإذا امرأة مستلقية على قفاها في بعض غدايرها صحيفة نحاس مكتوب عليه: بسمك اللهم أنا تدمر بنت حسان أدخل الله الذل على من يدخل عليّ في بيتي.

قال: فوالله ما ملك مروان بعدها إلا أيامًا حتى أقبل عبد الله بن علي فقتل مروان بن محمد، وفرّق خيله، واستباح عسكره؛ ففيل: وافق دعاءها.

ويقال: إن مدينة تدمر بناها سليمان بن داود، وكانت عجيبة البناء كثيرة الصور، والتماثيل.

ويقال: إنه بنى فيها دارًا فيها مقاصير وأروقة، وحجرات، وإيوانات، وغير ذلك، وأن سطح هذه الحجرات والمقاصير وغير ذلك حجر واحد بقطعة واحدة وهو باق إلى يومنا هذا، وبها صورة جارتين من حجارة من بقايا صور كانت بها وقال: فيها بعض الشعراء:

فَتَاتِي أَهْل تَدْمَرِ خَيْرَانِي	أَلَسَا تَسَامَا طُولَ الْمَقَامِ
قِيَامِكُمَا عَلَى غَيْرِ الْحَشَايَا	عَلَى جَبَلِ أَصَمٍ مِنَ الرِّخَامِ
وَأَنْكُمَا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي	لَأَبْقَى مِنْ فُرُوعِ ابْنِي شَامِ!

وأنشد أبو دلف فيها لنفسه:

مَا صَوْرَتَانِ بَتَدْمَرِ قَدِ رَاعَتَا	أَهْلُ الْحَجَى وَجَمَاعَةُ الْعِشَاقِ
غَبَرَ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ وَمَرَهُ	لَمْ يَسَامَا مِنْ أَلْفَةِ وَعَنْسَاقِ
فَلَيْزَمِينَ الدَّهْرَ مِنْ نَكْبَاتِهِ	شَخْصِيهِمَا مِنْهُ بِسَهْمِ فِرَاقِ
وَلِيَلِيْنَهُمَا الزَّمَانُ بِكُرِهِ	وَتَعَاقِبِ الْإِظْلَامِ وَالْإِشْرَاقِ
كَيْ يَعْلمَ الْعُلَمَاءُ أَلَا دَائِمًا	غَيْرِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْخَلْقِ

وأنشد أبو الحسن العجلي فيها:

إِنَّ اللَّتَيْنِ صَيِّغَتَا بَتَدْمَرِ	وَكَلَّتَا قَلْبِي بِوَجْدِ مَضْمَرِ
صُورَتَا فِي أَحْسَنِ التَّصَوُّورِ	لَمْ يَرْهَبَا كَرَّ صُرُوفِ الْأَعْصَرِ

وتدمر صُلْحِيَّة؛ صالح أهلها خالد بن الوليد.

والسواحل من حصص ستة: كورة اللاذقية، وكورة جبلة، وكورة بلياس، وكورة أنطرطوس، وكورة مرقية، وكاسرة، والسقي، وحبنة، والحولة، وعملوا، ورنديك، وقبرائا.

وإذا عبرت الفرات جئت إلى خشاف، وناعورة ثم إلى حلب، وقنسرين وكورها، وخراج قنسرين: أربعة آلاف دينار.

وقال مشايخ أنطاكية: كانت ثغور المسلمين أيام عمر وعثمان، أنطاكية والكور التي سماها الرشيد العواصم، وهي: كورة قورس، والجومة، ومنيج، وأنطاكية، وتوزين، وبالس، ورصافة هشام، فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم الروم، وكانت فيما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالج للروم.

وقالوا: حصص من بناء اليونانيين، وزيتون فلسطين من غرسهم، ومدينة حصص افتتحها خالد بن الوليد صاحبهم على مائة وسبعين ألف دينار، وكانت مدينة حصص مفروشة بالصخر، وهي اليوم كذاك.

ومن عجائب حصص صورة على باب المسجد الجامع بجانب البيعة على حجر أبيض أعلى الصورة صورة إنسان، وأسفلها صورة عقرب فإذا لدغ العقرب إنساناً فأخذ طيناً، ووضع على تلك الصورة ثم أدفأه بالماء وشربه؛ سكن وجعه، وبرئ من ساعته.

ويقال: إن تلك الصورة طلسم للعقرب خاصة، وكان فتح حصص قبل دمشق في أول ليلة من رجب سنة ١٤.

وبدمشق لبنان: وهو الجبل الذي يكون عليه العبادة، والأبدال، وعليه من كل الثمر والفواكه، وفيه عيون كثيرة عذبة وهو متصل ببلاد الروم، وعند باب

دمشق: جيرون، وهي من بناء سليمان بن داود، وهي سقيفة مستطيلة على عمد وحولها مدينة تطيف بجيرون.

قال أبو عبيدة الجيرون: عمود عليه صومعة وهو من البناء المذكور، ومن البناء المذكور: الأبلق الفرد، والورد أيضًا: قصر بناء سليمان بن داود.

قالوا: وأول من ابتنى حصن المصيصة في الإسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله ثم بنى عمر بن عبد العزيز بها مسجدًا من ناحية كفريةا، واتخذ فيها صهريجًا، وكان اسمه عليه مكتوبًا ثم إن المسجد خرب في خلافة المعتصم وهو يدعى مسجد الحصن، وشحنوها بالرجال، وبنى المنصور فيها مسجدًا جامعًا في موضع هيكلكان بها وجعله مثل مسجد عمر ثلاث مرات ثم زاد فيه المأمون أيام ولاية عبد الله بن طاهر المغرب، وفرض فيها المنصور لألف رجل، وزاد فيها المهدي ألفي رجل، ولم يعطهم شيئًا؛ لأنها قد كانت شحنت بالجنود والمطوعة.

وقال: أبو النعمان الإنطاكي كان الطريق فيما بين أنطاكية، والمصيصة مسبعة يعرض للناس فيها الأسد، فلما كان أيام الوليد بن عبد الملك سُكي ذلك إليه؛ فوجه أربعة آلاف جاموس وجاموسة؛ فنفق الله - جل وعز - بها.

قال الواقدي: ولما غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلاد الروم سنة ١٦٢هـ في أهل خراسان، والموصل، والشام، ومطوعة العراق، والحجاز؛ خرج مما يلي طرسوس فأخبر المهدي ما في بنائها، وتحصينها، وشحنتها بالمقاتلة من عظيم الغناء عن الإسلام، والكبت للعدو، وكان خرج في مرج طرسوس فركب إلى مدينتها، وهي يومئذ خراب فنظر إليها وأطاف بها من جميع جهاتها، وحزر عدة من يسكنها؛ فوجدهم مائتي ألف، فلما كان سنة ١٧١هـ بلغ الرشيد أن الروم قد ائتمروا بينهم للخروج إلى طرسوس لتحصينها، وترتيب المقاتلة بها؛

فأغزى الصائفة هرثمة بن أعين، وأمر بعمارة طرسوس، وبنائها، وتمصيرها ففعل فأجرى أمرها على يدي فرج بن سليم الخادم؛ فبنى قصبتها، ومسجدها، ومسح ما بين النهر إلى النهر؛ فبلغ ذلك أربعة آلاف خطة، كل خطة عشرون ذراعاً في مثلها، وأقطع أهل طرسوس الخطط في شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ.

ولما كانت سنة ١٨٠هـ أمر الرشيد ببناء مدينة عين زرية، وتحصينها، وحول إليها خلقاً من الخراسانية، وأقطعهم المنازل، وفي سنة ١٨٣هـ أمر ببناء الهارونية؛ فبنيت، وشحنت بالمقاتلة، ونسبت إليه وأمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها، وأمر المنصور صالح بن علي ببناء ملطية، وكانت خراباً، وكان الحسن بن قحطبة أتمها بأمر المنصور، وأعان الفعلة بنفسه وماله.

وكان الحسن يقول: من سبق إلى شرفة فله كذا؛ فجدد الناس في العمل حتى فرغوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر، وهم يومئذ سبعون ألفاً، وبنى بها للجند الذين أسكنوها لكل عرّافة بيتان سفليان، وعليتان - والعراقة عشرة نفر إلى خمسة عشر رجلاً - وبنى لهم مسلحة على ثلاثين ميلاً منها، ومسلحة على نهر يدعى قباقيب يدفع في الفرات، وأسكنها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة، وزاد كل واحد منهم عشرة دنانير، وأقطع الجند المزارع، وبنى حصن قلوذية، وأرض التيه بموضع يقال له: حصن منصور أربعون فرسخاً.

وقال: الحجاج بن يوسف لرادان فروخ: أخبرني عن العرب والأمصار؟

فقال: -أصلح الله الأمير- أنا بالعجم أبصر مني بالعرب!

قال: لتخبرني.

قال: فسل عما بدا لك.

قال: أخبرني عن أهل الكوفة.

قال: نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم.

قال فأهل البصرة.

قال نزلوا بحضرة الخوز؛ فأخذوا من مكرهم وبخلهم.

قال: فأهل الحجاز.

قال: نزلوا بحضرة السودان؛ فأخذوا من حق عقولهم وطريهم؛ فغضب الحجاج فقال له: - أعزك الله - لست حجازيًا إنما أنت رجل من أهل الشام.

قال: فأخبرني عن أهل الشام.

قال: نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم، وشجاعتهم.

ويقال: ريف الدنيا من السمك ما بين ماهي وريان إلى عمان، وريف الدنيا من التمر ما بين اليمن إلى البصرة، وهجر، وريف الدنيا من الزيتون فلسطين إلى قنسرين.

وقال المدائني: قدم وفد من العراق على معاوية بن أبي سفيان فيهم صعصعة بن صوحان العبدي فقال: معاوية مرحبًا بكم وأهلاً قدمتم خير مقدم، وقدمتم على خير خليفة وهو جنة لكم، وقدمتم الأرض المقدسة، وقدمتم أرض المحشر والمنشر، وقدمتم أرضًا بها قبور الأنبياء.

فقال صعصعة: أما قولك يا معاوية قدمتم خير مقدم فذاك من قدم على الله والله عنه راض؛ أما قولك: قدمتم على خليفتم وهو جنة لكم فكيف بالجنة إذا احترقت؟

وأما قولك: قدمتم الأرض المقدسة فإن الأرض لا تقدر أن تكون أهلها يقدسونها.

وأما قولك: قدمتم أرض المحشر والمنشر فإن بعد الأرض لا ينفع كافراً، ولا يضر مؤمناً.

وأما قولك: قدمتم أرضاً بها قبور الأنبياء فإن من مات بها من الفراعنة أكثر ممن مات فيها من الأنبياء.

فقال معاوية: اسكت لا أرض لك.

قال: ولا لك يا معاوية؛ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين. قال معاوية: يا صعصعة إني كنت لأبغض أن أراك خطيباً.

قال: وأنا والله يا معاوية أبغض أن أراك أميراً.

قالوا: ودومة الجندل شامية، وهي فصل ما بين العراق والشام، وهي على سبع مراحل من دمشق.

قال ولما فتح أنوشروان قنسرين، ومنبج، وحلب، وأنطاكية، وحمص ودمشق، وإيليا؛ استحسّن أنطاكية وبنّاءها فلما انصرف إلى العراق بنى مدينة على مثال أنطاكية بأسواقها، وشوارعها، ودورها، وسماها زندخسره، وهي التي تسميها العرب رومية، وأمر أن يدخل إليها سبي أنطاكية؛ فلما دخلوها لم ينكروا من منازلهم شيئاً؛ فانطلق كل رجل منهم إلى منزله إلا رجلاً إسكافاً

كان على بابيه بأنطاكية شجرة فرصاد فلم يرها على بابيه برومية؛ فتحير ساعة ثم اقتحم الدار فوجدها مثل داره فلما رأى ملك الروم ما قد فتحه كسرى من مدائنه، وادعه، ووجه كسرى رجلاً من مرابته إلى أرض الروم يقبض الإتاوة.

وقال عمرو بن بحر: رب بلد يستحيل فيه العطر، وتذهب رائحته كقصبية الأهواز.

وقد كان هارون الرشيد همّ بالمقام بأنطاكية، وكره أهلها ذلك فقال شيخ منهم وصدقه: ليست من بلادك يا أمير المؤمنين.

قال: وكيف؟

قال: لأن الطيب الفاخر يتغير فيها حتى لا يتففع منه بكبير شيء، والسلاح يصدأ فيها، ولو كان من قلعة الهند.

وقالوا: سَيْحَانُ بِأَذَنَةٍ، وجيحان بالمصيصة والبردان - ويسمى الغضبان - بطرسوس وجيحون: نهر بلخ.

وقال: ابن شوذب تغور المياه قبل يوم القيامة إلا بثر زمزم، ونهر الأردن وهو الذي قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ﴾ [٢٩٤].

وكور الأردن طبرية، والسامرة، ويسان، وفحل، وكورة جرش، وعكا، وكورة قدس، وكورة صور.

وخراج الأردن ثلاثمائة ألف وخمسون ألف دينار.

ومن الطبرية إلى اللجون ٢٠ ميلاً، ثم إلى القلنسوة ٢٠ ميلاً ثم إلى الرملة مدينة فلسطين ٢٤ ميلاً وهي على الجادة فحاج الشام والثغور ينزلونها ومدينة اللجون فيها صخرة عظيمة مدورة خارج المدينة، وعلى الصخرة قبة زعموا

أنها مسجد إبراهيم - عليه السلام - يخرج من تحت الصخرة ماء كثير، وذكروا أن إبراهيم ضرب بعصاه هذه الصخرة؛ فخرج منها من الماء ما يتسع فيه أهل المدينة، ورسايتهم إلى يومنا هذا.

قالوا: ولنا الزيت والزيتون الذي ليس في شيء من البلدان أكثر منه في بلادنا وقال: الله - عز وجل - ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] ، ومن أبنتهم العجبية لُدُّ، وحدثني رجل قال: قلت لأهل لُدُّ: هذا بنته الشياطين لسليمان.

قال: أنتم إذا جل في صدوركم البنيان أضفتموه إلى الجن والشياطين... هذا قبل مولد سليمان - عليه السلام - بدهور كثيرة.

وعلى سبعة أميال من منبع حمة عليها قبة تسمى المدير، وعلى شفير الحمة صورة رجل من حجر أسود تزعم النساء أن كل من لا تلد تحك فرجها بأنف الصورة؛ فيولد لها، وفيها حمام يقال له: حمام الصوابي فيه صورة رجل حجر يخرج ماء الحمام من إحليله.

قالوا: ومن عجائبا تفاح لبنان، وفيه أعجوبة! وذلك أنه يحمل التفاح من لبنان وهو تفاح جبل عذري لا ظعم له ولا رائحة؛ فإذا توسط نهر البليخ؛ فاحت رائحته، وهذا شبيه بالذريعة التي بنهاوند فإن بها قصبا يتخذ منه الذريعة فليست له رائحة بته حتى يجاز بها ثنية الركاب، وهي من نهاوند على فراسخ كثيرة فإذا جازت الثنية فاحت رائحته، وحمل منها إلى البلدان.

وبشيراز شجرة تفاح، التفاح منها نصفها حلو في غاية الحلاوة ونصفها حامض في غاية الحموضة، وليس بفارس كلها من هذا النوع إلا هذه الشجرة الواحدة.

قالوا من عجائب الشام أربعة أشياء: بحيرة الطبرية، والبحيرة المنتنة، وأحجار بعلبك، ومنارة الإسكندرية، فأما أحجار بعلبك فإن فيها حجرًا على خمسة عشر ذراعًا أقل وأكثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعًا في طول خمسة وأربعين ذراعًا هذا حجر واحد في حائط.

وأما منارة الإسكندرية فإنه يصعد إليها رجل على برذون حتى يبلغ أعلاها، وهي مبنية على سرطان من زجاج.

وأما بحيرة الطبرية فإنه يشرع إليها، وينتفع بها للغسالات فإذا منع منها هذا أنتنت، والبحيرة المنتنة لا يغرق فيها شيء، وكل شيء يقع فيها فإنما يطفو على رأس الماء.

ومن عيوب الشام كثرة طواعينها، والناس يقولون: حمى خيبر، وطواعين الشام، ودمايل الجزيرة، وجرب الزنج، وطحال البحرين.

قالوا: ومن أقام بالموصل حوّلًا وجد في قوته فضلًا، ومن أطال الصوم بالمصيصة خيف عليه الجنون، ومن قدم من العراق إلى بلاد الزنج لم يزل حزينًا ما أقام بها فإن أكثر من شرب نبيذها، وشرب ماء النارجيل؛ صار كالمعتوه.

وقال أبو هريرة: أنا لبراغيث الشام أخوف مني لغيرها.

وقالوا في قول الله - عز وجل -: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] قال: من فلسطين.

افتخار الشاميين على البصريين وفضل الجبلية عن النخلة

قال: أبو عباد محمد بن سلمة البصري المعروف بابن العلاف القاري: إني لفي يوم من أيام المعتز بالله في ديوان الخراج بُسِّرَ مَنْ رَأَى مع جماعة من قراء البصريين نطالب بأرزاقنا، وفينا عليُّ بن أبي ناضر إذ طلع علينا فتية من كُتَّاب الأنبار، ومعهم أبو حمران الشاعر، ونحن نصف البصرة، وما خصت به من أرض الصدقة التي لا يسوغ للسلطان الأعظم تبديلها، ولا للعمال تغييرها، وما فيها من المد، والجزر، والخلجان، ومقادير الساعات، ومنازل القمر.

فقال: أبو حمران ما من بلد إلا وقد أعطي نوعًا من الفضل يتفرد به، وضربًا من المرافق معدوًّا عن غيره يعجب به أهله، ويطمثون إليه في تقرظه.

فقلت له مجيبًا لئن قلت ذلك فإننا لا نعرف مصرًا جاهليًّا ولا إسلاميًّا أفضل من البصرة، ولا أرضًا يجري عليها الإتاوة أشرف من أرض الصدقة، ولا شجرة هي أفضل من النخلة، ولا نعرف بلدًا أقرب برًّا من بحر وحضراء من بدو وريفاء، من فلاة، وملاحا من جمال، وقانص وحش من صائد سمك، ونجدا من غور من البصرة، فهي واسطة الأرض، وغوصة البحر، ومغيض الأقطار، وقلب الدنيا، ولقد مثلت الحكماء الأرض بصورة طائر فجعلوا الجؤجؤ بما فيه من القلب البصرة، والرأس: الشام والروم، والجناحين: المشرق والمغرب، والذنب: السودان، وهم أكثر عددًا من البيضان، فكفى بهذا وحده فخرا.

فقال: أبو حمران:

كل فتاة بفتاها معجبة الخنفسى في عين أمه لؤلؤة

وقالت الأعرابية وهي تزفُّن ابناً لها وتقول:

يا قوم مالي لا أحب حشوده وكل خنزير يحب ولده

فأين أنت يا أخا البصرة عن خصب الشام والجزيرة، وعن فضل المسجد الأقصى والبلاد المقدسة، وعن عذاة داري مضر وربيعة، وعن رفيع قدر الكرمة، وعن قول عمرو بن كلثوم.

وعند الله يأتيه دعاها إلى أرض يعيش بها الفقير
لأرض الشام وهي حمى وحب وزيتون وثم نشا العصير

والله للركة البيضاء وحدها أطيب من البصرة، وللرافقة أغذى من الأبله، ولحلب أخصب من الكوفة للخم وجذام، وإفناء قبائل قضاعة أشرف من بكر وتميم وضبة، وللحبله أفضل من النخلة، وللعنب أحلى من الرطبة، وللزبيبة أطيب من التمرة، ولقد خص الله بلاد الشام من بركة الزيتون والعواصم، والجزيرة من لذة التين، ومن أنواع الفواكه بما يتهالك في أصغره النخل، ويستبشع معه الرطب والتمر.

قال: فقلت لأبي حمران قد سمعنا نشيدك، ووعينا افتخارك، ولا أحسبك سمعت قول الخليل بن أحمد في وصف البصرة إذ يقول في قصر أنس بن مالك، ونهر ابن عمرو، ووادي العقيق:

يا وادي القصر نعم القصر والوادي

وقول ابن أبي عيينة في ذلك:

يا جنة فاقت الجنان فما تبلغها قيمة ولا ثمن
علقتها فاتخذتها وطنًا إن فؤادي بذكرها وطن
زوج حيتانها الضباب بها فانظر وفكر يا صاح في سفن

وقوله أيضًا في أرض البصرة:

يذكرني الفردوس طورًا فأرعوي وطورًا يواتيني إلى القصف والفتاك

لغرس كأبكار الجوارى وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
وسرب من الغزلان يرتعن حوله كما انسل منظوم من الدر من سلك
وورقاء تحكي الموصلي إذا شدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحكي!!
فيا طيب ذاك القصر قصراً ونزهة بأفبح رحب غير وعر ولا ضنك

وسأل هشام بن عبد الملك خالد بن صفوان عن البصرة؟

فقال: إذا أخبرك يا أمير المؤمنين يخرج قانصان فيجيء هذا بالطير
والظليم، وهذا بالسمك والشبوط، ونحن أكثر الناس ساجاً، وعاجاً، وخزاً،
وديباجاً، وبرذوناً هملاًجاً وجارية مغناجاً، بيوتنا الذهب، ونهرنا العجب، أوله
رطب، وآخره عطب فالنخل في مكاريه كالزيتون عندكم في منابته، ثم هو في
أكمامه كذاك في أغصانه ثم هو في إبانه كذاك في زمانه هن الراسخات في
الوحد المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن أسفاطاً عظاماً، وأوساطاً
نظاماً كأنها ملئت رباطاً، ثم تفر عن قضبان اللجين منظومة باللؤلؤ الأخضر
ثم يصير ذهباً منظوماً بالزبرجد الأخضر، ثم يصير عسلاً معلقاً في الهواء ليس
في قرية ولا سقاء بعيد من التراب كالشهد المذاب، ثم يصير في أكيسة الرجال
فيستعان به على العيال.

وأما نهرنا العجب فإنه يقبل عند حاجتنا إليه، ويدبر عند رينا منه، وله
عباب لا يحجبه، ولا يغلق عنا دونه حجاب.

فقال هشام: بلدكم أكرم بقاع الأرض يا أخا بني قميم، فلما رأى أبو حمران
إطراب النشيد في مدح بلدي قطع عليّ كلامي وعارضني دون مرادي فقال:

والله إن لنا معكم بنخل بيسان ونواحي الأردن لأعظم الشرك في النخل،
فما نعبأ به ولا نراه طائلاً فنذكره، وما نصنع بطلب الحجة من بعد ونحن

نجدها من قرب هذا الحسن بن هانئ صاحبكم الذي لا تنكرونه، وخريجكم الذي لا تدفعونه يقول في البصرة:

ألا كل بصري يرى أنما العُلَى	مكمنة سحق لمن جرّين
فإن يغرسوا نخلاً فإن غراسنا	ضراب وطعن في النحور سخّين
فإن أك بصرياً فإن مهاجري	دمشق ولكن الحديث شجون
لأزد عمان بالمهلب ثروة	إذا افتخر الأقوام ثم تلين
وبكر ترى أن النبوة أنزلت	على مسمع في الرحم وهو جنين
ولامت قيساً في قتيبة بعدها	وفخرأبه إن الحديث فنون

وأنشد أبو حمران يصف نفسه لما اجتمعوا عليه في المناظرة وهو وحده:

حول لما حملته غير ضيق	ذراعاً بما ضاق الكرام به مسكا
دعاني فأعطاني مودة قلبه	مودته المثلّي وفي ماله الشركا

ثم أشار إلى ابن أبي ناشر فقال:

جندلثان اصطكتا اصطكاكاً
إن الذليل يكره العراقيا

وقد يضرط العير والمكواة في النار

ثم قال أبو حمران: لنا الزيت، والزيتون، ولنا عروسا الدنيا غزّة وعسقلان، ومدينة دمشق: وهي إرم ذات العماد، ولنا الأرض المقدسة، وفي بلادنا الجبل الذي كلّم الله - عز وجل - عليه موسى - عليه السلام - وجبل لبنان من جبالنا، وبيت المقدس من بلادنا، ولنا المدن العجيبة، والكور الشريفة مثل: طرسوس، والمصيصة، وملطية، والرملة، وفلسطين وأنطاكية، وحلب، وصور، وصيدا، وطبرية.

والكرمة أفضل الأشجار، والعنب سيد الثمار، وهي ناعمة الورق ناضرة الخضرة، غريبة تقطيع الورقة، بديعة الزوايا، مليحة الحروف، حسنة المقادير،

كأنها قورت من سرقة حرير، واستخرجت من ثوب نسيج، كثيفة الظل، خفيفة الفيء، لدنة الأغصان، لينة الأفنان، خضرة الأطراف، كريمة الأخلاق، سلسلة القياد، رفيعة جوهر الأعواد، لذينة الجنى، قريبة المجتنى، صغيرة العجمة، رقيقة الجلدة، عذبة المذاق، سهلة المزرد، كثيرة الماء، فاضلة المخبر على المنظر، شريفة العنصر والجوهر، وكلام كثير لم يستدرك ثم لا يألّف الغربان الناعقات الكرم كإلفها النخل، ولا يعيش في جوانبها العصافير المؤذية بصيلانة أصواتها عند غناء النغران وورق العيادان كتعشيشها في الأدقال، وأصول الكرانيف، والأكراب، ولا يتولد منها من ضخام الدود وسمجة الحشرات والهوام ما يتولد من الليف، ولا يستكن في أثناثه من الذر والفراش، ولا يتحصن فيها من الحيات، والعقارب، وعظام العناكب، وذوات السموم القاتلة ما يتحصن في رءوس النخل؛ فهذا على هذا، والنخل تخلف وتخيّل، ولم نر كرامة حالت ولا أخلفت.

واسم الكرم مشتق من الكرم والكرامة والإكرام والتكرم، وقد قدم الله - جلّ وعزّ - ذكره في كتابه على سائر الأشياء فقال: -جلّ وعزّ -: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ﴾ [الرعد: ٤] فقدم ذكر الكرم وجعل النخل نداء للزرع، والله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال: -جلّ وعزّ - ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا حَذِيَمًا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَبْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] فجعل الكرم أصلاً للجنتين، والنخل من الزوائد.

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩-١١] وقال: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ آمِنِينَ ۝﴾ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨] فالجنان حقائق الكرم.

وقال: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۖ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ٢٧-٢٩] فجعل النخل في ترتيب من الخلف، والكرم في مكانه من التقدم.

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فهل يُعرش من الشجر شيء غير الكرم، والجنة المؤنقة: مقصور عليه، والمعروشة المرفوعة العيدان على الخشب والقصب.

وهي في الفراديس -واحدًا فردوس- والحصرم أرفع من البلح، والوكاب أطيب من البسر، والعنب ألد من الرطب، والعجد أقل غوائل من التمر، والخمر أنفع من النبيذ، وخل الخمر أثقف وأحسن من خلّ الدقل، والطلاء فوق الدوشاب والحبلة سيدة النخلة؛ لأن الحبلة خير ونفع كلها، والنخلة شر وعزٌّ وكذلك قال بعض المحدثين.

النخل عبد وهذا الكرم سيده ومن يقايس بين التمر والعنب؟

وذكر أبو إسحاق أنه رأى بمدينة صنعاء عنبًا يقال له: المختم؛ فوزن منه حبة فوجدتها أكثر من أربعة أساتير، والأستار أربعة دراهم، وحمل بعض عمال الرشيد باليمن إليه في بعض ما حج عنقودين في محملين على بعير، وقد يحمل من جبال أرمينية وأذربيجان أخونة عظيمة جدًا يكون دور بعضها عشرين شبرًا من خشب الكرم.

قالوا: وأطيب العنب الجرشِيُّ: وهو دقيق وله عناقيد تكون ذراعًا.

ومنه عيون البقر: وهو عنب أسود عظام الحب.

ومنه السكر: عنب صادق الحلاوة.

ومنه أطراف العذارى: عنب أسود كأنه بلوط عنقوده نحو الذارع.

ومنه الضروع: عنب أبيض كبار الحب قليل الماء عظيم العناقيد.

ومنه الكلافي: منسوب إلى كلاف بلد في شق اليمن، ومنه الدوالي: عنب أسود غير حالك.

وهل نحن وإن أطبنا في ذكر العنب وأسهبنا في نعت منافعه ومناقبه فمعطوه ما له؟ أو بالغوا به استحقاقه وموفوه ما هو له من الخصال المحموده والخلال المرضية؟ ومن طيب الطعم، وشدة الحلاوة، وكثرة الماء، وعموم النفع، ووفور الجسم، وصغر العجم، وكثرة الأجناس، والضروب، والأنواع؟

ولو أن رجلاً خرج من بيته مسافراً في عنفوان شبابه، وحداثة سنة واستقرى البلدان صقاً فصقاً يتتبع الكروم مصراً فمصراً حتى يهرم، وصغيراً حتى يبدن؛ لتعرف أجناسه، وإحاطة العلم بأنواعه بل إقليماً واحداً من الأقاليم، وناحية من أقطار الأرض لأعوزه، وغلبه، وعزّه، وبهره إذ كان كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا يدرك كالسرنابا، والخمري بطشوج قطرثل، والملاحى ببغداد، والصقلي والأحر بسر من رأى، والزراوى بالكوفة، والحلاوى والبيروزي والجرشي بالبصرة، وأنهارها، والشماقي بالأهواز، وعيون البقر بالشام، والمورقي بالبليخ، ونهر سعيد والمختّم بالري، والفارسي والزرجون والأسفيدمشك، والسيأوشك، والناشقينى، والبازجك والخرجج بقزوين، والوفرباي والماني والماسبدي بناحية الجبل.

وأهل الطب مجمعون على أن العنب أكثر غذاء وأنقى كيموساً من جميع الفواكه والثمار، وأن الإكثار منه غير ضار كضّر التين والخوخ، وسائر الفواكه الرطبة، وأنه حار رطب على طبع الحياة قليل الفضول، مولد للدم الصحيح النقي، وأنه ملائم بجميع الطبائع نافع لجميع الأسنان في كل البلدان، والأبيض أقل حرارة من الأسود.

ولخمري قطربل خاصية في الرائحة عجيبة، وقال الثففي: أطيب الطعام عنب قطيف، أصابه الخريف، بوادي ثقيف.

وقال خالد بن صفوان: من فاته الرازقي في إداره؛ فحق لأهله أن ييكونا عليه، وقال الرسول ﷺ: «كلوا الزبيب فإنه يأكل البلغم، ويطفئ المرة، ويذهب بالنصب، ويشد العصب، ويحسن الخلق».

وقالوا: أنفع الأشربة شراب الكرم فإنها أفضل الأشربة، كما أن ثمرتها رأس الثمار، وشجرتها رئيس الأشجار، وإنها دواء لا داء فيه، وخير لا شر معه.

وإن من أصح الدلائل على ذلك، وأوضح البرهانات له وصف رب العالمين لها باللذة، وإجماع محليها ومحرميها على تقديمها في الطيب، وتفردا بطيب النكهة، وصفاء اللون، وسلس المذاقة، وسهولة المجرى، ولذاذة الطعم، وحسن اللون، وذكاء العرف، وحمرة البشرة، وصحة الجوهر، وطول البقاء على الدهر، وتوليد الفرح والسرور، ونفي الهم والغم، وعلى أنها تغذو فلا تؤذي، وتنفع ولا تضر، وأنها أنفع المشروبات المفرقة والمركبة لجميع الأسنان في كل البلدان، وفي كل فصل وزمان، وأنها تشارك المسكرات في منافعها، وتنافيا في رذائلها، وأن من أفعالها التي هي لها دون غيرها تنظيف الأبدان، ورحض الأبدان، وتوفير المخاخ، وتنقية الأمشاج، وتصفية النطفة، وغسل المفاصل الرئيسة من الأمشاج القذرة، والكيومسات المتسخة، وأنها تفتح السدد المنعقدة وتذيب الفضول الزائدة، وتولد الدم الصحيح الذي هو الحياة وتسخن الدم الغليظ الجامد الفاسد الذي منه بدو الأدوية الفاحشة.

وتذكي النار الغريزية، وتقوي الحرارة الطبيعية، وتحسن اللون، وتدفي الكلى، وتدر البول، وتغسل المثانة، وتقوي الكبد والمعدة، وتمضم الطعام، وتطرد الرياح، وترقق البلغم المالح واللزج.

ثم الخمر مع ما قد وصف لها من الطيب والحسن، وصار في حيزها من ذكاء المشم، وصحة الجوهر فوق كبار المعجونات في دفع المضار، وأرفع الايارجات في تحليل أوصاب الدماغ والأعصاب، وأطف من دهن الخروع في التمشي في عمق المفاصل، والوغول في العظام تجانس بنفعها العقاقير المختارة، وتنوب عن السموم المحللة، والضهادات المتددة، والأطلية المقوية، وتجري مع الأدوية النافعة حيث جرت، ولا بد للمعجونات الكبار منها إذا ركبت فهي أفضل ما غير به الماء بعد شرب الأدوية المسهلة، وعند العلاج في الحمية، ولا تذاب الصموغ المتجسدة، وتماع ألبان النبات الداخلة في المعجونات الرفيعة نحو الشليثا، والترياق، والتياليطوس، والهبطارغان إلا بها، وبما كان من نوعها من العقيد أو نبيذ الزبيب وخل الخمر؛ فقالوا: آنس الله ببقائك الأيام، وعمر بك الآداب، وأحيا بحياتك العلوم.

القول في الجزيرة

سئل الشعبي عن الجزيرة - جزيرة العرب -؟

فقال: ما بين العذيب إلى حضر موت.

وقال الأصمعي: جزيرة العرب ما لم تظله فارس والروم.

وقال الرياشي: جزيرة العرب ما بين نجران إلى العذيب.

وقال أبو عبيدة: جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى اليمن في الطول، وفي العرض ما بين رمل يبرين إلى السماوة.

وقالوا: الجزيرة ما بين دجلة والفرات، والموصل من الجزيرة، وكذلك الرقة الرافقة.

وقال محمد بن الحسن: بلاد العرب الذين لا تقبل منهم الجزية ولا يرضى منهم إلا بالدخول في الإسلام أو السيف من العذيب إلى أبين عدن، فذلك الجزيرة.

قال ابن الأعرابي: الجزيرة ما كان فوق بقعة، وإنما سميت الجزيرة؛ لأنها تقطع الفرات ودجلة، وقد تقطع في البر.

وإنما سميت الموصل موصلاً؛ لأنها وصلت بين الجزيرة الشام، والجزيرة من عمل سمي ساط إلى بلد، ومن الموصل إلى الأردن، ويقال: سميت الموصل؛ لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، ومدينة الموصل بناها محمد بن مروان، وراوند الموصل بناها: راوند بن بيوراسف، وولى عمر بن الخطاب عتبة بن فرقد السلمي الموصل سنة ٢٠ فقاتله أهل الحصن فأخذ حصنها الشرقي عنوة، وعبر دجلة؛ فصالحه أهل الحصن الآخر على الجزية والإذن لمن أراد

بالجلاء في الجلاء ثم فتح المرج، وقراه، وأرض بانهدرا، وداسن وجميع معاقل الأكراد.

وأول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومصرها هرثمة بن عرفة البارقى، وكان عمر عزل عتبة عن الموصل، وولاها هرثمة، وكان بها الحصن، وبيع النصارى، ومنازلهم، ومحلة اليهود فمصرها هرثمة، ثم بنى المسجد الجامع ثم بنى بعدها الحديثة، وكانت قرية قديمة فيها بيعتان؛ فمصرها وأسكنها قومًا من العرب؛ فسميت الحديثة؛ لأنها بعد الموصل، وافتتح عتبة بن فرقد الطيرهان، وتكريت، وآمن أهل حصن تكريت على أنفسهم، وأموالهم، وسار في كورة باجرمق حتى صار إلى شهرزور.

وتكريت من كور الموصل، وبلازائها، في البرية مدينة الحضر على بركة سنجار، وبينها وبين دجلة خمسة عشر فرسخًا، وبينها وبين الفرات خمسة عشر فرسخًا، وهي مبنية بالحجارة البيض بيوتها، وسقفها، وأبوابها، وهي على تل ولها ستون برجا كبارًا وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار على رأس كل برج قصر، وأسفله حمام، وقد حُمل عليها نهر الثرثار، ويشق المدينة ثم يخرج وعلى خافتي الثرثار القرى، والجنان، والثرثار يخرج من سنجار، ويصب في الفرات، ويحمل عليه السفن، وكان ملك الحضر الساطرون ثم الضيزن.

ويقال: إنه كان على الحضر باب يغلقه رجل، ولا يفتحه إلا خلق كثير وهو الذي قال فيه عدي بن زيد:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة تجبى إليه والخابور

وقال الشرقي بن قطامي: لما افترقت قضاة خرجت فرقة منهم إلى الجزيرة، وعليهم ملك يقال له: الضيزن بن جيهلة -أحد الأحلاف- فزلوا مدينة الحضر، وكان بناؤها على طلسمين ألا يهدمها إلا حمامة ورقاء مطوقة

بحيض امرأة زرقاء فأخرج ضيزن كل امرأة عارك، وغزا الضيزن في جميع قضاة فأصاب خلقا من أهل شهرزور فقتلهم؛ وأغار على السواد فأصاب ماة أخت سابور ذي الأكتاف فسمع سابور بذلك فخرج، وأقام عليهم سنتين لا يظفر منهم بشيء حتى عركت النصيرة بنت الضيزن فأخرجت إلى الرض لا يظفر إليه سابور فعشقها، وعشقه؛ فقالت له ما لي عندك إن دلتك على ما تفتح به هذه المدينة؟.

قال: لها أجعلك فوق نسائي قالت: فاعمد إلى حيض امرأة زرقاء فاكتب به في ورقة ثم اجعلها في عنق ورشان، وسرحه فإذا وقع على القصر أرفض بأهله.

ففعل فكان كما قالت فقتل من قضاة نحو مائتي ألف رجل، وأفنى قبائل كثيرة، وبادت إلى يومنا هذا فقال الجدي القضاعي:
ألم يحزنك، والأنباء تنبي بمقتل ضيزن وبني العبيد

ثم إنه خرج بابنة الضيزن حتى عرس بعين التمر فلم تنم تلك الليلة.

قال: لها ما لك؟

قالت: لم أنم على فراش قط أحسن من فراشك هذه قال: ويلك!! وهل نامت الملوك على فرش قط أو طأ من فرشي؟

قالت نعم.

ونظر فإذا في الفراش ورقة آس، وكانت قد التزقت ببطنها فقال: بها كان أبواك يغذوانك؟.

قالت: بشهد الأبكار، ولباب البر، وصغار المعز.

فقال: سابور أنت لم تكاف أبويك على حسن صنيعهما بك، ولم تفي لهما فكيف تفين لي فشدت ذوائبها إلى ذنب فرسين جهوحين ثم استحضرها فقطعهاها.

ومن الموصل أيضًا الطيرهان، والسُن، والحديثة، ومرج جهينة، ونيوى، وباجلي، والمرج، وبانهدرا، وباعذرا، وحبتون، وبانقلي، وحزة، وبانعاس، والمغلة، ورامين، والحناية، وباجرمي، وبابغيش، والداسن، وكفر عزي، وخراج الموصل أربعة آلاف ألف درهم.

وبالموصل جبل يسمّى شعران لكثرة أشجاره، ويقال للشجر: الشعراء.

ويقال: بل هو جبل بياجرمي، ويسمّى جبل قنديل، وبالفارسية: تحت شيرويه، وهو من أعمر الجبال، وفيه كمثرى والعنب، وأنواع الطير، وشجر عظام كبار يُقطع فيحمل إلى العراق، والثلج فيه قائم في الشتاء، والصيف، وإذا خرجت من دُفوقًا ظهر لك وجه منه يلي الزاب الصغير.

وقال الزهري: لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فُتح على عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

على يدي عياض بن غنم فتح: حران، والرقة، وقرقيسيا، ونصيبين، وسنجار، وآمد، وميافارقين، وكفرثوثا، وطور عبدين، وحصن ماردين، ودارا، وقردي، وبزبدى، وأرزن.

والرقة: واسطة ديار مضر، ولم يكن للرافقة أثر، وإنما بناها المنصور سنة ١٥٠ هـ على بناء مدينته بغداد، ورُتب عليها جنودًا من أهل خراسان.

قال الكندي في قول الله - عزّ وجلّ -: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] قال: إلى حرّان، وفي قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] قال: إلى حرّان.

قال كعب في قوله -عز وجل-: «وَنَجِّنُهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ٧١] قال: حران، وقوله: «أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا» [المؤمنون: ٢٩] قال: حران وقال رسول الله ﷺ: «رفعت ليلة أسري بي فرأيت مدينة فأعجبتنني فقلت: يا جبريل ما هذه المدينة فقال: نصيبين. فقلت: اللهم أعجل فتحها، واجعل فيها بركة للمسلمين».

ومن مدنها الرها، وسميساط، وسروج، ورأس كيفا، والأرض البيضاء، وتل موزن، والروابي، والمازحين، والمدير، والرصافة، وكفر حجر، والجزيرة.

وتقدير خراج ديار مضر ألف وستمائة ألف درهم.

ومن عمل الفرات: قرقيسيا، وهي على الفرات، وعلى الرحبة، وعلى الخابور، وهيت، وعانات، والحديثة، والزاب.

ومن كور الخابور الصُّور، والغُدَيْر، وماكسين، والشَّمْسِيَانِيَّة، والسَّكَيْر، وعرابان، وطابان، وتُنِينِير العلياء، وتُنِينِير السفلى، وشاعا، وهذه المدن على الخابور.

فأما كور ديار ربيعة: فنصيبين، وأرزن، وآمد، ورأس العين، وميافارقين.

قال: الشاعر:

بآمد مرة وبأرأس عين وأحياناً بميافارقين

ومن الموصل إلى بلد ٧ فراسخ، ومن نصيبين إلى أرزن ذات اليمين ٣٧ فرسخاً، ومن آمد إلى الرقة ٥٤ فرسخاً.

وخراج ديار ربيعة سبعة آلاف ألف وسبعمائة ألف درهم.

ومن عجائب الجزيرة كنيسة الرها!! والروم تقول ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها، ولا بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج! لأنها بطاقات من خشب العناب، ولا بناء بالرخام أبهى من قيسان أنطاكية، ولا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص!

وقالوا: إن حول مدينة الرها ثلاثمائة وستين ديرًا، وكان بالرها صورة امرأة يقال لها هيلانة قاعدة على كرسي لم يُر في جسمها وجمالها مثلها؛ فعشقها رجل فمرض من حبها، فجاء أبوه فكسر رأسها فلما نظر إليها الفتى تسلى عنها.

قالوا: ومن عجائبنا الجبل الذي بآمد يراه جميع أهل البلدة فيه صدع فمن انتضى سيفه فأولجه فيه وقبض على قبيعته بجميع يديه اضطرب السيف في يديه وأرعد القابض، وإن كان أشد الناس!!

وفيه أعجوبة أخرى أنه متى يحك بذلك الجبل سكين أو حديد أو سيف؛ حمل ذلك السيف والسكين الحديد وجذب الإبر والمسأل بأكثر من جذب المغناطيس!!

وأعجوبة أخرى أن ذلك الحجر نفسه لا يجذب الحديد فإن حُكَّ عليه سكين أو سيف جذب الحديد!!

وفيه أعجوبة أخرى وذلك أنه لو بقي مائة سنة لكانت تلك القوة قائمة فيه.

وبالركة دهن الخطارة، وفيه أعجوبة وذلك أنه لا يتخذ إلا في حانوت بها معروف فإن اتخذ في غيره من الحوانيت فسد، وخاصيته أنه نافع للرياح والنقرس.

قالوا: ومخرج الخابور من رأس العين، ويستمد من الهرماس، ويصب في الفرات.

ومخرج الثرثار من الهرماس، ويمر بالحضر، ويصب في دجلة.

قالوا: ولنا الأفراس الجزيرة.

وسأل معاويةُ ابنَ الكوَّاءِ عن أهل الكوفة؟

فقال: أبحث الناس عن صغيرة، وأضيعهم لكبيرة.

قال: فأخبرني عن أهل البصرة.

قال: غنم وردن جميعاً، وصدرن شتى.

قال: فأخبرني عن أهل الحجاز.

قال: أسرع الناس إلى فتنة، وأضعفهم فيها، وأقلهم غناء.

قال: فأخبرني عن أهل الموصل.

قال: قلادة أمةٍ فيها من كل خرزة.

قال: فأخبرني عن أهل الجزيرة.

قال: كناسة بين المصريين، ثم سكت معاوية، فقال ابن الكواء: لتسألني أو لأخبرن ما عنه تحيد.

قال: أخبرني عن أهل الشام قال: أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم لخالق لا يدرون ما بعده.

وقال الهيثم بن عدي كانت دار إياد ظهر الكوفة، ودير الأعور، ودير قرّة

ودير الأعور: هو دير الجماجم.

وقال الأصمعي: كانت قريش تسأل في الجاهلية عن خصب باعربايا وهي الموصل؛ لقدرها عندهم، ولم ينلهم في خصبها شيء قط، وعن ريف الجزيرة وما يليها؛ لأنها تعدل في الخصب باعربايا، وفي التمر البصرة، وفي السمك عمان.

وخراج كور الجزيرة وديار ربيعة: تسعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وخمسة عشرة ألفاً، وثمانمائة درهم.

أرزن: ألف ألف وستة وخمسون ألف آمد، ألف ألف ومائة وخمسون ألفاً.

ديار ربيعة ميفارقين: ثمانمائة ألف وستة وخمسون ألفاً، وكذلك سائر المدن مثل: ماردين، وداراء، وبلد، وسنجار، وقردي، وبزبدى، وطور عبيد، ورأس العين وقد أجمل خراجها.

ديار مضر حرّان: سبعمائة ألف، وأربعون ألفاً.

الرها: ألف ألف وثلثمائة ألف درهم.

سميساط: ألف ألف درهم.

سروج: ستمائة ألف درهم.

قريات الفرات: ستون ألف درهم.

رأس كيفا: ثلثمائة ألف وخمسون ألف درهم.

أرض البيضاء: مائة ألف وخمسون ألف درهم.

الرقعة: مائة ألف درهم وستون ألف درهم.

الرافقة والروابي: سبعة وخمسون ألف درهم.

المازحين والمدير: مائة ألف وخمسة وثمانون ألف درهم.

القول في الروم

وإنما ذكرنا الروم في هذا الموضع؛ لأنها تحاذي الشام والجزيرة.

قال يحيى بن خالد البرمكي: الملوك خمسة: ملك الأثاث، وملك الدواب، وملك المال، وملك الفيلة، وملك الإكسير.

فأما ملك الأثاث: فملك الصين، وملك الدواب: ملك الترك، وملك المال: ملك العرب، وملك الفيلة: ملك الهند، وملك الإكسير: فملك الروم.

فأرض الروم غربية دبورية، وهي من أنطاكية إلى صقلية، ومن قسطنطينية إلى تولية، والغالب عليهم رومي وصقلبي، والأندلس صقالبة.

والروم كلهم نصارى ملكانية، ويقرءون الإنجيل بالجرمقانية، وهم أصحاب بقر وخيل وشاء، ويحكمون بحكم التوراة؛ وهم أهل صناعات وحكم وطب، وهم أحذق الأمة بالتصاوير، يصور مصورههم الإنسان حتى لا يغادر منه شيئاً ثم لا يرضى بذلك حتى يصيره شاباً، وإن شاء كهلاً، وإن شاء شيخاً، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلاً، ثم يجعله حلواً، ثم لا يرضى حتى يصيره ضاحكاً وباكياً، ثم يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المستغرق والمبتسم والسرور وضحك الهاذي، ويركب صورة في صورة.

ولما توادع قباد، وقصر ملك الروم أهدى إليه قيصر هدايا كثيرة؛ فكان فيما أهدى إليه تمثال جارية من ذهب كان إذا كان وقتاً من الليل يسمع لها ترنم لا يطن على أذن أحد ألا أرقده، وفسطاط عظيم من كيمخار، وسفط جوهر.

وأوفد بعض الخلفاء عمارة بن حمزة إلى ملك الروم، وكتب يتوعده بالخيول والرجال.

قال عمارة: فانتهيت إلى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة، فجلست حتى أتى الإذن فسرت إلى مكان آخر فجلست حتى أتى الإذن ثلاث مرات، ثم وصلت إلى داره فأدخلت دارًا، وإذا على طريقي أسدان عن جنبي الطريق، وطريقي عليهما لا أجد من ذلك بدءًا، فقلت لا بد من الموت فلن أموت عاجزًا، فحملت نفسي، فلما صرت بينهما سكنا؛ فجزت، ودخلت دارًا أخرى وإذا سيفان يختلفان على طريقي فجزرت أنه لو مر بينهما ذبابة لقطعاهما فقلت الذي سلّمني من الأسد ين يسلمني من السيفين؛ فاستخرت الله ومضيت فلما صرت بينهما سكنا، ثم دخلت دارًا ثالثة، وفيها الملك فلما صرت إلى بهوه إذا هو في بهو فسيح أكاد أن لا أبصره؛ لبعد مسافة البصر بيني وبينه، فمشيت حتى انتهيت إلى قدر ثلثه، فغشيتني سحابة حمراء لم أبصر شيئًا، فجلست مكاني ساعة، ثم تجلّلت عني، فقمت فمشيت فلما بلغت نحو الثلاثين غشيتني سحابة خضراء فغشي بصري منها، فجلست حتى تجلّت، ثم قمت فمشيت، فانتهيت إلى الملك فسلمت عليه، والترجمان بيني وبينه فأديت الرسالة، وأوصلت الكتاب فأمرني بالجلوس، وسألني عن الخليفة، وعن أشياء من أمر الأقاليم، ثم أمر بمنزل وإقامة ما أحتاج إليه، وأمرني بالانصراف، والبكور عليه فكننت لأغبه، وأنس بي، فركبت معه يومًا، فانتهينا إلى حائط عليه باب وحفظة، فدخلنا فإذا أصول طرفاء.

فقال: أتعرف هذه الشجرة؟.

فقلت: لا، وظننت أن عنده فيها معنى.

فقال: هذه شجرة ينفع دخانها من الخُراج، وتُمرئ الطعام.

فقلت في نفسي: لو يعلم أنها ببلادنا حطب الأراذل منا، ثم مضى إلى حائط آخر عليه باب وحفظة فدخل، ودخلنا معه فإذا مقدار قفيز من أرض فيه كبر.

فقال: أتعرف هذا؟

قلت: لا، ظننت به ظني الأول.

فقال: هذا نبت وهو جوارشن، وينفع من أصابه الخرق، ويدخل في أدوية الجراحات، فقلت في نفسي: لو يعلم هذا أنا عندنا لا يكون إلا في أهرب المواضع، والمفاوز، وأنه مباح لمن أراد.

فلما آتست به قلت: أيها الملك أريد أن أسأل عن شيء؟

قال: سل عما بدا لك.

قلت: إني رأيت أسدين، وسيفين، وسحابتين كان من قصتهما كيت و كيت، ولم أعرف السبب؟

قال: أما الأسدان والسيوفان فإنهما حيلة تحتال لمن ورد علينا من رسل الملوك؛ لنروعهم بذلك، وإذا قرب الرجل منهم سكنت كما رأيت.

وأما الساحبتان فإني أعلمك خبرهما ثم ضرب بيده إلى ثنى فراشه فاستخرج قطعة ياقوت أحمر كالنعل فإذا السحابة قد غشيتنا من ضوءها ثم ردها، واستخرج أختها من زمرد أخضر فغشيتنا السحابة الخضراء.

فلما أظف خروجي، وأجاب عن الكتاب قال: امض بنا إلى قصري فخرجنا حتى انتهينا إلى قصر عليه حفظة، فدخلنا فإذا بيوت مختومة فأمر بباب منها ففتح فإذا جرب بيض منضدة حوالي البيت ثم قال: أشر إلى ما شئت منها

فأشرت إلى جراب منها فأمر ببرنية فملئت منها برنية ثم أمر بختمها ثم استفتح باباً آخر كالأول في طوله فإذا جرب حمر فقال أشر إلى ما شئت منها فأشرت إلى جراب منها فملئت منه برنية ثم ختمها وانصرفنا إلى القصر فدعا بكير ومنفاخ ورطل نحاس ورطل رصاص؛ فأمر بأحدهما فأذيب، وأمر أن يلقي عليه من الدواء الأبيض ما يحمل ظفر الإبهام ثم أفرغه فخرج فضة بيضاء، ثم أذيب النحاس وألقي عليه من الأحمر مثل ذلك؛ فخرج ذهباً أحمر فقال: أعلم صاحبك أن هذا مالي، وأما الخيل، والرجال فإنك تعلم أنهم أكثر وأكبر.

فقال: عمارة فحدثت المنصور بهذا الحديث؛ فكان هذا الذي حداه على طلب الكيمياء.

قال عمارة: وأعجب ما رأيت في مجلسه أنه كان إذا أراد أن يصرف الناس خرجت في ظهر كل رجل كف من الحائط فيدفعه فيعلم أنه قد أمر بالقيام.

وقال سيف بن عمر: كان ملك الروم الأول من آل بالع بن بعور، وبنى قرية دنحب، ثم ملك بعده يوبب بن زرج ثم ملك بعده هوشم، ونزل التيمن ثم ملك بعده هدد بن بدد الذي قتل المدنيين، ثم ملك سمل بن مسرق ثم عدة كثيرة.

وقال حذيفة: كان علي الروم ملك يقال له: مورك سيم السيرة؛ فاجتمع إليه من المؤمنين اثنان وسبعون رجلاً على أن يأمره بالمعروف، وينهوه عن المنكر؛ فانتدب منهم رجلين لذلك فكلماه فأمر بهما ليصلبا؛ فاجتمع السبعون فقال بعضهم لبعض: نقضتم العهد، وأسلمتم إخوانكم للقتل، وأمركم الآن أشد من أمركم الأول؛ فاثمروا ليأخذوا السلاح، ويفتكوا لمورك حتى يقتلوه فلما أبرز المورك بالرجلين شدوا عليه فقتلوه، ونادوا: أيها الناس لا بأس فإنها غضبنا لله.

فاجتمع إليهم الناس وقالوا لهم: قد قلدناكم أمورنا فولوا من أنفسكم من شئتم فملكوا عليهم رجلاً يقال له: فوق؛ فهو الذي ضرب الدنانير الفوقية.

ثم ملك فوق وكان سبي السيرة؛ فأرادت الروم أن تخلعه، فعمد إلى خزائنها وأموالهم فرمى بها في البحر، وشحن منها السفن، وأسرعها تحملها الريح حتى جاءت بها إلى الشام، وكان شهر براز غلاماً لكسرى على الشام؛ فخرج إلى الساحل فرأى السفن فأمر بها فأخذت، واستخرج ما فيها من الأموال فسمى ذلك المال: كنج بازورد فبطلت أموال الروم منذ حينئذ فليس في الأرض رومي له عطاء أكثر من خمسة دنانير وعشرة دنانير هذا للشريف منهم فهم إلى يومنا هذا على هذا.

وقال: ابن دأب عن موسى بن عقبة قال: كان عبادة بن الصامت يحدث أن بعض الخلفاء بعثه وهشام بن العاص، ونعيم بن عبد الله إلى ملك الروم؛ يدعوهم إلى الإسلام.

قال: فخرجنا حتى جئنا جبلة بن الأيهم الغساني وهو بالغوطة؛ فأدخلنا إليه فإذا هو على فرش مع السقف فأجلسنا بعيداً فأرسل إلينا رسولاً نكلمه فقلنا لا، والله لا كلمناه برسول فأدبنا منه فكلّمه هشام، ودعاه إلى الله فإذا عليه ثياب سود.

فقال: له هشام ما هذه المسوح التي لبستها.

قال: لبستها، وعلي نذر ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا لنخرجك من فرسك من دار مملكتك، ونملك الملك الأعظم أن شاء الله أخبرنا بذلك نبينا ﷺ.

قال: إذا أنتم السمراء.

قلنا: وما السمراء؟

قال: الذي يصومون النهار، ويقومون الليل.

قلنا فنحن والله هم.

قال: وكيف صومكم فأخبرناه بذلك.

قال: فرطن لأصحابه وقال: قوموا، وعلاه سواد ثم بعث معنا رسولا إلى ملك الروم فلما دنونا من مدينته.

قال: الذين معنا أن دوابنا هذه لا تدخل مدينة الملك، وكنا على رواحل فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال، قلنا لا والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك إنهم يأبون فأرسل أن خلوا عنهم.

فدخلنا معتمين علينا السيوف على الرواحل، وإذا غرفة مفتوحة ينظر منها إلينا، وأقبلنا حتى أنخنا تحت الغرفة.

قلنا لا إله إلا الله والله أكبر.

قال: والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعة ضربها الريح، وأرسل أنه ليس لكم أن تجهروا بدينكم على بابي، فأرسل أن ادخلوا فدخلنا فإذا عليه ثياب حجر، وإذا كل شيء عنده أحمر والبطارقة حوله، فدنونا منه فإذا هو يفصح العربية.

فقال: لنا وضحك ما منعكم أن تحيوني بتحية نبيكم فإن ذلك أجمل بكم.

قلنا: تحيتنا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيّا بها لا تحل لنا.

قال: وما هي؟

قلنا السلام عليك.

قال: فما تحيون ملككم

قلنا: بهذا نحياه

قال: فكيف يرد عليكم؟

قلنا: كما نقول له

قال: أفما يرثكم قلنا لا إنما يرث منا الأقرب فالأقرب.

قال: وكذلك ملككم.

قلنا: نعم قال: فما صومكم، وصلاتكم، فوصفنا له

قال: فما أعظم كلامكم قلنا لا إله إلا الله والله أكبر فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أن سيسقط عليهم.

ثم قال: هذه الكلمة هي التي نفضت الغرفة.

قلنا: نعم

قال: كلما قلتموها نفضت سقوفكم.

قلنا: لا

قال: فإذا قلتموها في بلاد عدوكم تفعل ذلك.

قلنا: لا وما رأيناها صنعت ذلك إلا عندك.

قال: ما أحسن الصدق أما أناي وددت أني خرجت إليكم من نصف ملكي، وأنكم كلما قلتموها ينفض كل شيء.

قلنا: ولم ذاك.

قال: كان ذاك أيسر لشأنها، وأجدر ألا يكون من نبوة، وأن يكون من حيلة الناس قال: فما كلمتكم التي تقولون لا إله إلا الله ليس معه غيره.

قلنا: نعم

قال: والله أكبر أكبر من كل شيء

قلنا: نعم

ثم سألنا سؤالاً شافياً، وخرجنا من عنده، وقد أمر لنا بمنزل حسن، ونزل كثير فمكثنا ثلاثاً ثم أرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه فإذا ليس عنده أحد فاستعادنا القول عليه، ودعا بشيء كهيشة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صفار عليها أبواب ففتح بيتاً؛ فأخرج منه خرقة سوداء حريراً؛ فنشرها فإذا فيها صورة، وإذا رجل ضخم العينين، عظيم الأليتين، طويل العنق فقال: أتدرون من هذا؟

قلنا: لا. قال: هذا آدم ﷺ

ثم فتح بيتاً آخر؛ فأخرج منه خرقة سوداء فنشرها فإذا صورة بيضاء فإذا رجل له شعر كشعر القبط، أحمر العينين، عظيم الهامة، قال: أتدرون من هذا؟ قلنا لا. قال: هذا نوح -عليه السلام-

ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج خرقة مثل الأولين فإذا صورة بيضاء شديدة البياض، وإذا رجل حسن العينين، طويل الخد، شارع الأنف، مختلط شيب الرأس، أبيض اللحية، والله لكأنه يتسم قال: أتعرفون هذا؟ قلنا لا. قال: هذا إبراهيم -عليه السلام-.

ثم أخرج خرقة سوداء مثلها فنشرها فإذا صورة وإذا والله رسول الله ﷺ قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، وبكينا، وقلنا هذا نبينا محمد ﷺ فالله يعلم أنه قام قائمًا، ثم جلس فقال: الله هو هو؟ قلنا: والله هو هو كأننا ننظر إليه حيًّا؛ فأمسك ساعة ينظر ثم قال: أما والله إنه آخر البيوت، ولكنني عجلته لكم؛ لأعلم ما عندكم فأعاده، وفتح بيتًا آخر فأخرج خرقة سوداء فإذا فيها صورة صحباء آدماء رجل كثير الشعر، جعد ققط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلص الشفة، وإلى جنبه صورة شبيه به غير أنه مدور الرأس، عظيم الجبين، في عينه قبل فقال: هذا موسى وأخوه هارون.

ثم فتح بابًا آخر؛ فاستخرج خرقة سوداء فإذا فيها صورة بيضاء، أشبه ما خلق الله بصورة امرأة عجيزة، وساقًا قال: هذا داود -عليه السلام- ثم استخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء فإذا رجل أوقص، طويل الرجلين، قصير الظهر، وإذا هو راكب على فرس لكل شيء منه جناح قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان، وهذه الريح تحته.

ثم أخرج لنا خرقة سوداء فيها صورة صفراء، وإذا رجل شديد سواد الشعر، سبطه كثيره حسن الوجه والعينين، مشتبه كل شيء قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا.

قال: هذا عيسى -عليه السلام- قلنا: ومن أين هذه الصور هكذا فإننا نعلم أن هذه الصور على ما صورت لأن صورة نبينا ﷺ مثله؟

قال: إن آدم -عليه السلام- سأل ربه -جلَّ وعزَّ- أن يريه أنبياء بنيهِ فأنزل عليه صورهم فاستخرجها ذو القرنين من خزانة آدم في مغرب الشمس؛ فصورها دانيال على تلك الصور في خرق حرير فهي هذه بعينها، ووالله لوددت أن نفسي تطيب بالخروج من ملكي، وأكون عبدًا؛ لأشرككم ملكه، ولكن نفسي لا تطيب ثم أجازنا، وأحسن جائزتنا، وسرَّ حنا.

قال: ولما دخل أنوشروان أرض الروم، وخرج منها؛ ففقد بها رجلًا من متطبيه يسمونه: الزرسييد؛ فاشتد على أنوشروان ذلك، وغبر الرجل بأرض الروم سنين حتى عُرف كلامهم، وقرأ كتبهم، وعظم شأنه فلما أحكم ما يريد انصرف إلى أنوشروان فعظم موقعه لما رجا أن يجد عنده ما يجب أن يعرف من حال الروم فخلا به فسأله عن شدة ما رأى من بأس القوم، ونجدتهم.

فقال الزرسييد: إنا لم نزل نسمع من الملك أن النجدة قسم شريف، وقد يجمع قسمه أقسامًا لا تتم إلا بها، وأنه لا يستحق أحد اسم البأس والشدة إلا بما يشيعه من الصبر الذي به يحتمل الأخطار بالنفس، والأنفة التي بها يقدم على ما أقدم به، وحسن الذكر، والبصيرة الذي هو ملاك ذلك كله، ورباطة الجأش التي بها يوطن على ما ناله من إحراز المكرمة، وحسن الشاء، وقل من رأيتهم فمن يستحق هذه الصفة، وذلك لمخالفتهم دينهم الذي يدينون به.

قال: فكيف حظهم من العلم؟

فوصفهم بقلته، وزعم أن مفتخرهم إنما يفتخر بكتب الفلاسفة في المنطق، وإنما هي غايتهم.

قال: فأين مبلغهم من الطب؟

قال: أما الطب فمعرفتهم بالطبائع، والجواهر، وعلاج الحرارة والبرودة، وفضول المرة، والبلغم بالعقاقير المسماة لهم لا يعرفون غير ذلك مما بسط لأهل الهند من علاج الأرواح، والأدواء الغليظة، والرقى، والاستعانة ببعض الأرواح على بعض.

قال: فالنجوم؟

قال: قلّ حظهم منه جدًّا.

قال: كسرى فما بلغك فيما يدعيه بعضهم من صنعة الذهب، والفضة، وعن الأصباغ التي يصبغ بها الجوهر فينقل إلى غير طبائعه، وما حكى لنا عن طلسماتهم؟

قال: كان ذلك من أهم أمورهم عندي أن أظفر به فلم أجد شيء من ذلك حقيقة فأما الطلسمات فإنها أمور قديمة، كان على الأرض من قوى شيء شيء قد أُلّف من الكلام والرقى، والعقد على تماثيل قد رأيتها بها مما تقادم عمله في الأزمنة الماضية قبل مخرج عيسى -عليه السلام- فأما اليوم فقد ذهب من يدعيها، وبطل من يعملها.

وفي الخبر: إن الروم لما أخربت بيت المقدس؛ كتب الله عليهم السبي في كل يوم فليس يمر يوم من أيام الدهر إلا وأمة من الأمم المطيفة بالروم يسبون من الروم سبايا.

وبحر الروم من أنطاكية إلى قسطنطينية، ثم يدور آخذًا من ناحية الدبور حتى يخرج خلف الباب، والأبواب من ناحية الخزر حتى يبلغ قيروان أفريقية، وطرابلس أفريقية حتى يبلغ الأندلس إلى السوس الأقصى إلى جزائر السعادة،

وأرض الروم غربية دبورية، وهي من أنطاكية إلى صقلية، ومن قسطنطينية إلى تولية الغالب عليها رومي، وصقلبي، وأندلسي.

والصقالبة صنفان: سمر، وأدم وهو مما يلي البحر، ومنهم بيض فيهم جمال، وهم في البر، ومدينة الملك قسطنطينية، وأنطاكية على ساحل البحر، وفيها مجمع البطارقة.

ومن طرسوس إلى خليج قسطنطينية مائة ميل؛ فيه مسجد مسلمة بن عبد الملك حيث حصر قسطنطينية، ويمر خليج قسطنطينية حتى يصب إلى بحر الشام، وعرض الخليج بأبدس قدر غلوة، وإذا صار إلى بحر الشام فعرضه عند مصبه أيضًا قدر غلوة، وهناك صخرة عظيمة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج، وعمورية دون الخليج وبينها وبين قسطنطينية ستون ميلًا، وذكر أن بطارقة الروم الذين هم مع الملك اثنا عشر بطريقًا بقسطنطينية، وأن خيلها أربعة آلاف، ورجالها أربعة آلاف.

وروي عن كعب قال: شمتت قسطنطينية بخراب بيت المقدس؛ فتعززت، وتجهزت فدعيت المستكبرة، وقالت: إن كان عرش ربي -جل جلاله- على الماء فقد بنيت على الماء؛ فوعدها الله العذاب قبل يوم القيامة فقال الله -جل وعز- لها: وعزتي وجلالي لأنزعن حليكِ، وحريرك، وخرقك، وخميرك، ولأتركنك لا يصيح فيك ديك، ولا أجعل لك عامرًا إلا الثعالب، وبنات آوى، ولأنزلن عليك ثلاثة نيران: نارًا من زفت، ونارًا من كبريت، ونارًا من نפט، ولأتركنك جلحاء، قرعاء، لا يحول بينك وبين السماء شيء، وليبلغن صوتك عنان السماء فإنه طال ما أشرك بي فيك، وعُبد فيك غيري، وليفترعن فيك جواربي ما كدن أن ترى الشمس من حسنهن، ولأسمعن خرير البحر صوتك.

فلا يعجز من بلغ منكم ذلك أن يمشي إلى بيت بلاطة ملكهم، فإنكم ستجدون فيه كنز اثني عشر ملكًا من ملوكهم كلهم يزيد فيه ولا ينقص منه، فتقسمون ذلك كيلاً بالأترسة قطعًا بالفئوس فتحملون ما استطعتم من كنوزها فتقسمونه بالغدقدونية؛ فيأتيكم آت من قبل الشام أن الدجال قد خرج، فترفضون ما في أيديكم فإذا بلغتم الشام وجدتم الأمر باطلاً، وإنما هي نفحة كذوب.

قال خالد بن معدان: ليس في الجنة كلب إلا كلب أصحاب الكهف، وحمار بلعم، واسم كلب أصحاب الكهف: دين، وقال غيره: بل اسمه حمران، واسم الكهف جيرم، وأصحاب الرقيم بقسطنطينية في جبل هناك في شعب، وهم ثلاثة عشر رجلاً.

وخراج الروم مساحة كل مائتي مدى ثلاثة دنائير في كل سنة، ويأخذ عُشر الغلات فيصير في الأهراء للجيش، ويأخذ من اليهود، والمجوس من كل رجل دينار في السنة، ويؤخذ له في كل بيت يوقد فيه كل سنة درهم، وديوانه مقسوم على مائة ألف وعشرين ألف رجل على كل عشرة آلاف رجل بطريق.

وأجل البطارقة خليفة الملك، ووزيره ثم، اللغُيط: صاحب ديوان الخراج ثم اللغُيط صاحب عرض الكتب، ثم الحاجب، وصاحب ديوان البريد ثم القاضي ثم صاحب الحرس ثم المرقب.

والروم أصحاب بقر، وخيل، وشاء، ولهم البزيون العجيب، والديباح الرومي، ولهم من العطر الميعة، والمصطكي، والجواري الروميات، والخدم، وينبت في قعر بحرهم البَسْد، وبها القبة التي من الرصاص، وهي في بعض مفاوزها.

وذكر بعضهم أنه دخلها وعاین ما فيها، ووجد على لوح بها مكتوب عليه: يا بن آدم خف الموت، وبادر الفوت، واستكثر من ادخار صالح الأعمال، واعلم أن ذكر الموت يهون على اللسان، وأن الموت على الفراش أشد من ألف ضربة بالسيف.

يا بن آدم داو الموت بالطاعة، واعلم أن ملك الموت رءوف بأهل الطاعة، يا بن آدم إن كنت تحب نفسك فصنّها عن المعاصي، واحملها على التعب الذي يعقبك الراحة، وأعدّ للسفر البعيد زادًا؛ فإن من رحل بلا زاد عطب، يا بن آدم ما أقسى قلبك تعمر دارًا تحرّب وتحرّب دارًا تبقي، يا بن آدم خذ لنفسك من نفسك، واعرف المذاهب بالأسباب؛ فإن سبب العقل المداراة، وسبب المزيد الشكر، وسبب زوال النعمة البطر، وسبب المروّة الأنفة، وسبب الأدب المواظبة، وسبب البغضاء الحسد، وسبب المحبة الهدية، وسبب الأخوة البشاشة، وسبب القطيعة المعاتبة، وسبب الفقر إسراف المال، وسبب العداوة المراء، وسبب المحبة السخاء، وسبب قضاء الحوائج الرفق، وسبب المذلة مسألة الناس، وسبب الحرمان الكسل، وسبب الريبة مصاحبة الريب، وسبب النبل العفاف، وسبب ثبات العقل المرأة الصالحة، وسبب الغناء قلة الفساد، وسبب الغضب الصلف، والخير كله يجمعه العقل، ومن لا عقل له ولا حياء فلا خير في صحبته.

قال: وإذا خوان موضوع هناك من ملح قدر ما يأكل عليه ألف رجل مكتوب عليه: يا بن آدم قد أكل على هذا الخوان مائة ملك كلهم مصاب بعينه اليسرى فكم كان الأصحاء!

يا ابن آدم قد قضم في هذه القبة مائتا ألف ملك، وقد رام حمل هذا الخوان، واللوح ألف ملك فماتوا كلهم.

قال: فدعاني قيصر فسألني عنه ففسرته له فبكى، ثم قال: لله در العرب ما أعظم أحلامها! وما أكرم فروعها! ثم وصلني، وأحسن جائزتي، ووجه معي من أخرجني من بلاده.

قال أبو المنذر: سميت الروم بني الأصفر؛ لأنه لما مات ملكهم لم يبق منهم من يصلح للملك إلا امرأة؛ فأجمعوا أن يملكوا عليهم أول طالع من الفج فطلع حبشي قد أبق من مولاه فأخذه فزوجوه الملكة؛ فولدت له ابناً فسمي الأصفر؛ لأنه من أسود وأبيض.

ومن عجائب الروم رومية الداخلة، فإنها عجيبة البناء كثيرة الأهل وبينها وبين قسطنطينية مسيرة سنة!!

وقال: جبر بن مطعم لولا صوت أهل رومية لسمع الناس وجبة الشمس من حيث تطلع.

وقال حسن بن عطية: يفتح على المسلمين مدينة خلف قسطنطينية يقال له: رومية فيها مائة ألف سوق في كل سوق مائة ألف رجل.

وقال: بعض العلماء ينقّس برومية في كل يوم عشرون ومائة ألف ناقوس لولا وجبة أهلها لسمع الناس تسبيح الملائكة، ووقع غروب الشمس، ويقال: إن فيها ستمائة ألف حمام.

قال: وفي وسطها عمود من حجارة، عليه صورة بعير منحوت من حجر، عليه رجل من حجر بيده سيف قال: فسألت عنه فقلت ما هذا؟ فقال: إن الذي بنى هذه المدينة قال لنا: لا تخافوا على مدينتكم حتى يأتيكم قوم على هذه الصفة فهم الذين يفتحونها.

وذكر بعض الرهبان ممن دخلها، وأقام بها سنة واحدة إن المحيط بها ثمانية

وعشرون ميلاً في ثلاثة وعشرين ميلاً ولها ثلاثة أبواب من ذهب، ولها سبعة أبواب سوى هذه الثلاثة من نحاس، ولها حائطان من رخام، وفضاء طوله ستون ذراعاً، بين الحائطين وعرض السور الخارج ثمانية عشر ذراعاً وارتفاعه اثنان وستون ذراعاً وبين الحائطين نهر يسمى وسطيطابرس مأؤه عذب يدور في المدينة، ويدخل دورهم مطبق بدفوف النحاس طول كل دفٍّ منها ستة وأربعون ذراعاً وعدد الدفوف مائة ألف ألف وأربعون ألف ألف دف، وكلها من نحاس، وعمود النهر ثلاثة وتسعون ذراعاً في عرض ثلاثة وأربعين ذراعاً فكلما هم بهم عدو أو ناهم أمر رفعت تلك الدفوف فيصير بين السورين خندق لا يرام وفي المدينة أربعة وعشرون ألف كنيسة للخاصة سقوفها، وحيطانها، وأركانها، وأعمدتها، وكواها حجر واحد من رخام أبيض، وفي المدينة شوارع كثيرة في كل شارع ألف ومائتان وثلاثة وعشرون داراً، وفي المدينة عشرة آلاف دير للرجال وعشرة آلاف للنساء، ومائتان وعشرون للرهبان، وفيها اثنا عشر ألف زقاق، ويمجري في كل سكة نهران أحدهما للشرب، والآخر للحشوش، وفيها كنيسة يقال لها: كنيسة الأمم فيها مائة ألف وثلاثون ألف سلسلة ذهب، وفيها ستُمائة زوج من أبواب النحاس المموّه بالذهب، وأوصاف هذه المدينة المسماة رومية طوال طال عليّ نسخها.

في مدح البناء

قال: فكل مدينة موضوعة في جهة المشرق فهي أشد اعتدالاً وأقل أسقاماً؛ لأن الشمس تصبّي تلك المياه التي تجري فيها، والمدن الموضوعة بإزاء المغرب يكثر أمراض أهلها؛ لأن مياههم كدرة متغيرة، وهواءهم غليظ؛ لأنه يئقّي تلك الرطوبات فيه، فيغلظ مياههم، والمدن الموضوعة على جهة الجنوب يكون مياهها حارّة كدرة متغيرة مالحة، فمن ذلك تسخن في الصيف، وتبرد في الشتاء، وأبدان أهلها تكون رطبة ليّنة؛ لما يتحلّب إلى البدن من الرطوبات من رءوسهم، وتكثر نساؤهم الأسقاط؛ بسبب الرطوبات، ولا يقدرّون أن يكثرّوا الطعام والشراب لضعف رءوسهم؛ لأن كثرة ذلك تغمّ دماغهم وتغيّره، وقليل ما يعرق لهم الحُمّيات الحارة، والمدن الموضوعة في جهة الشمال وعلى إزائه مياهها يابسة رطبة ثقيلة النّضج، وأهلها أقوياء أشدّاء عراض الصدور، دقاق السوق، رءوسهم صحيحة يابسة، وأعمارهم طويلة؛ لصحة أبدانهم، وكثرة فضول الرءوس، وتكون أخلاقهم وحشة، يقلّ حمل نساؤهم ولكنهن لا يسقطن؛ لبرد الماء وييسه، ويلدن بشدة وصعوبة؛ ليسهن ويتسع لذلك صدورهم، وإنما دقت أرجلهم لارتفاع الحرارة عنها إلى فوق، ويكثرّون الأكل ولا يكثرّون الشرب، وقالوا: سكّان ناحية الجنوب سود جعاد، دقاق الكعوب، كحل العينين، سود الشعور، خفاف اللحوم، فيهم الحفظ والذكاء والبرّ والكذب والحرص والسرقة، وسكّان ناحية الصّبا أقرب شبّها بناحية الشمال، وهم دونهم فيما وصفت، وسكّان ناحية الدبور أقرب شبّها بأهل ناحية الجنوب، وهم دونهم.

وأهل المغرب يختلفون في هيئاتهم؛ فأما سكّان سواحل البحر منهم فقريب شبّهم من سكّان ناحية الجنوب، وسكّان ناحية الضواحي فقريب شبّهم بناحية الشمال.

وأهل الهند عمتزجون؛ لأن بلادهم مزاج الشمال والجنوب؛ فذلك حسنت أخلاقهم وأجسامهم ووجوههم واعتدلت، وكذلك من كانت محلته بين الجنوب والشمال، وهم أعدل مزاجاً وأحسن عقولاً.

وأهل مصر أهل غفلة وقلة فطنة، والبربر الفطنة فيهم فاشية وليس فيهم كبر ولا مكر، وأهل الروم أهل صلف وتكلف، وأهل الشام أهل غفلة وسلامة، وأهل الحجاز أهل معازف وهو ومداعة وتأنيث، وأهل العراق أهل فطنة وغدر، وأهل الهند أهل غفلة ولين وشجاعة، وأهل الصين أهل طلب وخفة وجبن وحذق بالصناعات، وأهل اليمن أهل غفلة ولين وخفة، وأهل خراسان أهل غفلة وبخل وحرص وشجاعة.

وقال بقراط في كتاب الأهوية والبلدان: ما كان من الأمصار مقابل شرق الشمس فرياحه سليمة وماؤه عذب، فإن هذه المدينة قليلاً ما يضرها تغير الهواء، وكان يقول: المياه التي تنبع من مواضع مشرفة ومن تلاع وروابي أفضل المياه وأصحها، وهي عذبة وبلدانها أصح بلاد، ولا تحتاج إلى كثرة مزج الشراب ولا سيماً الشرقي والصيفي؛ لأنها تكون براءة طيبة الريح اضطراباً.

وقال قسطنطوس في كتاب الفلاحة: أصلح مواضع البنيان أن يكون على تل، أو كِبْس وثيق؛ ليكون مطلاً، وأحق ما جعلت إليه الأبواب والأفنية والكوا المشرق واستقبال الصبا؛ فإن في ذلك صلاح الأبدان لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليها، وأن تُوسَّع البيوت ويُرفع سمكها وتكون أبوابها إلى المشرق؛ لأن ريح الجنوب أشد حراً وأثقل وأسقم.

وقالوا أيضاً بأن الفلك مستدير، واستدلوا بذلك؛ لأنه يدور على محورين وقُطْبَيْن: اللذين هما القطب الشمالي والجنوبي، فأمّا أهل البلدان التي مالت إلى ناحية الشمال فإنهم يرون القطب الشمالي وبنات نعش، ولا يرون القطب

الجنوبي ولا الكواكب القريبة منه، وذلك أَنَّهُ لا يُرى سُهَيْلُ بناحية خراسان ويُرى بالعراق أَيَّامًا في السنة، فأَمَّا البلدان الجنوبية فإنه يُرى فيها السنة كُلُّها، فمن مال إلى ناحية الجنوب غاب عنه القطب الشمالي والكواكب التي هي قريبة منه.

وهذه الكواكب التي هي قريبة من القطب تدور حوله دورًا مستديرًا مستويًا يُرى بالعيان مثل الشمس، فإنَّها في الصيف تطلع من وسط المشرق، ثم تصعد في الفلك صعودًا مستويًا، ثم تهبط على مثال ذلك الدور، ثم تغيب تحت الأرض فتدور هناك مثل ما تدور ها هنا حتى تطلع، وزعموا أَن البحر أيضًا كرويٌّ مدوَّر، وبرهان ذلك أَنك إذا لَجَجْتَ فيه غاب عنك الأرض والجبال شيئًا بعد شيء حتى يغيب ذلك كله، ولا ترى شيئًا من شوامخ الجبال، فإذا أقبلت نحو الساحل ظهرت لك تلك الجبال وأجسامها شيئًا بعد شيء، فإذا قربت نحو الساحل ظهرت الأشجار والأرض.

وأصحُّ البلاد ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه مهبَّ الصَّبا. وما كان في قعور وأغوار ومواجهة لريح الجنوب أو الدبور فهي مواضع رديَّة مولدة للأمراض، والصواب أَن تتخذ الدور بين الماء والسوق، وأن تكون الدور شرقية والبساتين غربيَّة وقالوا: لتكن دوركم شرقية، وضياعكم غربيَّة.

وقال ابن كَلْدَةَ: جميع خصال الدار أن تكون على طريق نافذ، وماؤها يخرج، وليس عليها متشرف، وحدودها لها، وتكون بين الماء والسوق، ويصلح فنائها لحطَّ الرحال وبَلِّ الطين وموقف الدواب، وإن كان لها بابان فذاك أمثل، وتكون نقِيَّ الجوار؛ لأن الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق.

وقال يحيى بن خالد: دار الرجل دنياه، فينبغي للرجل أن يتنَوَّق في دهليزه، فإنه وجه الدار، ومنزل الضيف، ومجلس الصديق إلى أن يؤذن له،

ومستراح الخدم، وموضع المعلم، ومنتهى حدّ المستاذن، قال: وكان على بعض بني الثقيف دّين. قال له الحسن البصري: بع أرضك، فقال: يا أبا سعيد إنّنا أهل بيت لا نبيع التراب حتى نصل إلى التراب.

وفي بعض الخبر: مَنْ قدم بلد فأخذ من ترابها وجعله في مائها عوفي من وبائها، وقيل لباني دار: ما أشدّ ما مرّ عليك في هذه الدار؟ قال: أسهل الأمور النفقة وأعظمها معاناة الفعلة.

وقال آخر: سعة الدار تزيد في عقل الرجل كما أن ضيقها ينقص من عقله، وذلك أن الرجل إن كان ضيق المسكن فدخل عليه داخل فيضيق عقله عند حرمه مخافة أن يبدو منه عورة أو عثرة، فإذا كان واسع المسكن فجميع عقله معه.

وبنى كسرى دارًا فلما كان في اليوم الذي تجوّل فيها أذن للناس عامّة، ثم عزم عليهم أن يعرفوه عيها فسكت الناس، فقام رجل دميم رث الهيئة فقال:

إن الملك قد عزم علينا بما عزم فلولا التأمّن من إحنات ما عزم لكان موضوعًا عنه ما أمر به، فلذلك نستخير أن نقول ما وافقه أو خالفه من عيوبه، إنّهُ بُني في هبطة من الأرض لا تقع عليه العين إلّا بعد أن يُقَرَّب منه، وأولى المواضع ببناء المدن والدور الشُّرف من الأرض؛ ليشرف على ما حولها، ومنها أن منزل نسائه فيها فوق منازلها، ويدلّك ذلك على الطيرة على أن أمر النساء سيستعلي على أمر الرجال فيفوقه، ومنها أن صحن الدار يُعَمَّر باتّساع من يحضر الدار من الحاشية والحرس والخدم؛ لتتحممهم عين الداخل، وكان ينبغي أن يكون ذلك بمقدار ما يملؤ عين الداخل ما تقع عليه من كثرة عدد من يحضره وشحنهم له، فذلك أبلغ ما أريد، وأحرى أنه ليس يُنْفَق درهم من بيوت الدانين لك.

وَأُنْشِدَ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ فِي بِنَاءِ دَارٍ:
 أَعْمَهَا اللَّهُ مِنْ دَارٍ وَأَكْمَلَهَا
 اللَّهُ مَا هِيَ أَتْبَاهَا وَأَنْبَلَهَا
 لَمْ يَبْقَ فِي الدُّورِ بَلْ فِي الْأَرْضِ مِنْ
 فَالْحُسْنِ خَارِجَهَا وَالْحَسَنِ دَاخِلَهَا
 كَأَنَّهَا غَادَةٌ أَهْدَتْ لِمَالِكِهَا
 كَأَنَّهَا دُرَّةٌ بِيضَاءُ أَبْرَزَهَا
 كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ زَهْرَاءُ نَاضِرَةٌ
 كَأَنَّهَا جَنَّةٌ الْفِرْدَوْسُ أَنْزَلَهَا
 لَمْ يَنْهَها وَيُوسِّعْ بَابَ مَدْخَلِهَا
 فَلَنْ يَسَاوِيَهُ حُرٌّ لِيَعْدِلَ بِهِ

وَبِالْأَمَانِ مِنَ الْآفَاتِ ظَلَّلَهَا
 اللَّهُ مَا هِيَ أَخْلَاهَا وَأَشْكَلَهَا
 إِلَّا وَأَصْبَحَ مَجْمُوعًا بِهَا وَلَهَا
 وَالْحَسَنُ يَضْحَكُ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا
 عِشْقًا فَوْشَحَهَا حَلِيًّا وَكَلَّلَهَا
 لَا تَعْرِفُ الْعَيْنُ أُخْرَاهَا وَأَوَّلَهَا
 جَادَ الْحَيَا زَهْرَهَا لَيْلًا فَأَخْضَلَهَا
 إِلَيْهِ ذُو الْعَرْشِ إِكْرَامًا لِمَنْزِلِهَا
 إِلَّا لِيَقْصِدَهَا الرَّاجِي وَيَدْخُلَهَا
 حَتَّى تَسَاوِيَهَا دَارٌ فَتَعْدِلَهَا

في ذم البناء

قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ نَفَقَةً إِلَّا كَانَ خَلْفَهَا عَلَى اللَّهِ ضَامِنًا إِلَّا مَا كَانَ فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ». وقال الله عز وجل: ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً﴾ [الشعراء: ١٢٨]، وقال إسحاق بن سويد: كانت المساجد بالقصب، ثم بالرَّهْص، ثم كانت باللبن والطين، ثم كانت بالآجر والجص. فكان أصحاب القصب خير من أصحاب الرَّهْص، وأصحاب الرَّهْص خير من أصحاب اللبن والطين، وأصحاب اللبن والطين خير من أصحاب الآجر والجص.

ولما بنى معاوية الخضراء قال لأبي ذر: كيف ترى هذا؟ قال: إن كنت بنيتَه من مال الله فإنك من الخائنين، وإن كنت بنيتَه من مالك فأنت من المسرفين.

وبنى رجل بيتًا عاليًا فقال له بعض الناس: نزلت حيث رحل الناس، وأنشد:

أَبْعَدَ عَادٍ .. تَرْجُو الْخُلُودَ؟ وَهَلْ يَبْقَى عَلَى الْمَاءِ بَيْتٌ أَشْهُ الْمَدْرُ؟
إِلَى الْفِرَاقِ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُمْ مَصِيرُ كُلِّ بَنِي أُمٍّ وَإِنْ كَثُرُوا

قال: لما بنى عبيد الله بن زياد البيضاء بالبصرة أمر أصحابه أن يستمعوا من أفواه الناس، فأتي برجل قيل: إنه قال: ﴿أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]. قيل له: فما دعاك إلى هذا؟ قال: آتي من كتاب الله عز وجل عرض لي. قال: والله لأعملنَّ فيك بالآية الثانية: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، ثم أمر فبني عليه ركن من أركان القصر.

وقال محمد بن حبيب الضبي في دور آل طاهر:
وكان الشاذليخُ مُنَاخٌ مُلْكٌ فزال الملْكُ عن ذاك المُنَاخِ
وكانت دورُكم للهُوَ وَقَفًا فصار للنوائح والصُّراخِ

فَعَيْنُ الشَّرْقِ بَاكِئَةٌ عَلَيْكُمْ وَعَيْنُ الْغَرْبِ تُسْعِدُ بَانْتِضَاخِ
كَذَاكَ يَكُونُ مَرَّةً صَجَبَ التَّرَاخِمِ فَذَاكَ الدَّهْرُ يُعْقِبُهُ التَّرَاخِمُ ،

وله أيضًا:

فَنِلَاكَ قُصُورُ الشَّاذِيَاخِ بَلَاقِعُ خَرَابٌ يَبَابُ وَالْمِيَانُ مَزَارِعُ
وَأَضْحَتْ خَلَاءٌ شَاذِمُهُرُ وَأَضْبَحَتْ مَعْطَلَةٌ فِي الْأَرْضِ تِلْكَ الْمَصَانِعُ
وَعَنَى مُغْنَى الشُّرْبِ فِي آلِ طَاهِرٍ بِمَا هُوَ رَأْيِي الْعَيْنُ فِي النَّاسِ رَائِعُ
عَفَا الْمُلْكُ مِنْ أَوْلَادِ طَاهِرٍ مِثْلَ مَا عَفَا حُسَمٌ مِنْ أَهْلِهِ فَمُتَالِعُ
وَأَيَّامُهُمْ كَانَتْ لَدَيْنِهِمْ وَدَائِعَا فَأَرْهَقَهُمْ دَهْرٌ فَرُدَّ الْوَدَائِعُ

وقال آخر في آل بَرَمَك:

أَوْحَشَ النَّوْبَهَارُ مِنْ آلِ جَعْفَرُ وَلَقَدْ كَانَ بِالْبَرَامِكِ يُعَمَّرُ
قُلْ لِيَحْيَى أَيْنَ الْكِهَانَةُ وَالسَّحَرُ رُ وَأَيْنَ النَّجُومِ عَنْ قَتْلِ جَعْفَرُ؟
أَنْسَيْتَ الْمَقْدَارَ أَمْ زَاغَتِ الشَّمْسُ سُسُ عَنْ الْوَقْتِ حِينَ قَمَتِ تُقَدَّرُ؟
إِنَّ بِحِيْبِي بَنَ خَالِدٍ وَبَنِيهِ أَضْبَحُوا فِكْرَةً لِكُلِّ مُفَكِّرُ

وقال آخر:

مَرَرْتُ عَلَى رُبْعِ لِيَحْيَى بَنِ خَالِدٍ وَبَاطِنُهُ يَشْكُو الْخَرَابَ وَظَاهِرُهُ
فَكَادَتْ مَغَانِيهِ تَقُولُ مِنَ السَّبَلِ لَسَائِلُهَا عَنْ أَهْلِهَا مَاتَ عَامَرُهُ

وقال آخر:

فَإِنْ يُمَسِّبُ وَخُشَا دَارُهُ فَلَطَالُ مَا تَنَاطَحَ أَفْوَاجًا لَدَيْهِ الرِّكَائِبُ
يَحْيُونَ بَسَامًا كَسَانًا جَبِينَهُ هَلَالٌ بَدَا وَانْجَابَ عَنْهُ السَّحَابُ
وَمَا غَائِبٌ مَنْ غَابَ يُرْجَى إِيَابُهُ وَلَكِنْ مَنْ قَدْ ضَمَّهُ الْقَبْرُ غَائِبُ

ومرَّ بعض الكتاب بالدُّشْكِرَةِ فرأى ما فيها من البنيان والمصانع والقصور

وخان الأجر، وحبس كسرى والمدينة، فقال:

يَا مَنْ يَوْمٌ إِلَى بَغْدَادَ مَجْتَهِدًا	أَرْخَ مَطْيَكَ بَيْنَ الْحَبْسِ وَالْخَانِ
بَيْنَ الْقَنَاظِرِ وَالْدَسَاكِرِ وَالْقُرَى	فَمَحَلٌّ كَسْرَاهَا أَنْوَشَرَوَانَ
وَانْظُرْ إِلَى طَلَلِ تَقَادَمَ عَهْدِهِ	وَرُشُومَ أَبْنِيَةٍ عَلَى الْأَزْمَانِ
يُنْبِيكَ آثَارُ الْمُلُوكِ بَأَنَّهُمْ	كَانُوا ذَوِي بَأْسٍ ذَوِي سُلْطَانِ
وَلَقَدْ عَجَبْتُ فِي الزَّمَانِ عَجَائِبُ	وَمَا عَابَنْتُ عَيْنَايَ فِي الْإِيوَانِ
إِيوَانِ كِسْرَى شَاهِقِ شُرَفَائِهِ	عَالِي الدَّرَى مُسْتَوْتِقِ الْحِطَّانِ
مَا إِنْ بِهِ إِلَّا الصَّدَى وَحَائِثُ	مُخَضَّرَةِ تَدْعُو إِلَى الْأَغْصَانِ
بَعْدَ النَّوَاعِمِ وَالْأَوَانِسِ بُدِّلَتْ	هَامًا وَعِقبَانًا مَعَ الْغُرَبَانِ
وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الْأَنَاسِ فَمَا تَرَى	إِلَّا الْعَزِيفَ بِهِامِنَ الْجَنَانِ

وكان السبب في بناء قصر شيرين أن الملك أمر أن يُبْنَى له باغ يكون فرسخين في فرسخين، وأن يُصَيَّرَ فيه من كل صيد حتى يتناسل، ووكل به ألف رجل، وأجرى على كل رجل منهم خمسة أرغفة ورطلين لحماً ودورق خمر، فأقاموا فيه سبع سنين حتى فرغوا منه، فلما تم البناء التجثوا إلى فَهْرَبْدَ مغني الملك، وسألوه أن يخبر الملك بفراغهم من الباغ فعمل صوتاً وغناه بين يدي الملك، وسماه باغ نَحْجِيرَان، أي: باغ الصيد، فطرب الملك وأعطى كل واحد منهم ألف درهم فجعلوها للفَهْرَبْدَ، فلما سكر الملك قال لشيرين: سليني حاجتك. فقالت: حاجتي أن تكون لي في هذا الباغ نهرين من حجارة يجري فيها الخمر واللبن. قال: أفعل ذلك، ونسيه الملك فاستحيت شيرين أن تذكره، فعمل الفَهْرَبْدَ غناءً وذكره حاجة شيرين فأمر ببناء النهرين، ووهبت شيرين ضيعة لها بأصبهان لفَهْرَبْدَ، فنقل فَهْرَبْدَ أهله إلى أصبهان، فلذلك وقع غناء فَهْرَبْدَ بأصبهان، قال: وقرئ على حائط شيرين:

يَا ذَا الَّذِي غَرَّهَ الدُّنْيَا وَبَهَجَتْهَا	وَحُسْنُ زَهْرَةِ أَنْوَارِ الْبَسَاتِينِ
وَالدُّورُ تُخْرِبُهَا طَوْرًا وَتُغْمِرُهَا	بِاللَّبَنِ وَالْجَصِّ وَالْأَجَرِ وَالطِّينِ

والمال تَكْنِزُها جزَوا وِثْمُها
أما رأيتَ صروفَ الدهرِ ما صنعت
أما نظرتَ إلى إحكامِ صنعته
قد صارَ قَفْرًا خَلَاءَ ما بها أحدٌ
من بعد ما كان أبرويزُ أشحنها
وكلُّ لَبِثٍ شجاعٍ باسلٍ بطل
وكلُّ رُغْبَوِيَّةٍ بِيضَاءٍ بَهْكَنَةٍ
وبالعجائبِ من ألوانِ زهرتها
لم يبقَ من رسمها إِلَّا تَلالُؤُها
سبحانَ من خلقَ الدنيا ودبرها
عن الحقوق التي فيها لمُسْكِين
بالقصر قصر أبرويز وشيرين
كأنَّه قِطْعَةٌ من طور سينين
إِلَّا النِّعَامُ مع الوحشيَّةِ العَيْنِ
بالدارعين وكتاب الدواوين
كمثل خُرَيْنِها أو مثل شُرُوبِين
تَحْكِي بِنْعَمِها صوتَ الوَرَّاشِين
من بين ورد وخيريٍّ ونَسْرِين
أو رُبْعِ دار عَفَّتْ من طُورِ عَبدِين
وأنشأ الخلق من ماءٍ ومن طِينِ

وكان الفلاسفة يقول: أفضل مستنبت المياه ما كان محيطاً بشعاب الأودية، وأمثل منازل السفر ما اتخذ على مجامع الطرق، وأمثل الغيث ما أُمِرِعَ.

وكان المنصور جالساً ذات ليلة فتذاكر أصحابه البحرَ، فقال المنصور: عُدُّوا خمس عشرة ليلة من أيِّ موضع شتُم، فإنكم لا تبلغون ذلك حتى تصلوا إلى البحر، إن شتُم في شرقها، وإن شتُم في غربها.

وقال المروزي: قرأتُ عن المأمون جواب أرسطاطاليس إلى الإسكندر فيما أَعْلَمَهُ من فتحه البلدان وجمعه الأموال التي يتعذَّر عليه حملُها، وعَجَبَهُ من بيت ذهب ظهر له بالهند، فأجابه: إني رأيتك تعجب من عمل عمله أيدي الآدميين، وتركت التعجُّب من هذا السقف الرفيع الذي هو فوقك، وتزيين من زينه بالكواكب، ونَصَبَهُ على الحكمة البالغة. فأما البلدان التي افتتحتها فليكن ملكك إياها بالتوَدُّدِ إلى أهلها، ولا تملكها بالقهر لها والبغضاء؛ فإن طاعة المودَّة أحمدُ بدءاً وعاقبة من طاعة الاستكراه والقهر، وأما الأموال فليكن حملُك إياها في جلد ثور، ففهم عنه الإسكندر ما رَمَزَ به، فدفن في كلِّ بلد أمواله، وأُثْبِت مواضع الكنوز في جلد ثور مدبوغ، وحمله إلى الروم وهو إلى اليوم باقٍ هناك

في خزانة الملك.

ومرَّ رجل من بني تميم برجل منهم في بلاده وهو يغرس فسيلاً، فقال: يا شيخ كم تعدُّ؟ قال: قد جاوزت الستين. فقال: مثلك يعمل ما أرى، فأنشأ الشيخ يقول:

أغرس فسيلاً مناساةً فيوشكُ أنْ ترى فسيلك إنْ عُمِّرتْ عيدانا
فالعرقُ يسري إذا ما نام صاحبه وليس يسري إذا ما كان يقظانا

أغرسُ فسيلاً وأكل من ثمرها، وإذا احتجْتُ بعد ذلك فللولد. قال: إنك لبعيد الأمل. قال: إني والله إني لبعيد الأمل خائف لقرب الأجل، ولست ممن يفرط في عمران دار لا يُدرى لعلَّه سيطول مقامه فيه، ومنها يتزوّد إلى الدار التي لا يُدرى متى يصير إليها، ولو أن من كان قبلنا أخذوا بمثل رأيك ما خلف والد لولده شيئاً، ولا ورث ميتاً حيّاً.

قال المحدث: ثم مررتُ بعد ذلك بذلك الموضع فرأيت نخلاً عالياً وآخر دونه، وإذا فتیان وأحداث، فقلت: مَنْ غرس هذا النخل؟ قالوا: ذلك الشيخ. فأتيته فسَلَّمْتُ عليه، ثم قلت: أفتعرفني؟ فتأملني، ثم قال: أحسبك صاحبنا المعنف لي على غرس ما ترى. قلت: أنا والله هو. ثم أنشدته بيته فعاتبني، وجعل يحدثني، وقال: إن الله فاعل ما يشاء فلا يكونن خوفك ماحقاً لرجائك، ولا يأسك غالباً لطمعك، وإذا الفتیان بنوه وبنو بنيه.

وقرئ على قصر بالعقيق:

كم قد توارث هذا القصر من ملِك فمات والوارث الباقي على الأثر

وقرئ على باب مدينة:

كم من مدائن بالآفاق قد بُنيت أمست خراباً وذاق الموت بانيها

وعلى مسجد مكتوب:

أَفْنَى جَمِيعَهُمْ وَخَرَّبَ دُورَهُمْ مَلِكٌ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ عَزِيزُ

القول في العراق

قال أبو عبيدة سُمِّيَ العراق عِرَاقًا؛ لأنه سفلى عن نَجْد، ودنا من البحر كعراق القِرْبَةِ، وهو الحَرَزُ المَثْنِيُّ الذي في أسفلها، وهو الذي يضعه السَّقَاءُ في صدره.

وقال الأصمعيُّ: ما دون الرمل عراق.

وقال المدائنيُّ: عمل العراق من هيت إلى الصين والسند والهند، ثم كذلك الريّ وخراسان والديلم وجيلان والجبال وأصبهان سُرَّةَ العراق، ومن ولي العراق فقد ولي البصرة والكوفة والأهواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان والعراق في الطول من عانة إلى البصرة، والبصرة تتاخم الأهواز، والأهواز تتاخم فارس، وفارس تتاخم كرمان، وكرمان تتاخم كابل، وكابل تتاخم زَرْنَج، وزرنج تتاخم الهند.

وقال بعض أهل النظر: أهل العراق هم أهل عقول صحيحة، وشهوات محمودة، وشمائل موزونة، وبراعة في كُلِّ صناعة، مع اعتدال الأعضاء، واستواء الأخلاط، وسمرة الألوان، وهي أعدلها وأقصدّها، وهم الَّذِينَ أنضجتهم الأرحام فلم تخرجهم بين أشقر وأصهب، وأمهق ومُعْرَب، وكالذي يعتري أرحامَ نساء الصقالبة، وما ضارعها وصاقبها، وهم الذين لم يتجاوز أرحام نسايتهم في النضج إلى الإحراق، فيخرج الولد بين أسود وحالك، وممتن الريح ذفر، ومفلقل الشعر، مختلف الأعضاء، ناقص العقل، فاسد الشهوة كالزنج والحبشان ومن أشبهها من السودان، فهم بين فطير لم يخبتر، ونضيج قد احترق.

وقالوا: مناكحة الغرائب أنجب، ومناكحة القرائب أضوى وقالوا: اغتربوا، ولا تُضوّوا، وقالوا: فارس أعقل، والروم أعلم، وللروم صناعات.

القول في الكوفة

قال قُطْرُب: سُمِّيت الكوفة من قولهم تَكْوَفُ الرَّمْلُ، أي: ركب بعضه بعضًا. والكوفان: الاستدارة. وقال: أبو حاتم السجستاني: الكوفة رملة مستديرة. يقال: كأنهم في كوفان.

وقال المغيرة بن شُعْبَةَ: أخبرنا الفُرْسُ الذين كانوا بالخيرة، قالوا: رأينا قبل الإسلام في موضع الكوفة فيما بين الخيرة إلى النُّخَيْلَةِ نَارًا تَأْجَحُ، فإذا أتينا موضعها لم نر شيئًا فكتب في ذلك صاحب الخيرة إلى كسرى، فكتب إليه أن ابعث إليَّ من تربتها.

قال: فأخذنا من حواليلها ووسطها، وبعثنا إليه فأراه علماءه وكهنته، فقالوا: يُبْنَى في هذا الموضع قرية يكون على يدي أهلها هلاك الفرس، قال: فرأينا والله الكوفة في ذلك الموضع.

قالوا: وأول من اختطَّ مسجد الكوفة سعد بن أبي وقَّاص. وقال غيره: اختطَّ الكوفة السائب بن الأقرع وأبو الهيثاج الأسدي.

وكانت العرب تقول: أدلع البرُّ لسانه في الرِّيف، فما كان يلي الفرات فهو المِلْطاط، وما كان يلي الطين فهو النَّجَف.

ويروى عن أمير المؤمنين، أنه قال: الكوفة كنز الإيمان، وجمجمة الإسلام، وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، والذي نفسي بيده لينصرنَّ الله -جلَّ وعزَّ- بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز، وكان عمر يقول: حبذا الكوفة أرض سهلة معروفة، تعرفها جهالنا المعلوفة، ويقال: إن موضع الكوفة اليوم كانت سُورِسْتَان، وكان سلمان يقول: أهل الكوفة أهل الله، وهي قبة الإسلام يحنُّ إليه كل مسلم، وقال أمير المؤمنين: ليأتينَّ على الكوفة زمان

وما من مؤمن ولا مؤمنة إلّا بها، أو قلبه يحنّ إليها.

وقال ابن الكلبي: وقد الحجاج على عبد الملك بن مروان، ومعه أشراف العراق فلمّا دخلوا عليه تذكروا أمر الكوفة والبصرة، فقال محمد بن عمير العطاردي: إن أرض الكوفة أرض سفلت عن الشام وعملها ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرّها وعمقها، وجاورها الفرات، فعذب ماؤها وطاب ثمرها، وهي مريئة مريعة، فقال عبد الله بن الأهتم السعدي: نحن والله يا أمير المؤمنين أوسع منهم تربةً، وأكثر منهم دربةً، وأعظم منهم بريةً، وأغذّ منهم في السرية، وأكثر منهم قنّداً ونقّداً، يأتينا ما يأتينا عفوّاً صفواً، ولا يخرج من عندنا إلّا سائق أو قائد أو ناعق.

فقال الحجاج: إن لي بالبلدين خبراً يا أمير المؤمنين. قال: هاتِ فأنت غير متّهم فيهم. قال: أمّا البصرة فعجوز شمطاء بخراء ذفراء أوتيت من كلّ حلّ وزينة، وأمّا الكوفة فبكر عاطل لا حلّ لها ولا زينة. فقال عبد الملك: ما أراك إلّا وقد فضّلت الكوفة.

وكان عمر بن الخطّاب يكتب إلى سيّد الأمصار وجمجمة العرب: يعني الكوفة، وكان عبد الله بن عمر يقول: يا أهل الكوفة أنتم أسعد الناس بالمهديّ، وقال أمير المؤمنين للكوفة: ويحك يا كوفة وأختك البصرة كأني بكما تمكّنان مدّ الأديم وتعرّكان عراق العكاظي إلّا أنا أعلم فيما أعلمني الله - عزّ وجلّ - أنه ما أراد بكما جباراً سوءاً إلّا ابتلاه الله بشاغل.

وكان محمد بن عمير بن عطاردي يقول: الكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وعمقها فهي مريئة مريعة برية بحرية، إذا أتتنا الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد وورّده، ويأسمينه، وخيرته، وأترجه، ماؤنا عذب، ومحتشنا خضب.

وكتب إليهم عمر بن الخطاب: إني اختبرتكم، فأحببت النزول بين أظهركم لما أعرف من حُكم الله ولرسوله، وقد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود مؤذناً ووزيراً، وهما من النجباء من أهل بدر، فخذوا عنهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي.

وكان زياد يقول: الكوفة جارية حسناء تصنعُ لزوجها فكلما رآها يُسرُّ بها.

قالوا: ولنا فتوح وأيام، فمن فتوحنا الحيرة وبانقيًا والفُلُوجَتَيْنِ ونُسَترَ وبَغْدَادَ وعَيْنَ التَّمْرِ ودُومَةَ والأنبار، وما فتحوا مع خالد بن الوليد في مسيرتهم إلى الشام المُضَيِّحَ وحُصَيْدَ وبِشْرَ وَقُرَاقِرَ وَسُوىَ وأراك وتَدْمُرَ، ثم شاركوا أهل الشام في بُضْرَى وِدْمَشْقَ، هذا كله في خلافة أبي بكر، ثم كان من آثارهم في خلافة عمر يوم جَسْرَ أَبِي عُبَيْدَ ويوم مَهْران ويوم القادسيَّةِ ويوم المدائن وجَلُولَاءَ وحُلُولان، هذا كله قبل أن ينزلوا الكوفة، ثم نزلوها ففتحوا المَوْصِلَ وأَذْرَبِيَّجانَ وتُسْتَرَ وماسَبْدَانَ ورامَهْرُمَزَ وجَرْجانَ والدَّيْنُورَ، ولهم مع أهل البصرة نهاونْدَ، ولهم بعض الرِّيِّ وبعض أصبهان، ولهم طَمِيسَ ونامية من طبرستان.

ونزل الكوفة من الخلفاء والأئمة عليّ والحسن، ومن الملوك والخلفاء معاوية وعبد الملك وأبو العباس وأبو جعفر المنصور والمهديّ وهارون الرشيد، وكان بها عَمَلُ العراق والدعوة لهم في العطاء قبل أهل البصرة، وعدة أهل الكوفة ثمانون ألفاً، ومقاتلتهم أربعون ألفاً، وكان زياد يقول: أهل الكوفة أكثر طعاماً، وأهل البصرة أكثر دراهم.

وقال الأحنف بن قيس: نزل أهل الكوفة في منازل كسرى بن هُرْمُزَ بين الجنان الملتفة والمياه الغزيرة والأنهار المطردة، تأتيهم ثمارهم غصّة لم تُخْضَدَ، ولم تُفْسَدَ، ونزلنا أرضاً هَشَّاشَةً في طرف فلاة وطرف ملح أجاج في سَبَخَةِ نَشَّاشَةٍ،

لا يجفُّ ثراها، ولا ينبت مرعاها، يأتينا ما يأتينا في مثل مريء النعمة.

قال: ولما ظهر أمير المؤمنين على أهل البصرة قال أعشى همدان:

أَكْسَعَ الْبَصْرِيَّ إِنْ لَاقَيْتَهُ	إِنَّمَا يُكْسَعُ مَنْ قَلَّ وَذَلَّ
وَأَجْعَلَ الْكُوفِيَّ فِي الْخَيْلِ وَلَا	تَجْعَلَ الْبَصْرِيَّ إِلَّا فِي النَّقْلِ
وَإِذَا فَاحَرْتُمُونَا فَادْكُرُوا	مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ
بَيْنَ شَيْخٍ خَاضِبٍ عُثُوُّنُهُ	وَفَتًى أَبْيَضٍ وَضَّاحٍ رَقْلٍ
جَاءَنَا يَخْطُرُ فِي سَابِغَةِ	فَذَبْخَانَهُ ضَحَّى ذَبْحِ الْحَمَلِ
وَعَفَوْنَا فَتَسِيْتُمْ عَفْوَنَا	وَكَفَرْتُمْ نِعْمَةً اللَّهِ الْأَجَلِ

وقال فطر بن خليفة: نازعني قتادة في الكوفة والبصرة، فقلت: دخل الكوفة سبعون بذرياً، ودخل البصرة عتبة بن غزوان، فسكت.

وقال أمير المؤمنين: قبة الإسلام الكوفة، والهجرة بالمدينة، والأبدال بالشام، والنجباء بمصر، وهم قليل.

وقالوا: من نزل الكوفة فلم يُقرَّ لهم بفضل ثلاث فليست له بدار: بفضل ماء الفرات، ورطب المشان، وفضل أمير المؤمنين علي، ومن نزل البصرة فلم يُقرَّ لهم بثلاث فليست له بدر: بفضل عثمان، وفضل الحسن البصري، ورطب الأزد.

قالوا: ومن أسخياء الكوفة هلال بن عتاب وأسماء بن خارجة وعكرمة بن ربيعي الفياض، ومن فتياها خالد بن عتاب وأبو سفيان بن عروة بن المغيرة بن شعبة وعمرو بن محمد بن حمزة.

وقال سعيد بن مسعود المازني لسليمان بن عبد الملك: منأ أحلم الناس الأحنف، وأهمهم بحمال إياس بن قتادة، وأسخاهم طلحة بن عبد الله بن

خَلَفَ، وَأَشْجَعَهُمْ عَبَّادُ بْنُ حُصَيْنٍ وَالْحَرِيشُ، وَأَعْبَدَهُمْ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ،
فَقَالَ نُظَّارُ الْكُوفَةِ: مَنْ أَشْجَعَ النَّاسَ الْأَشْتَرُ، وَأَسْخَاهُمْ خَالِدُ بْنُ عَتَّابٍ،
وَأَحْلَاهُمْ عَكْرَمَةُ الْفَيَّاضِ، وَأَعْبَدَهُمْ عَمْرُ بْنُ عَتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ.

وَقَالُوا أَجْمَعًا: إِذَا كَانَ عِلْمُ الرَّجُلِ حِجَازِيًّا، وَطَاعَتُهُ شَامِيًّا، وَسَخَاؤُهُ كُوفِيًّا
فَقَدْ كَمَلَ.

افتخار الكوفيين والبصريين

قال: اجتمع عند أبي العباس أمير المؤمنين عدّة من بني عليّ، وعدّة من بين العباس وفيهم بصريّون وكوفيّون، منهم أبو بكر الهذليّ وكان بصريّاً، وابن عيَّاش وكان كوفيّاً، فقال أبو العباس: تناظروا حتى نعرف لمن الفضل منكم.

قال بعض بني عليّ: إن أهل البصرة قاتلوا عليّاً يوم الجمل وشقّوا عصا المسلمين، قال أبو العباس: ما تقول يا أبا بكر. قال: معاذ الله أن يجهل أهل البصرة، إنما كانت شرذمة منها شذت عن سبل المنهج واستحوذ عليها الشيطان، وفي كلّ قوم صالح وطالح، فأما أهل البصرة فهم أكثر أموالاً وأولاداً وأطوع للسلطان وأعرف برسوم الإسلام.

قال ابن عيَّاش: نحن أعلم بالفتوح منكم؛ نحن نفينا كسرى عن البلاد، وأبرنا جنوده، وأبحنا ملكه، وفتحنا الأقاليم، وإنما البصرة من العراق بمنزلة المئانة من الجسد ينتهي إليها الماء بعد تغييره وفساده مضغوطة قبّل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز، وأقلّها خيراً، مضغوطة من فوقها بيطيحتها، وإن كانوا يستعذبون ماءهم، ولولا ذلك ما انتفعوا بالعيش، ومضغوطة بالبحر الأخضر من أسفلها، ونحن قلّلناهم على وجه المعزاء، وبعثنا إليهم من جنودنا ما كان منه قوامهم، وإنما أهل البصرة بمنزلة الرسل لنا، ومحلّ الكوفة محلّ اللهوات واللسان من الجسد، وموضعها على صدور الأرضين، ينتهي إليها الماء برده وعذوبته ويتفرّق في بلادنا ويجوز بالعذبة الزكيّة والفرات ودجلة، والبصرة من العراق بمنزلة المئانة من الجسد.

قال أبو بكر: أنت مهما وصفت أكثر أنبياء وما لنا إلّا نبيّ واحد وهو محمّد -صلى الله عليه وسلم- وعامة أنبيائكم الحاكّة، فضحك أبو العباس حتى كاد يسقط عن السرير، ثم قال: لله درك يا أبا بكر. فقال أبو بكر: وما رأيت الأنبياء

مصلوبين إلا ببلاد الكوفة، فقال ابن عيَّاش: عيّرت أهل الكوفة بثلاثة مجانين من السفلة ادَّعوا النبوة بالجنون، فصلبهم الله بالكوفة، فمن يعيِّر به أهل البصرة من المدَّعين للعقول والشرف والروايات للحديث كثير، كلهم يزعم أنه يهدي نفسه ويضلُّها، والمتنبِّئ بالجنون أيسر خطبًا من ادَّعاء الصحيح هدى نفسه وضلالها، فلقد ادَّعوا الربوبية في قول بعضهم.

فقال أبو العباس: هذه بتلك أو أشدَّ يا أبا بكر. فاعترض عليهم بعض العلوية وهو الحسن بن زيد فقال: يا أبا بكر ما قاتلتم عليًّا يوم الجمل؟. فقال: بلى قاتله شرذمة، وكفَّ الله -عزَّ وجلَّ- أيدينا وسلاحنا عن قتله نظرًا منه لنا، ثم رجع إلى الكوفة فقتلوه وولده وولد ولده وبني عمِّه، وأخرجوا الحسن بن عليٍّ بعد بيعتهم له حتى هرب منهم.

فقال ابن عيَّاش: بل قصَّر الله أيديكم بطول أيدي الكوفة وبنصرتهم عليكم، وكيف تعيِّرنا بباطل رجل واحد منا يبلغ بباطله ما عجز عنه عامتكم؟ ولقد حدَّثني أشياخ من النخع أن أهل الكوفة كانوا يوم الجمل تسعة آلاف رجل مع أمير المؤمنين -كرم الله وجهه-، وكان عليه ثلاثون ألفًا مع الزبير وعائشة فلما اتفقوا لم يكن أهل البصرة إلا كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف.

فقال أبو بكر: ومتى كان أهل البصرة ثلاثين ألفًا يقاتلون أمير المؤمنين -كرم الله وجهه-، وقد اعتزلهم الأحنف بن قيس في سَعْد والرَّباب، وقد دخلنا بعد ذلك الكوفة فذبحنا بها ستَّة آلاف رجل من أصحاب نبيِّهم المُختار كما يذبح الحملان سوى من هرب بعد أن جاء أسْماءُ بن خارجة الفزارية ومحمَّد بن الأشعث الكندي وشَبَّث بن رُبَيعي التميمي واستعانوا بأهل البصرة وشكوا إليهم المختار وأصحابه، وما قتل من رجالهم واستباح من حريمهم، فخرجنا مع مُضْعَب بن الزُّبير حتى قتلنا نبيِّهم المختار ومن قدرنا عليه من أصحابه

وأعتقناهم من الرُّق؛ فلنا الفضل على أهل الكوفة ولنا المنَّة عليهم وعلى أعقابهم لو كانوا يشكرون.

قال ابن عيَّاش: أتاكم أهل الكوفة يوم الجمل مع عليٍّ فقتلوكم فأرى أهل الكوفة غاليين ومغلوبين على الحقِّ، وأرى أهل البصرة غاليين ومغلوبين على الباطل.

فقال أبو العباس: يا أبا بكر دونك فيني أرى ابن عيَّاش مفوَّهاً جدلاً.

قال أبو بكر: ما لهم بنا من طاقة.

قال ابن عيَّاش: لسنا في حرب فيرى مغالبنا، وإنما نحن في كلام فأحسنُ الكلام أوضحه حجةً.

فقال الحسن بن زيد: يا أبا بكر لا تُغالب أهل الكوفة ولا تفاخرهم؛ فإنهم أكثر فقهاءً وأشرافاً منكم.

فقال أبو بكر: معاذ الله أنى يكون هذا وما كان فيهم شريف إلا وفينا أشرف منه، وما كان في تميم الكوفة مثل الأحنف في تميم البصرة، ولا في عبد القيس الكوفة مثل الحَكَم بن الجارود في عبد القيس البصرة، ولا كان في بكر الكوفة مثل مالك بن مُسمَع في بكر البصرة، ولا كان في قيس الكوفة مثل قُتيبة بن مسلم في قيس البصرة.

قال ابن عيَّاش: زدنا يا أبا بكر، إن وجدتَ مزيداً فعندنا أضعاف ما ذكرتَ ومن أنت ذاكره - إن شاء الله -.

قال أبو بكر: كفى بهذا فخراً وعزاً وشرافاً.

فقال ابن عيَّاش: قُطع بك يا أبا بكر، إنما أهل البصرة مثل نظام البعر

المستوي واسطته دَرَّةٌ فهي فيهم مشهورة، وأهل الكوفة مثل تنظيم الدَّر فواسطته منه لها أشباه كثيرة، ذكرت الأحنف في تميم البصرة، وفي تميم الكوفة محمد بن عُمير بن عطار بن حاجب بن زرارة بن عُدس رَهَن قوسه عن جميع العرب، والنعمان بن مقرن صاحب النبي ﷺ المقدم على جميع جيوش المسلمين أيام عمر بن الخطاب، وحسان بن المنذر بن ضرار من بيت ضَبَّة، وسيدها عتاب بن وَرْقَاء جواد العرب، وشَبَث بن ربعي التميمي قائد أهل البصرة وسائقهم مع مصعب بن الزبير، وعكرمة بن ربعي التميمي الذي قيل فيه:
وَعِكرمة الفَيَّاض رَبُّ الفضائل

فهؤلاء سادة تميم الكوفة، والعجب لفخرك ببالك بن مِسْمَع في بكر بن وائل على مَصْقلة بن هبيرة، وقد أقرَّ بين يدي علي بن أبي طالب بشرفه وفضله، ومنهم خالد بن مُعَمَّر وشقيق بن ثور السَّدُوسِيّ وسُوَيْد بن مَنجُوف وحُرَيْث بن جابر والحَضَن بن المنذر ومُحْدُوج المخزوميّ ويزيد بن رُوَيْم الشيبانيّ والقَعْقَاع بن سَور الذهليّ، وأما فخرك بقتيبة بن مسلم فما أنت وذاك، إنما هو رجل من باهلة صَنَعَه الحَجَّاج، والشرف من قيس في عامر بن صعصعة في بني لبيد بن ربيع الشاعر جاهليًّا وإسلاميًّا، وإنما فخرت بواحد من مائة، ألا إني أُجِلُّ لك: أميرنا علي بن أبي طالب، ومؤدنا عبد الله بن مسعود، وقاضينا شُريح، فهات في أهل البصرة واحدًا من هؤلاء الثلاثة.

قال أبو بكر: أميرنا عبد الله بن عباس.

قال ابن عيَّاش: نحن بطانة عبد الله وظهرته وأنصاره وجنده عليكم، ونحن أحقُّ به منكم.

فقال أبو بكر: فإن كان مؤدناكم عبد الله بن مسعود فمنا أنس بن مالك خادِم النبي ﷺ.

فقال ابن عيَّاش: وأين أنس من ابن مسعود فتقيسه به؟ ولقد نزل الكوفة سوى من سميت لك سبعون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتقيم لك واحداً بأنس، ثم نفتخر عليك بتسعة وستين باقين.

فقال أبو بكر: فإن كان شريح قاضيكم ففينا الحسن البصريُّ سيِّد التابعين، وابن سيرين في فضلها وفقهها.

فقال ابن عيَّاش: إن عددت هذين وباهيتَ بهما عددنا لك أويَّسا القرنيُّ الذي يشفع في مثل ربيعة ومضر، وربيع بن خثيم والأسود بن يزيد وعَلَقَمَة ومَسْرُوقاً وهُبَيْرَة بن يَرِيم وابن مَيْسَرَة وسعيد بن جبير والحارث الأعور صاحب عليّ بن أبي طالب وراويته وأين أنت عمن لم تر عينك مثله في زمانه من أصحاب النبي ﷺ، ولا أحفظ لما سمع، ولا أفقه في الدين، ولا أصدق في الحديث، ولا أعرف بمغازي النبي ﷺ، وأيام العرب، وحدود الإسلام والفرائض والغريب والشعر، ولا أوصل لكلِّ أمر من عامر بن شراحيل الشَّعْبِي؟ فقال كل من حضر: لقد كان كذلك.

وبالكوفة بيوتات العرب الأربعة: فحاجب بن زُرَّارة بيت تميم، وآل زيد بيت قيس، وآل ذي الجَدَّين بيت ربيعة، وآل قيس بن مَعْدِي كَرِب الزُّبَيْدِي بيت اليمن.

وبالكوفة فرسان العرب الأربعة في الجاهلية والإسلام: عمرو بن مَعْدِي كَرِب، والعبَّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِي، وطُلَيْحَة بن خُوَيْلِد الأسدي، وأبو مَحْجَن الثَّقَفِي.

وأهل الكوفة جند سعد بن أبي وقاص يومَ القادسيَّة وأصحاب الجَمَل وصَفِين وخانقين وجَلُولاء ونهاوَنَد. وفرسانهم المَعْدُودون في الإسلام مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وسعد بن قيس الهمداني، وعُزْرَة بن زيد الطائي

صاحب وقعة الديلم، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي.

فقال أبو بكر: هذا الذي سلب الحسين بن عليّ قطيفةً فسأه أهل الكوفة عبد الرحمن قطيفة فقد كان ينبغي أن ألا تذكره، فضحك أبو العباس من قول أبي بكر. فقال ابن عيَّاش: والذي سار تحت لوائه أهل الكوفة والبصرة وجماعة أهل العراق. وبالكوفة من أحياء العرب بأسرهم ما ليس بالبصرة منهم إلَّا أهل بيت واحد وهم الذين يقول فيهم عليُّ بن أبي طالب: لو كنتُ بوابًا على باب الجنة لقلت لهمدان: ادخلي بسلام.

فقال أبو بكر: فهل فيمن سميت أحدًا إلَّا قاتلَ الحسين بن عليّ وأهل بيته، أو خذلهم أو سلبهم وأوطأ الخيل صدورهم.

فقال ابن عيَّاش: تركت الفخر وأقبلت على التعيير، أنتم قتلتم أباه عليّ بن أبي طالب، فأما أهل الكوفة فكان منهم مع الحسين يوم قُتل أربعون رجلًا، وإنما كان معه سبعون رجلًا فماتوا كلهم دونه، وقتل كل واحد منهم عدوّه قبل أن يُقتل.

فقال أبو بكر: إن أهل الكوفة قطعوا الرحم، ووصلوا المثانة؛ كتبوا إلى الحسين بن عليّ: إنَّا معك مائة ألف، وغرُّوه حتى إذا جاء خرجوا إليه فقتلوه وأهل بيته صغيّريهم وكبيرهم، ثم ذهبوا يطلبون دمه، فهل سمع السامعون بمثل هذا؟!

فقال ابن عيَّاش: ومن أهل الكوفة أبو عبد الله الجَلَلِيُّ الذي صار ناصرًا لبني هاشم حين حَصَرَهُم ابن الزبير، وكتب ابن الحنفية يستنصرهم فسار في عدّة من كان مع ابن الزبير حتى صيرَ الله بني هاشم حيث أحبُّوا، فهل كان فيهم بصريٌّ؟ فنهض أبو العباس وهو يقول: الكوفة بلاد الأدب ووجه العراق، ومَبَرِّغُ أهله، وعليها الجحاش وهي غاية الطالب، ومَنْزِلُ خيار الصحابة وأهل الشرف، وإن أهل البصرة لأشبه الناس بهم ثم قام.

ما جاء في مسجد الكوفة

قال أمير المؤمنين -كرم الله وجهه-: لقد صَلَّى في هذا البيت -يعني مسجد الكوفة- تسعون نبياً وألف وصيٍّ، وفيه فار التُّور، وخرجت منه السفينة، وفيه عصا موسى، وخاتم سليمان بن داود، والبركة منه على اثني عشر ميلاً وهو أحد المساجد الأربعة التي تُعظَّم، ولأنَّ أصلِّي فيه ركعتين أحبُّ إليَّ من أن أصلِّي عشرًا في غيره، إلَّا في المسجد الحرام ومسجد الرسول.

وقال ليث بن أبي سُليم: بلغني أن المكتوبة في مسجد الكوفة تعدل حجةً، والتطوُّع يعدل عمرة. وقال زادانفُروج: مسجد الكوفة تسعة أجرية.

ويروى عن ابن عيينة قال: مرَّ إبراهيم -عليه السلام- بالقادسيَّة فرأى زهرتها فقال: قُدِّسَتْ وَسُمِّيتِ القادسيَّة.

ويقال: إن أمير المؤمنين -كرم الله وجهه- قال: إن بالكوفة أربع بقاع قُدِّسٍ مقدَّسة؛ فيها أربع مساجد، قيل: سمَّها يا أمير المؤمنين، قال:

أحدها: مسجد ظُفر، وهو مسجد السَّهْلة، إن أطناها من الأرض لعلى ياقوتة خضراء ما بعث الله نبياً إلَّا صورة وجهه فيها.

والثاني: مسجد جُعْفَي لا تذهب الأيام والليالي حتى تنبع منه عين.

والثالث: مسجد غَنَي لا تذهب الليالي والأيام حتى تنبع منه عين، وحوله جنيثة.

والرابع: مسجد الحمراء وهو في موضع بستان لا تذهب الليالي والأيام حتى تنبع منه عين تنطف ماءً حواليه، وفيه قبر أخي يونس بن مَتَّى، ويقال: إن مسجد السهلة مَنَاح الحَضِر، وما أتاها مغموم إلَّا فَرَّجَ الله عنه، قال: ونحن

نسَمِّي السهلة مسجد القُرى.

وبالكوفة الفُرات وهو نهر من أنهار الجنة، وفي الخبر: الفرات والنيل مؤمنان، ودجلة وبرهوت كافران. وقال عبد الملك بن عُمير: الفرات نهر من أنهار الجنة لولا ما يخالطه من الأذى، ما تداوى به مريض إلا أبرأه الله؛ فإن عليه مَلَكًا يذود عنه الأدوية، وقال سِمَاك بن حرب: أصبت ببصري فرأيت إبراهيم -عليه السلام- في منامي فقال: ائت الفرات فاستقبل بعينيك جربة الماء، ففعلت فرد الله عليَّ بصري، ومخرج الفرات من قاليلقلا، ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم ويحيي إلى كَمَنْح وإلى مَلَطِيَّة، ويحيي إلى جبلتا وعيونها حتى يبلغ سُمَيْسَاط فيحمل من هناك السفن، ثم يصبُّ إليه الأنهار الصغار: نهر سَنْجَة ونهر كَيْسُوم ونهر دَيْصَان والبَلِيخ، ثم يحيي إلى الرقَّة، ثم يتفرَّق فيصير أنهارًا، فمن أنهاره: نهر سُورَا وهو أكبرها، ونهر المَلِك ونهر صَرْصَر ونهر عيسى والصراطين ونهر الحنْدَق وكُوْثَى وسوق أَسَد ونهر الكوفة والفرات العتيقة.

وقال المدائني: اجتمع أهل العراق عند يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة، فقال ابن هُبَيْرَة: أيُّ البلدين أطيب ثمرة الكوفة أم البصرة؟

فقال خالد بن صَفْوَان: ثمرتنا أطيب أيُّها الأمير، منها كذا ومنها كذا.

فقال عبد الرحمن بن بشير العِجْلِي: لست أشك أيُّها الأمير، ألا وإنكم قد اخترتم للخليفة ما تبعثون به إليه.

فقال: أجل.

فقال: قد رضينا بأن تَحْكُم لنا وعلينا فأَيُّ الرطب تحملون إليه؟

قال: المُسَان. قال: فليس بالبصرة منه واحدة، فأَيُّ التمر تحملون إليه؟

قال: التُّرْسِيَّان. قال: وهذا فليس بالبصرة منه واحدة.

قال: والهَيْرُونَ والأَزَاذ. قال: وهذا فليس بالبصرة منهما واحدة، ثم قال:
فَأَيُّ الْقَسْبِ تَحْمِلُونَ إِلَيْهِ؟

قال: قَسْبُ الْعَنْبَر. قال: وهذا فليس بالبصرة منه واحدة.

قال: أَفَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنَ الْبَصْرَةِ؟

ذكر الخوزنق

قالوا: ومن البناء المذكور الأبلق الفرد، وباليمين عُمدان وهو قصر من أعجب ما بنته الملوك، وقد ذكرنا خبره، وقصر نِياج بناه الأحنس بن شهاب، والهرمئ بمصر والإسكندرية ومنارتها ومنف مدينة فرعون، وملعب فامية بحمص، وتدمر بالشام، وإيوان أنوشروان ومارب وشبديز والخورنق بظهر الكوفة، وكان الذي بناه النعمان بن امرئ القيس وهو ابن الشقيقة بنت أبي ربيعة بن ذهل بن شيان فارس حليمة ملك ثمانين سنة، وبنى الخوزنق في ستين سنة، بناه له رجل رومي، يقال له: سنّار، وكان بيني الستين والثلاثة، ثم يغيب الخمس سنين، فيطلب فلا يوجد، ثم يأتي فيبني كذلك حتى أتت عليه ستون سنة، وفرغ من الخوزنق فصعده النعمان على دابته فنظر إلى البحر تجاهه والبر خلفه، ورأى الجثوث والضبّ والطبي والطير والظليم والنخل والزرع.

فقال: ما رأيت مثل هذا البناء قط. فقال له سنّار: أما إنّي أعلم موضع آجرة لو زالت زال هذا القصر كله. فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ قال: لا.

قال: لا جرّم، لأدعنها لا يعرفها أحد، ثم أمر فقذف سنّار من فوق القصر فتقطع، فضربت العرب به المثل فتقول جازاني جزاء سنّار فقال الشاعر:

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ	جَزَاءَ سِنَّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
سَوَى رَمِّهِ الْبُنْيَانِ سِتِّينَ حِجَّةً	يُعَلَّى عَلَيْهِ بِالْقِرَامِيدِ وَالسَّكْبِ
فَلَمَّا رَأَى الْبُنْيَانَ تَمَّ سَحْوُهُ	وَأَخْضَ كَمِثْلِ الطُّودِ ذِي الْبَاذِخِ
وَوَظَنَ سِنَّارًا بِهِ كُلَّ خَيْرَةٍ	وَقَوُوزَ لَدَيْهِ بِالْمَوْدَةِ وَالْقُرْبِ
فَقَالَ افْدُوْا بِالْعِلْجِ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ	فَهَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ مِنْ أَعْجَبِ الْخَطْبِ

وكان النعمان غزا الشام مرارًا وأكثر المصائب في أهلها، وسباهم وكان من أشدّ الملوك نكايّةً، فجلس ذات يوم في مجلسه من الخورنق، فأشار على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار مما يلي المغرب، وعلى الفرات مما يلي المشرق، والخورنق قصر بحذاء الفرات يدور عليه في عاقول كالخندق، فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والأنهار والزهر.

فقال لوزيره: رأيت مثل هذا المنظر؟ قال: لا، لو كان يدوم. قال: وما الذي يدوم؟ قال: ما عند الله في الآخرة. قال: فبِمَ يُنال؟ قال: بترك الدنيا، وتعبد الله وتلتمس ما عنده.

فترك ملكه من ليلته، ولبس مسوحه، وخرج هاربًا لا يعلم به أحد، وأصبح الناس لا يعلمون بحاله، فحضروا بابه فلم يؤذن لهم ثلاثة أيام فلما أبطأ الإذن سألوا عنه فلم يجدوه، ففي ذلك يقول عديّ بن زيد:

وَبَيَّنَ رَبَّ الْخَوَزَنَقِ إِذْ أَشْهُ	رَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
سَرَّهُ حَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُنْ	لِكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ
فَارْعَوَى قَلْبُهُ وَقَالَ وَمَا غِبْ	طَةً حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَـ	فَ فَالَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالِدَبُورُ

وُسُمِّي السَّيْدِيرُ سَدِيرًا؛ لأن العرب نظرت إلى سواد النخل فسدرت أعينهم، أي: تحيرت. فقالوا: ما هذا إلا سدير.

وقال الكلبي: أوّل من بنى الخوزنق بهرام جُور بن يزدجرد بن سابور ذي الأكتاف، وذلك أن يزدجرد كان لا يَبْقَى له ولد، وكان بهرام أصابه جنٌّ في صغره فسأل عن منزل مريء صحيح من الأدوية فقالت الأطباء: لا يبرأ حتى تُخرجه من أرضك إلى بلاد العرب، ويُسقى أبوال الإبل وألبانها، فوجَّهه يزدجرد إلى النعمان وأمر ببناء الخورنق مسكنًا له؛ ليعالج فيه فعولج فبرأ، فكان

بهرام يكرم العرب ويركب الإبل، وهو في الصُّور التي تصوّرُها العجم في أوانِها وبسطها وفرشها راكبٌ بعيراً أبداً.

وقال الهيثم بن عديّ: لم يقدم الكوفة أحدٌ إلّا أحدث في هذا القصر شيئاً يعني الخورنق، فلما قدمه الضحّاك بناءً وعمره، فدخل عليه شريح القاضي فقال: أبا أميّة أرايتَ بناءً قطُّ أحسن منه؟ قال: نعم. قال: كذبت، وأيُّ بناءٍ رأيتَه أحسنُ منه؟ قال: السماء. قال: وعن السماء سألتُك؟ أقسم لتسبُنَّ أبا تُراب. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأنّنا نعظّم أحياء قريش، ولا نسبُ موتاهم. قال: جزاك الله خيراً.

وأنشد لعلّي بن محمد العلويّ:

نَبِيّ لَا تُوَازِي بِالْمَوَاقِفِ	كَمْ وَفَقَةً لَكَ بِالْخَوَزِ
بَرٍّ إِلَى دِيَارَاتِ الْأَسَاقِفِ	بَيْنَ السَّدِيرِ إِلَى الْغَدِيدِ
أَطْمَارِ خَائِفَةٍ وَخَائِفِ	فَمَدَارِجِ الرَّهْبَانِ فِي
يُكْسِيْنَ أَعْلَامَ الْمَطَارِفِ	دِمْنٍ كَأَنَّ رُشُومَهَا
مِنْهَا عُشُورٌ مِنْ مَصَاحِفِ	وَكَا أَنَا غُضْرَانُهَا
تَهْتَزُّ بِالرَّيْحِ الْعَوَاصِفِ	وَكَا أَنَا أَنْوَارُهَا
ثَلْهَمًا بِاللَّوَانِ الرَّفَارِفِ	يَلْقَى أَوَاخِرُهَا أَوَا
بَرِّيَّةً مِنْهَا الْمَصَافِفِ	بَخْرِيَّةً شَتَوَاتُهَا
فُورِيَّةً مِنْهَا الْمَشَارِفِ	دُرِّيَّةً الْحَضْبَاءِ كَا

قصة الغريين

وبها الغريّان: بناهما المنذر بن امرئ القيس، وهو ابن ماء السماء وكان سبب ذلك أنه كان له نديان من بني أسد خالد بن نضلة وعمرو بن مسعود، وأنها ثَمَلَا من النبذ ليلةً فرادًا الملك بعض الكلام، فأمر فحفر لهما حفيرتان بجانب البئر بظهر الكوفة فدفنا فيه حيّين، وفيهما يقول الشاعر:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَبْرِي بَنِي أَسَدٍ بَعَمْرُو بْنُ مَسْعُودٍ وَالسَّيِّدُ الصَّمَدُ

يعني: خالد بن نضلة، وأمر ببناء طربالين عليهما، وهما صومعتان، وجعل لهما في السنة يومين: يوم بؤس، ويوم نعيم؛ فيذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغزو بدمه الطربالين ما كان من شيء آدمي أو وحشي، وفي يوم بؤسه قتل عبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر وكان أول من أشرف عليه في يوم بؤسه.

فقال له المنذر: هَلَّا كَانَ الذَّبْحُ لغيرك يا عبيدُ.

فقال عبيد: أَتُنَكِّ بِحَائِنِ رِجْلَاهُ، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

فقال المنذر: أَجَلٌ بَلَّغَ أَتَاهُ. فقال له المنذر: أَنَشِدْنِي.

فقال: حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ، وَبَلَّغَ الْحَزَامُ الطُّيَيْنِ، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

فقال المنذر: أَسَمِعَنِي.

فقال عبيد: الْمَنَايَا عَلَى الْحَوَايَا، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

فقال له بعض أصحاب الملك: أَنَشِدْهُ هَبْلَتَكَ أُمُّكَ.

فقال عبيد: وَمَا قَوْلُ قَاتِلِ مَقْتُولٍ، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

فقال له آخر: مَا أَشَدَّ جَزَعَكَ مِنَ الْمَوْتِ!.

قال: لا يَرَحَل رَحْلَكَ مَنْ لَيْسَ مَعَكَ، فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا، أَي: لَا تُدْخِلْ فِي أَمْرِكَ مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِكَ.

قال المنذر: قد أَمَلَلْتَنِي فَأَرْخِنِي.

قال عبيد: مَنْ عَزَّ بَزٌّ، فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا، ثُمَّ قَتَلَهُ؛ وَكَانَ سَبَبَ تَرْكِهِ لَهُذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ رَجُلٌ مِنْ طَيْعٍ - يُقَالُ لَهُ حَنْظَلَةٌ - هَمٌّ بِقَتْلِهِ فَتَكَفَّلَ بِهِ شَرِيكَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ شَرَا حِيلِ أَبُو الْحَوْفَزَانِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيُصْلِحَ حَالَهُمْ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ فَانْقَضَتِ السَّنَةُ، وَلَمْ يَرْجِعْ حَنْظَلَةٌ فَهَمَّ الْمَلِكُ بِشَرِيكَ فَلَمَّا وَضَعَ السِّيفَ عَلَى عُنُقِ شَرِيكَ فَإِذَا بِحَنْظَلَةٍ قَدْ أَقْبَلَ مُتَحَنِّطًا مُتَكَفِّئًا فَلَمَّا رَأَاهُ الْمَنْذَرُ عَجِبَ مِنْ وَفَائِهِمَا فَخَلَّى عَنْهُمَا وَأَبْطَلَ السُّنَّةَ. وَقَالَ: لَا أَكُونُ الْأُمُّ الثَّالِثَةَ، وَالْغَرِيَّةُ فِي اللُّغَةِ: مَا يَبْسُ عَلَيْهِ الدَّمُ مِنْ صَنْمٍ وَغَيْرِهِ. وَلَمَّا دَخَلَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الْكُوفِيَّ رَأَى الْغَرِيَّةَيْنِ قَدْ انْهَدَمَا فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

لَوْ كَانَ شَيْءٌ مُقَيِّمًا لَا يَبِيدُ عَلَى طُؤُونَ الزَّمَانِ لَمَّا بَادَ الْغَرِيَّانِ
قَدْ فَرَّقَ الدَّهْرَ وَالْأَيَّامَ بَيْنَهُمَا وَكُلُّ أَلْفٍ إِلَى بَيْنٍ وَهَجْرَانِ

قالوا: وبالكوفة الحيرة البيضاء وكان الملوك تنزلها قبل أن بُنِيَ الكوفة لطيب هوائها وفضلها على سائر المواضع، وإنما سُمِّيَتِ الحيرة؛ لِأَنَّ تَبَعًا لَمَّا سَارَ إِلَى مَوْضِعِ الْحِيرَةِ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ، وَتَحَيَّرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فَسُمِّيَتِ الْحِيرَةُ، وَأَوَّلُ مَنْ نَزَلَ مِنَ الْعَرَبِ الْحِيرَةَ جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ، وَيُقَالُ: بَلْ أَوَّلُ مَلُوكِهَا مَالِكُ بْنُ فَهْمِ بْنِ غَنَمِ بْنِ دَوْسٍ مِنَ الْأَزْدِ.

وقال ابن عُيَيْنَةَ: سَمِعْتُ ابْنَ شُبْرُومَةَ يَقُولُ: يَوْمَ وَلِيلَةَ بِالْحِيرَةِ خَيْرٌ مِنْ دَوَاءِ سَنَةٍ، وَكَانَ ابْنُ كُنَّاسَةَ يَنْشُدُ:

فَلِنْ بِهَا لَوْ تَعْلَمِينَ أَصَانِلًا وَلَيْلًا رَقِيقًا مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ

قال: وكان أول من ملك منهم في زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم،

وكان منزله فيما يلي الأنبار، ثم مات فملك أخوه جَذِيمة الأبرش، وكان من أفضل ملوك العرب رأيًا، وأبعدهم مغارًا، وأشدّهم نكايّةً، وأظهرهم حزمًا، وصار الملك من بعده في ابن أخته عمرو بن عديّ، وهو أوّل من اتخذ الحيرة منزلًا من ملوك العراق وهم ملوك آل نَصْر إليه ينسبون، ثم غلب على الأمر أَرْدَشِير بن بابك في أهل فارس.

قالوا: وسوق يوسف بالحيرة نُسب إلى يوسف بن عمرو بن محمّد بن الحكم بن عقيل الثقفيّ ابن عمّ الحجاج بن يوسف، وحَمَام أعين نُسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، وشَهَار سُوج معناه شَهَار طاق بَجَلَة بالكوفة، نُسب إلى قبيلة بَجَلَة وهم ولد مالك بن ثعلبة، ويَجَلَة أمّهم وغالبتهم على نسبهم، ونُسبوا إليها، وغلط الناس فقالوا: بَجِيلَة، وجَبَانَة عَزْرَم منسوبة إلى رجل كان يلبن فيها، ولبنها رديّ فيه قصب وخرق فربّما أصابها شطيّة من نار فاحترقت الحيطان.

ورُزَارَة نُسبت إلى زُرارة بن يزيد بن عمرو بن عُدَس من بني البكّاء، وكانت منزله فأخذها معاوية بن أبي سفيان، ودار حُكَيْم بالكوفة في أصحاب الأنباط نُسبت إلى حُكَيْم بن سعد بن ثور البكّائي، وقصر مقاتل نُسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة، والسَّوَارِيّة بالكوفة نُسبت إلى سَوّار بن زيد العبّاديّ الشاعر.

وقرية أبي صَلَابَة التي على الفرات نُسبت إلى أبي صَلَابَة بن مالك بن طارق العبّديّ، وأقساس مالك تنسب إلى مالك بن قيس، ودَيْر قُرّة ينسب إلى قُرّة أحد بني أميّة بن حُذّافة، وإليه نُسب دَيْر السَّوّا، والسَّوّا العَدْل، ودَيْر الجَمّاجم دير لإياد، وكان بين حَيَيْن منهم قتال، وهم بنو جهراء بن الحاف بن قضاة وبين بني القَيْن بن جسر بن شيع الله بن وَبَرَة، فقتل منهم خلق فلما انقضت الوقعة دفنوا قتلهم عند الدير فكان بعد ذلك إذا حفروا فيه لبعض

أمورهم وجدوا جاحم فيخرجونها فُسْمِي دير الجاحم، ويقال أيضًا: إن دير كعب لإياد أيضًا.

وذئير هند لأم عمرو بن هند، ودار قُمام نُسب إلى قُمام بنت الحارث بن هانئ الكندي، وهو عند دار الأشعث بن قيس، وبيعة عدي نُسبت إلى بني عدي بن الذَّمِيل من لَحْم، وكان طيز ناباذ تُدعى صَيْر ناباذ منسوبة إلى صَيْرَن بن معاوية بن العُبَيْد السَّليحي، ومسجد سِيَّاك بالكوفة منسوب إلى سِيَّاك بن مُحَرَّم بن حُمَيْن الأسدي، وبها محلة بني شيطان منسوبة إلى شيطان بن زُهَيْر من زيد مناة بن تميم.

ورَحَا عُمارة نُسبت إلى عُمارة بن عُقبة بن أبي مُعَيْط، وجَبَّانة سالم نُسبت إلى سالم بن عَمَّار من بكر بن هوازن، وصَخْرَاء البرْدَنَّتْ نُسبت إلى البردخت الشاعر الضبي، ومسجد بني عَنَز يُنسب إلى بني عَنَز بن وائل بن قاسط، ومسجد بني جذيمة، وقصر العَدَسِيَّين في طرف الحيرة لبني عَمَّار بن عبد المسيح نسبوا إلى جدتهم عَدَسَة بنت مالك بن عوف الكلبي.

وسكَّة البريد اليوم بالكوفة كانت بيعة لأم خالد بن عبد الله القسري، ونهر الجامع من حفر خالد، وقصر خالد معروف هناك، وسوق أسد منسوب إلى أخيه أسد بن عبد الله القسري، وقنطرة الكوفة أحدثها عمر بن هبيرة، وأصلحها خالد بن عبد الله القسري.

وقصر يزيد بن عمرو بن هبيرة بالقرب من جسر سُورا والمدينة الهاشمية التي بناها أبو العباس بحيانها، وكان نزلها ثم اختار نزول الأنبار فبنى فيها مدينتها المعروفة به فلما استخلف المنصور نزل المدينة الهاشمية بالكوفة، واستتمَّ بناءها وزاد فيها، ثم تحوَّل منها إلى بغداد فبنى مدينته، ومَصَّر بغداد وسَمَّاها مدينة السلام، وبنى المنصور بالكوفة الرُّصَافَة، وأمر أبا الحَصِيب

مرزوقاً مولاه فبنى له القصر المعروف بأبي الخصيب على أساس قديم له،
ويقال: بل بناه لنفسه.

وأما الخورنق فقد أتمّ بناءه النعمان لبهرام جُور، وجبّانة ميمون نُسبت إلى
ميمون مولى محمّد بن عليّ بن عبد الله، وهو أبو بشر بن ميمون صاحب
الطاقات ببغداد بالقرب من باب الشام، وصخّراء أمّ سَلَمَة نُسبت إلى أمّ سَلَمَة
بنت يعقوب بن سَلَمَة بن عبد الله امرأة أبي العباس أمير المؤمنين.

ما جاء في ذم الكوفة

من ذلك غدرهم بأمر المؤمنين، والحسن والحسين وشكايتهم للعمال، شكوا سعد بن أبي وقاص فدعا عليهم ألا يرضيهم الله بوال ولا يرضي عليهم والياء، وشكوا عمار بن ياسر، فقالوا: لا يعقل، وشكوا المغيرة بن شعبة، والوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، وأخرجوه من الكوفة وغرّوا زيد بن علي، وخذلوا مسلم بن عقيل، وقبلوا المختار بن أبي عبيد.

وقال عمر بن الخطاب: أعْضَلَ بي أهل الكوفة؛ لا يرضون بأمر ولا يرضاهم أمير، وقال قوم من أهل الكوفة للوليد بن عقبة لما عُزِلَ عنهم: جزاك الله خيراً يا أبا وهب فما رأينا بعدك خيراً منك. قال: لكنني بحمد الله لم أَرِ بعدكم شراً منكم وإن بغضكم لتلف وحبكم لكلف، وقال النجاشي:

إذا سقى الله أرضاً صَوَّبَ غادِيَةً	فلا سقى الله أهل الكوفة المَطْرَا
التاركين على طَهْرٍ نساءَهُم	والنائكين بِشَطْطِي دَجَلَةَ البَقْرَا
والسَّارِقِينَ إِذَا مَا جَنَّ لَيْلُهُم	والدارسين إِذَا مَا أَصْبَحُوا السُّورَا
أَلْقَى العِدَاوَةَ والبغضاءَ بَيْنَهُم	حَتَّى يَكُونُوا لِمَنْ عَادَاهُمْ جَزَرَا

وقال أيضاً:

لَعَنَ اللهُ وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ	ساكني الكوفة من حَيٍّ مُضَرٍّ
والبائِثِينَ فَلَا يَجْفُلُ بِهِم	فَهُمْ مِنْ شَرِّ مَنْ فَوْقَ الْغُبَرِ
جَلَدُونِي ثُمَّ قَالُوا قَدَرٌ	قَدَّرَ اللهُ بِهِمْ سُوءَ الْقَدَرِ

وَدَعَى النبوّة من أهل الكوفة غير واحد، منهم المختار بن أبي عبيد، كتب إلى الأحنف بن قيس: بلغني أنكم تكذبونني، وقد كُذِّبَت الأنبياء قبلي، وليست خيراً من كثير منهم، وكان منهم أبو منصور الحنّاق، وكان يتولّى سبعة أنبياء من بني قريش، وسبعة من بني عجل، وكان منهم راشد الهجري، وكانت منه هندة الأفاكة.

وقال مجاهد: لما أوحى الله -جلَّ وعزَّ- إلى الأرض أيام نُوح فقال: ﴿يَتَأَرَضُّ أَبْلَغِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤] كانت أرض كوفة آخرها ابتلاعا وأشدّها تقعّسا، فمن هناك سائر الأرضين تُكْرَبُ على ثورين أو حارين، وتُكْرَبُ هذه على ستّة.

وقالت أم العلاء: مرّوا بزيّد بن عليّ في سوق كندة على حمار قد خولف بوجهه فقاموا إليه يبيكون فأقبل عليهم، فقال: يا شرار خلق الله أسلمتموني للقتل، ثم جثتم تبكون.

وقال أمير المؤمنين لأهل الكوفة: اللهمّ كلّما نصحتهم فغشوني وأتمتّهم فخانوني فسلبّ عليهم فتى ثقيف الذّيال الميّال يأكل خضرتها، ويحكم فيها بحكم الجاهليّة، ولما قُتل مُصعب بن الزُّبير خرجت سكيّنة بنت الحسين بن عليّ، فقال لها أهل الكوفة: يا بنت رسول الله أحسن الله صحابتك، فقالت: يا أهل الكوفة لا أحسن الله صحابتكم لقد قتلتم جدّي عليّا، وعمّي الحسن كانت تنتفض جراحته حتى مات، وقتلتم أبي الحسين، وقتلتم مصعبا، والله لقد أتمتُموني صغيرة، وأيّتمُموني كبيرة، فلا أحسن الله عليكم الخلاف، ولا دفع عنكم السوء.

وروي عن عمر بن أوس قال: لما قدم عمر بن الخطّاب ... بلغه عن الكوفة خصب، وقيل له: ما تقول في الضبّ والحثّ يُجمّع في سفود؟ فقال: إنكم لتنتعون أرضا برّية بحريّة أعجبه الموضع، وقال: ما أراني إلا سأتهم فأمرهم بمعروف، فكتب إليه كعب الخبر: يا أمير المؤمنين لا تعجل فإنه بلغني أن بها الداء العضال، وبها تسعة أعشار الشر، وبلغني أنه إذ كل شيء ينطق اجتمع ثمانية أشياء في وادٍ: الإيوان والحياة، والهجرة، والموت، والغناء، والعبيّ، والشقاء، والصحّة، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نتفرّق في الأرض فتفرّقوا في البلاد، فقال الإيوان: أنا ألحق بأرض اليمن، فقال الحياة: أنا معك، وقال

الهجرة: أن ألحق بالشام، وقال الموت: أنا معك، وقال الغناء: أنا ألحق بأرض العراق فإنها أرض واسعة، قال العبي: أنا معك، قالت الصّحة: ما تركتم لي شيئاً من البلاد إلّا وقد أخذتموه، فأنا ألحق بالبريّة، فقال الشقاء: أنا معك.

وقالوا: السّدير ما بين نهر الحيرة إلى النّجف إلى كسّكر من هذا الجانب، وعيون الطّفّ منها مثل: عين الصّيد والقُطْقُطانة والرّهيمة وعين جمل وأراضي هذه العيون عشريّة، وبها عين الرّحبة، وعلى فراسخ من هيت عيون العرق.

القول في البصرة

سُمِّيَتِ البَصْرَةُ؛ لأنه كان فيها حجارة رخوة، والبصرة: الحجارة الرخوة تضرب إلى البياض فإذا حذفوا الماء قالوا: بِصْر بكسر الباء، وقالوا في النسبة إلى البصرة: بِصْرِيّ، والبصرة بينها وبين دجلة أربعة فراسخ فيها خليج يجري فيه الماء إلى أَجْمَةِ قَصَب، وفتحها عُبَّة بن غَزْوَان في أربعين رجلاً منهم: نافع بن الحارث بن كَلْدَةَ، وأبو بَكْرَةَ، وزِيَادُ أَخُوهُ لَأُمَّهُ، وكان في أَجْمَةِ البصرة دِيَادِبَةٌ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ هَرَبُوا وَتَرَكُوا فِي الْأَجْمَةِ مَكْتَلِينَ فِي أَحَدِهِمَا تَمْرٌ وَفِي الْآخَرِ أُرْزُ بِقَشْرِهِ، فَلَمَّا دَخَلَهَا عَتَبَةٌ وَأَصْحَابُهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَكْتَلِينَ.

فَقَالَ عَتَبَةٌ: كُلُوا التَّمْرَ وَذَرُوا هَذَا الْآخَرَ فَإِنَّهُ سَمٌّ قَدْ أَعَدَّهُ لَكُمْ الْعَدُوُّ فَلَا تَقْرَبُوهُ، فَأَخْرَجْنَا التَّمْرَ وَأَكَلْنَا مِنْهُ فَإِنَّا لَكَذَلِكَ إِذْ نَحْنُ بِفَرَسٍ قَدْ قَطَعَ قِيَادَهُ وَآتَى ذَلِكَ الْأَرَزَّ فَأَكَلَ مِنْهُ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَسْعَى إِلَيْهِ بِشِفَارِنَا لَذَبْحِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتَ.

فَقَالَ صَاحِبُهُ: أَمْسِكُوا عَنْهُ فَإِنِّي أَحْرَسُهُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِنْ حَسَسْتُ بِمَوْتِهِ ذَبَحْتَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا الْفَرَسُ يَرُوثُ وَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ.

فَقَالَ أَخِي: إِنِّي سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِنْ السَّمُّ إِذَا نَضِجَ لَمْ يَضُرَّ فَأَخَذْتُهُ وَطَبَخْتُهُ وَجَعَلْتُ أَوْقَدَ تَحْتَهُ، ثُمَّ تَفَصَّيْتُ عَنْ حُبِّيَّةٍ حَمْرَاءَ فَمَا زَالَ يَطْبَخُهُ حَتَّى أَمَاطَ قَشْرَهُ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْجَفْنَةِ.

فَقَالَ عَتَبَةٌ: اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَكُلُوا فَأَكَلُوا مِنْهُ فَإِذَا هُوَ أَطِيبُ طَعَامٍ، وَسَارُوا إِلَى الْأَبْلَةِ فَفَتَحُوهَا، وَغَنَمُوا أَمْوَالًا وَسَمِعَ النَّاسُ بِالْفَتْحِ فَأَقْبَلَتِ الْأَعَارِيبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَكَانَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وَلِدَ بِالْبَصْرَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، ثُمَّ قَدِمَ عَتَبَةٌ عَلَى عَمْرِ فَأَخْبَرَهُ بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ مَكَانَهُ الْمَغِيرَةَ بْنَ شَعْبَةَ، ثُمَّ وَجَّهَ مَكَانَهُ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ.

وأول من اختط بالبصرة عتبة بن غزوان في خلافة عمر، وكانت يومئذ تسمى أرض الهند فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن حط قيروانك بالكوفة وابعث بعتبة بن غزوان إلى أرض الهند فإن له من الإسلام مكاناً، وقد شهد بدرًا فمضى عتبة في ثمانمائة ونزل البصرة في سنة ١٦، ومصرها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها: رجة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء، وفيها الديوان والسجن وحمام الأمراء فلما ولي أبو موسى نزع القصب وبنى المسجد بلبن وكذلك دار الإمارة وبناه زياد بالآجر والجص وسقفه بالساج.

قال الواقدي: أنشأت البصرة سنة ١٧ من التاريخ قبل الكوفة بستة أشهر، وأنشئت الكوفة سنة ١٨ من التاريخ، وأبو بكر أول من غرس النخل بالبصرة.

وقال هشام الكلبي: أول دار بُنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث، ثم دار معقل بن يسار المزني، وأول حمام اتخذ بالبصرة حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاص وهو موضع بستان سفيان بن معاوية الذي بالخرربة، ثم الثاني حمام فيل مولى زياد، ثم الثالث حمام مسلم بن أبي بكر، وحمام منجاب يُنسب إلى منجاب بن راشد الضبي، وقال الشاعر.

يَا رَبَّ قَائِلَةَ يَوْمًا وَقَدْ لَغَيْتُ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ؟

وقصر أنس بالبصرة ينسب إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.

وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله، وإن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة، وإننا نزلنا أرضاً نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج، ومن قبل المغرب الفلاة فليس

لنا زرع ولا ضرع يأتينا، منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة كذلك فتربق ولدها كما يربق العنز تخاف بادرة العدو وأكل السباع فلا ترفع خسيستنا وتجبر فافتنا نكن كقوم هلكوا، فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء، وكتب لهم إلى أبي موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً.

فحدث جماعة من أهل البصرة قالوا: كان لدجلة العوراء -وهي دجلة البصرة- خور، والخور طريق للماء لم يحفره أحد يجري إليها فيه ماء الأمطار، ويتراجع ماؤها فيه عند المد، وينضب في الجزر، وكان طوله قدر فرسخ، ونهر الإجانة احتفروه أبو موسى، وقاده ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة، فكان طول نهر الأبلّة أربعة فراسخ، ثم إنه انطم منه ما بين البصرة، وبثق الحيرى وذلك على قدر فرسخ من البصرة فلما شخص ابن عامر إلى خراسان استخرج زياد نهر أبي موسى فرجع ابن عامر وغضب عليه، وتباعد ما بينهم وقال: إنما أردت أن تذهب بذكر النهر دوني.

وكانت البصرة أيام خالد بن عبد الله طولها فرسخان، وعرضها فرسخان.

وتذاكروا عند زياد البصرة والكوفة، فقال زياد: لو ضلّت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلني عليها، وقال ابن سيرين: كان الرجل منا يقول: غَضِبَ اللهُ عليك كما غضب أمير المؤمنين على المغيرة؛ عزله عن البصرة وولاه الكوفة.

وقال أبو بكر الهثلي: نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديابجاً ونهراً عجاجاً وخراجاً، وأنشد لابن أبي عيينة في البصرة:

يَا جَنَّةَ فَاقَتِ الْجَنَانَ فَمَا يَبْلُغُهَا قِيَمَةٌ وَلَا ثَمَنُ
أَلْفَتْهَا فَأَخَذَتْهَا وَطَنًا إِنَّ قُؤَادِي لِحُسْنِهَا وَطَنُ

وقالوا: بالبصرة أربع بيوتات ليس بالكوفة مثلها: بيت بني المهلب، وبيت

بني مُسلم بن عمرو الباهليّ من قيس، وبيت بني مِسْمَع من بكر بن وائل، وبيت آل الجارود من عبد القيس.

ودخل فتى من أهل المدينة البصرة فلما انصرف قالوا: كيف رأيت البصرة؟ قال: خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس؛ أما الجائع فيأكل خبز الأرز، والصَّحْنَاء ولا ينفق في الشهر إلَّا درهمين، وأما الغريب فيتزوَّج بشقِّ درهم، وأما المحتاج فلا عيلة عليه ما بقيت استه يخرأ ويتيع.

وقالوا: بالبصرة ستّة ليس بالكوفة مثلهم: الحسن البصري، والأحنف، وطلحة بن عبد الله، وابن سيرين، ومالك بن دينار، والخليل بن أحمد.

وبنى زياد بالبصرة دار الرزق، وحفر نهر الأبلّة ونهر مَعْقِل، وبنى داره وبنى البيضاء والحمراء فلم يضافا إليه، وبنى سَكَّة فأسكنها أربعة آلاف من البُخاريّة فقل: سَكَّة البُخاريّة فأضيفت إليهم وبنى سبعة مساجد فلم يُضف إليه شيء، منها: مسجد الأساورة، ومسجد بني عديّ، ومسجد بني مجاشع، ومسجد حُدَّان، وكلُّ مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد، وكلُّها بنى فيها أو صنع فإنه نُسب إلى غيره مثل: مسنّة مُضْعَب، ونهر عديّ، ونهر بُلْبُل، وباب الأصفهانيّ، وحفيرة مُطيع، وقصر ابن عمار، وحمام سيّاه، وحمام فيل، وحمام مُنْجَاب، وقصر أوس، وباب عثمان، ومقبرة حصن، ومقبرة بني شيبان، ونهر مَرَّة، ونهر بَشَّار، وبنى عبيد الله بن زياد داره بها وفيها باب إلى السَكَّة التي تنفذ إلى سكة اصطفانوس وباب آخر إلى السَكَّة التي تعرف بالبُخاريّة.

وبالبصرة دور كثيرة كانت لمواليهم فأضيفت إلى دينارزاد، وديناربتد، ولهم دار عِجْلان ودار القَطْن ونهر والس ونهر شَيْطَان.

ودخل بعض الدهاقين البصرة فرأى ما اجتمع فيها فقال: قاتلك الله فوالله

ما صرّت هكذا حتى أخربت بلادًا وبلادًا.

وقال ابن الأَهمم البصريُّ: يأتِيها ما يأتِيها عفواً صفواً، ولا يخرج منها إلّا سائق أو ناعق أو قائد.

وقالوا: أبعد الناس نجعة في الكسب بصريٌّ وخوزيٌّ، ومن دخل فَرَغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بدّ من أن يَرى بها بصريٌّ أو خوزيٌّ أو حيريٌّ.

وأهدي إلى رسول الله ﷺ طبق من تمر فجعل يأكل منه البرنيّ والقريثاء، ثم قال: «اللهم إنك تعلم أني أحبُّهما فأنبئهما في أحبّ البلاد إليك واجعل عندهما آية بيّنة» قال الحسن: فوالله ما أعلمهما في بلد أكثر منها بالبصرة، وقد جعل الله -عزَّ وجلَّ- عندها آية بيّنة: المدّ والجزر.

وقال عليُّ بن محمَّد المدائنيُّ: وفد خالد بن صفوان على عبد الملك بن مروان فوافق عنده وفد جميع الأمصار، وقد اتَّخذ مَسْلَمَة مصانع له. فسأل عبد الملك أن يأذن لهم بالخروج معه إلى تلك المصانع فأذن لهم، فلمّا نظروا إليها أقبل مسلمة على وفد أهل مَكَّة، فقال: يا أهل مَكَّة هل فيكم مثلها؟ قالوا: لا. إلّا أن فينا بيت الله المستقبَل. ثم قال لوفد المدينة: هل فيكم مثل هذا؟ قالوا: لا. إلّا أن فينا قبر نبيِّ الله المرسل، ثم أقبل على وفد الكوفة فقال: هل فيكم مثلها؟ فقالوا: لا. إلى أن فينا تلاوة القرآن العظيم، ثم أقبل على وفد البصرة، فقال: هل فيكم مثل هذا؟ فتكلَّم خالد بن صفوان فقال: أصلح الله الأمير إن هؤلاء أقرُّوا على بلادهم، ولو أن عندك من له خبرة ببلادهم لأجاب عنهم. قال: أفعدك في بلادك غير ما قالوا؟ قال: نعم. أصف لك بلادنا قال: هات، قال: يغدو قانصانا فيجيءُ هذا بالشُّبُوط والسَّيِّم، ويحيى هذا بالطير والظليم، ونحن أكثر الناس عاجًا وساجًا وخزًا ودياجًا، وبرذونا هملاجًا، وخريدة مِغناجًا، بيوتنا الذهب ومهرنا العجب...، تمام هذا الخبر في باب افتخار

الشاميين على البصريين وفضل الحيلة على النخلة.

القول في فارس وكرمان ومُكران وسجستان وبلاد الداور.

والقول في الجبل وبلدانها كقُرْماسين وهمذان وأصبهان خاصّة وإن كانت من المفردات.

والقول في الريّ وقزوين وأبهر وزَنْجان وآذربيجان ومدنها وأرمينية وكورها وأخبار الحَزَر.

والقول في ياجوج وماجوج وخبر السدّ ومن بناه، وأخبار باب الأبواب ومن أسّسه وأنشأه، وأخبار خراسان.

والقول في طبرستان والرويان.

والقول في الترك وأخبارهم وأجناسهم وأخبار ملوكهم وأحكامهم ومدنها.

وقد كتبنا قدّمنا العذر في أوّل الكتاب، وأنبأنا عن العلّة في طول الكتاب فإن وقع خطأ في تنظيمه وتأليفه ووُضِعَ الشيء في غير موضعه، أو ذكرنا البلد، والإقليم في غير موضعه ومكانه سألنا من يتصفّحه ويقرؤه أن يغفر لنا زللاً إن وقع فيه، أو خطأ إن وقف عليه؛ لأن الحكماء قالت:

من أراد صناعة الكتابة أو تعاطي تأليف الكتب، أو رسم نفسه بقول الشعر ثم نظم خطبة أو ألف رسالة أو قرض قصيدة، فلا يدعوه العجب بها وبنفسه إلى أن ينتحله أو يدّعيه، ولكن يعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب أو أخبار، فإن رأى الأسماع تُصغي إليه ورأى من يطلبه ويستحسنه انتحله وادّعاه، وإن وجدت الأسماع منصرفة والقلوب لاهية فخذ

في غير تلك الصناعة، واجعل رائدك الذي لا يُكذَّب جَزْمُهُم عليه، فإني رأيت الرجل متماسكًا وفوق المتماسك حتى إذا صار إلى رأيه في شعره أو تأليفه كان متهافتًا وفوق المتهافت.

وقد قيل: من صنَّف فقد استهدف؛ فإن أحسن فقد استُخُصِف وإن أساء فقد استُغْذِف، وقيل: لا يزال المرءُ بخير ما لم يصنَّف كتابًا أو لم يقل شعرًا.

كان زُهَيْر بن أَبِي سُلَمي وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمَّى أكثر قصائده الحوليات المحكَّكة، وكان الحُطَيْيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المنقَّح.

والكتاب شاهدٌ يخبر عن نفسه وينطق بحجَّة صاحبه فيعرف من لم يره ويحمده من لم يعرفه ويُطريه من لم يكن يذكره وينشر محاسنه غير ساكني وطنه، وللكتب محل من القلوب ومجال من الآذان، فعلى قدر نقاء الكلام وعذوبة ألفاظه وجودة معانيه يجذب القلوب إليه ويحرص الآذان على التقرب منه، ويفرش لهم الفهم جلايب قبوله، ويعمل في القلوب ما لا يعمله الغيث بوشي الروض وعلى قدر سخافته تُصغي الأسماع إليه؛ لأن اللفظ الحسن والتأليف المتقن أجدى النفاثات في العُقْد، والكتب مرايا العقول؛ بها تستنار وجوه الحِكم، ويعرف بها تجارب أهل القَدَم، فإن كان الكتاب متقن الصنعة حسن النظم جيّد التأليف، وكانت شوارده عذبة فتقت القلوب وشحذت الطبائع؛ لأن الكتاب يؤلَّف بين الجواهر ويُجمع بين النظائر، وحسنُ التأليف وجودة النظم يكسوان الكتاب طلاوة ويمرسانه من معارضة الاستكانة ومناسبة الاعتراض؛ ولذلك قال بعض الكتَّاب: لم أرَ كلامًا أحسن وصلًا، ولا أمتن فضلًا، ولا أمتع إنذارًا، ولا أقنع أعذارًا، ولا أربأ لصدع، ولا أشعب لجمع من كلام أحمد بن يوسف.

وكان آخر يقول: كلام إبراهيم بن العباس نمط واحد قد سدَّته القرية

وألمته الغزارة، فاتصل أوله بآخره ووارده بصادره، وكان أحمد بن يوسف يقول في رسائل عبد الحميد: ألفاظ محككة، وتجارب محكمة.

وذكر بعضهم ابن المقفع، فقال: ألفاظه معانٍ، ومعانيه حِكَم، فصل خطاب شفاءً، وخصل بيانه كفاء.

وسمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع، فقال: كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ مثور، ووشي منشور، وروض مطور.

وقال جعفر بن يحيى: عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر وأحمد بن يوسف زهر.

ووصف جعفر كلامًا، فقال: كأنها ألفاظه قوالب لمعانيه وسمع كلام متكلم فقال: كلامه يُجتزى بأولاه، ويكتفى بأخراه يتحدث على الأسجاع تحدر الماء الزلال على الكبد الحري، ولما نظر المأمون في كتاب الجاحظ في العباسية، وكان اليزيدي أدخله عليه دعا بالجاحظ فقال: يا عمرو قد كان من يُرتضى عقله، ويصدق خبره ألقى إليّ صفة هذا الكتاب فكنت أرى الصفة عيانًا، فلما حضر العيان أربى على الصفة، ولما فلي أربى الفلي على العيان كإرباء العيان على الصفة، وهو كتاب ينوب عن حضور صاحب، ويحل عن الحاجة إلى المحتجّين له جامع لاستقصاء المعاني، واستيفاء الحقوق بلفظ جزل، ومخرج سهل سوقي ملوكي، خاصّي عامّي.

قال الجاحظ: فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب أثر عندي من الكتاب، وقرأ بعضهم كتابًا فاستحسنه فتمثل.

يُقَصِّل في نظم الكلام معانيًا كفصل العنذارى في النظم

وقرأ آخر كتابًا فقال:

من كل معنى يكاد الميْتُ يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

وقال يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على خراسان: ليكن
الرسولُ بيني وبينك من يعقل عني وعنك، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر، فيه
فإن كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع رأيه، وأنشدني أعرابي:
الشِّعْرُ ثُبُّ الْمَرْءِ يُعْرَضُ والقَوْلُ مِثْلُ نَوَافِذِ النَّبْلِ
منها المقصَّرُ عن رَوَيْتِهِ ونوافِذُ يَنْدُهْبِنَ بِالْخِصْلِ

وأرجو أن يكون كتابنا هذا جامعاً في المعنى الذي طلبناه محيطاً بالفن الذي
أردناه إن شاء الله.

القول في فارس

سميت فارس بفارس بن طهُومَرْت، وإليه يُنسب الفُرس؛ لأنهم من ولده، وكان ملكًا عادلاً متحنًا على رعيته محتاطًا على أهل عصره وكان له عشرة بنين منهم: جَمّ وشيراز، واصطخر، وفَسَا، وجَنَابا، وكَسْكَر، وكَلَوَاذَى، وفَرْقِيسِياه، وعَقْرُفُوف، ودارابجَرْد، فأقطع كل واحد منهم البلد الذي سُمي به، ونُسب إليه، وإنما كانوا قبل ذلك يسكنون الخيام.

ويقال: إن ملكه كان ثلاثمائة سنة، وقال رسول الله ﷺ: «أهل فارس عصبتنا». وروى أنس بن مالك قال: إن الله عز وجل خير بين خلقه؛ فخيرته من العرب قريش، وخيرته من العجم فارس، وقال رسول الله ﷺ: «أسعد الناس بالإسلام أهل فارس، وأشقى العرب هذا الحي من بهراء وتغلب»، وقال ابن لهيعة: يقال: إن فارس قريش العجم.

وروي عن وهب بن منبه في قول الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦]. قال الناس إذ ذاك فارس والروم وفي قوله عز وجل: ﴿يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. قال فارس: قال: ولما هدم ابن الزبير البيت قال: اطلبوا من العرب من يبينه فلم يجدوا. فقال ابن الزبير: استعينوا بأهل فارس فإنهم من ولد إبراهيم، ولن يرفع البيت إلا ولد إبراهيم.

وقال رسول الله ﷺ: «أبعد الناس من الإسلام الروم، ولو كان معلقًا بالثرى لتناولته فارس» -يعني الإسلام- قال: وذكر النبي ﷺ كسرى أنوشروان فقال: «ويل أمه ما أعمق سلمه لو كان أسلم»، وروي عن ابن عباس في قول الله عز وجل ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦]. قال أهل فارس: وقال -عليه السلام- «لا تسبوا فارس فإنهم عصبتنا»، وقال عم: «إن لله جندا

في أهل فارس إذا غضب على قوم انتقم بهم.

وكان كسرى أنوشروان إذا أفرض يقدم الفارسي على رجلين من الذئلم، وعلى خمسة من الأتراك، وعلى عشرة من الروم، وعلى خمسة عشرة من العرب، وعلى ثلاثين من أهل الهند؛ لأنهم كانوا أشجع الناس قلوبًا، وأعزهم نفوسًا، وأعظمهم ملكًا، وأشدهم بأسًا، وأرجحهم عقولًا، وأحسنهم تدبيرًا، وأضحكهم وجوهًا، وأصحهم جوابًا، وأطلقهم ألسنًا.

وقال أبو البختري: بلغنا أن إسحاق بن إبراهيم ولد ابنًا يقال له: نفيس فولد لنفيس قبائل من فارس منهم: اصطخر، وسابور، وردشير، وكان إدريس بن عمران يقول: أهل اصطخر أكرم الناس أحسابًا ملوك أبناء الأنبياء.

وقال أردشير: الأرض أربعة أجزاء فجزء منها أرض الترك: ما بين مغارب الهند إلى مشارق الروم، وجزء منها أرض المغرب: ما بين مغارب الروم إلى القبط، والبرابر، وجزء منها إلى أرض كور السواد: ما بين البرابر إلى الهند، والجزء الرابع الأرض التي تنسب إلى فارس: ما بين نهر بلخ إلى مقطع أذربيجان، وأرمينية الفارسية إلى الفرات، ثم تربة العرب إلى عمان، ومكران، وإلى كابل وطخارستان، فكان هذا الجزء صفوة الأرض من الأرضين بمنزلة الرأس والسرّة والسنام والبطن:

أما الرأس: فإن ملوك أقطار الأرض منذ كان أيرج بن أفريدون كانت تدين بملوكنا، ويسمّونهم أملاك الأرض، ويهدون لهم ويتحاكمون إليهم.

وأما السرّة: فإن أرضنا وُضعت بين الأرضين موضع السرّة من الجسد في البسطة، والكرم، وفيما جُمع لنا فأعطينا فروسية الترك، وفطنة الهند، وصناعة الروم، وأعطينا في كل شيء من ذلك الزيادة على ما أعطوا، وأعطينا من سمة في ألواننا، ووصمة في صُورنا، وألواننا، وشعورنا، كما شوّهت سائر الأمم

بصنوف الشهرة؛ من لون السواد، وشدة الجعودة، والسبوطه وصغر العيون، وقلة اللحى، وأعطينا الأوساط، من المحاسن والشعور، والألوان والصور والأجسام.

وأما السنام: فإن أرضنا على صغرها عن بقية الأرضين هي أكثر منافع، وألين عيشاً من جميع ما سواها.

وأما البطن: فإن الأرضين كلها تُجلب إليها منافعها من علمها، ورفقها، وأطعمتها، وأدويتها، وعطرها، كما تُجبي الأطعمة والأشربة إلى البطن.

وكان أول من جمع فارس وملكها أردشير بن بابك بن ساسان، وهو أحد ملوك الطوائف، وكان على اصطخر، وهو من أحد أولاد الملوك المتقدمين، فرأى أنه وارث ملكهم، فكتب إلى من بقربه من ملوك فارس، ومن نأى عنه من ملوك الطوائف يخبرهم بالذي أجمع عليه من الطلب بالملك لما فيه من صلاح الرعية، وإقامة الدين فمنهم من أقر له بالطاعة، ومنهم من لم يقر، حتى قدم عليه، ومنهم من عصاه فصار أمره إلى القتل حتى استوسق له أمره.

وهو الذي افتتح الحضرة، وهو بإزاء مسكن، وكان ملك السواد متحصناً فيه، وكانت العرب تسميه الساطرون، وهو أول من وضع السكك وحذف أذئاب دواب البرد، وبنى مدينة جور بفارس، وكان موضعها صحراء فمر بها أردشير فأمر ببنائها، وسماها أردشير خُره، وسمتها العرب جُور، وهي مبنية على صورة داربجرد، ونصب فيها بيت نار، وبنى مدينة رام أردشير، وبهمن أردشير خُره وهي فرات البصرة، واستاراباز، وهي كرخ ميسان، وهي من كورة دجلة، ومدينة سوق الأهواز، ومدينة الأبله، وغير ذلك وكانت مدة ملكه أربعة عشر سنة وستة أشهر.

ومن مدينة سوق الأهواز إلى مدينة أرجان أول عمل فارس من هذا

الوجه ٣١ فرسخًا، وأرجان من بناء قَبَاذ بن فيروز؛ لأنه لما استرجع الملك من أخيه جامسا غزا الروم فافتتح مدينتين من مدن الجزير، وأمر فبنيت بين حد فارس والأهواز مدينة سماها بَرْقُبَاذ، وهي التي تسمى أَرْجَان، وكورها كورة، وضم إليها ساتيق من كورة رامهرمز كورة سابور، وكورة أردشير خره، وكورة أصبهان، وبنى أيضًا مدينة حلوان مما يلي الماهات، وبنى مدينة يقال لها: قباذ خره، وكور كورة أخرى بأرض ميسان، وسماها شاذقباد وهي التي تسمى أستان العال، ووضع لها أربعة طساسيج: طَسُوج فيروز سابور: وهي الأنبار، وطَسُوج فادويا، وطَسُوج قطربل، وطَسُوج مَسْكِن، وطساسيسج كثيرة، وأمر فبنيت مدينة شَهْرزُور، وبنى بين جَرْجَان وإيران شهر مدينة سماها شَهْرَقَبَاذ.

وبأرجان قنطرة كبيرة طولها أكثر من ثلاثمائة ذراع بالحجارة على وادي أَرْجَان ومن عجائب أَرْجَان، كهف في جبل منها ينبع فيه ماء فيستحيل فيصير موميائي أبيض وهو الموميائي الأبيض، وقد علّق على باب الكهف باب حديد، يفتح ذلك الباب من الحول إلى الحول يومًا واحد بحضرة المشايخ، والصلحاء من أهل البلد، ثم يتعري رجل ويدخله، ويجمع ما هناك في قارورة فيكون ما يجتمع في جميع السنة مقدار مائة مثقال يزيد أو ينقص إلا أنه قلما يزيد على المائة المثقال، ثم يختم الباب، ويقفل عليه إلى قابل من ذلك الوقت، ويوجه بتلك القارورة مختومة بخاتم القاضي والوالي إلى السلطان وخاصيته لكل صدع أو كسر عظم يسقى منه مثل العدسة بالماء إذا شرب فيذهب على المكان إلى موضع الكسر، أو الوهن فيصلحه ويُلحمه.

ومن أَرْجَان إلى التَّوْبَنْدَجَان ٢٩ فرسخًا، وفيها شُعب بَوَّان، وفيه شجر الجوز والزيتون، والفواكه ما ينبت في الصخر وروي عن المبرّد أنه قرأ على شعب بوان هذه الأبيات في صخرة:

إذا أشرف المكروب من رأس تَلْعَةٍ على شُعب بَوَّانِ أفاق من الكَرْبِ

وَأَلْفَاهُ بَطْنٌ كَالْحَرِيرَةِ مَسَّةٌ وَمُطَرَّدٌ يَجْرِي مِنَ الْبَارِدِ الْعَذْبِ
وَطِيبٌ ثَمَارٌ فِي رِيَاضٍ أَرْضِيَّةٍ عَلَى قُرْبٍ أَغْصَانٍ جَنَاهَا عَلَى قُرْبٍ
فَبِاللَّهِ يَا رِيحَ الْجَنُوبِ تَحْمَلِي إِلَى شُعْبِ بَوَّانٍ سَلَامٌ فَتَنِي صَبٌّ

وإذا تحته مكتوب:

لَيْتَ شِغْرِي عَنْ الَّذِينَ تَرَكْنَا خَلَفْنَا بِالْعِرَاقِ هَلْ يَذْكُرُونَا
أَمْ لَعَلَّ الْمَدَى تَطَاوَلَ حَتَّى قَدُمَ الْعَهْدُ بَعْدَنَا فَتَسُونَا

وكتب أحمد بن الضحاك التُّكَيْكِيُّ إلى صديق له يصف شعب بوان كتبته إليك من شعب بوان، وله عندي يد بيضاء مذكورة، ومئة غَرَاء مشهورة، بما أولانية من منظر أعْدَى على الأحزان، وأدال من صروف الزمان، وسَرَحَ نظر في جداول تطرد بهاء معين منسكب أرق من دموع العشاق من حَرَقَ لَوْعَةِ الفراق، وأبردَ من ثغر الأحباب، على طَمَأٍ والثام، كأنها حين جَرَى أذْيُهَا يترَفَّق، ويتدافع تَيَّارُهَا يَتَدَفَّق، ويرتجُ حَبَابُهَا يَتَكَسَّرُ في خلال رياض ترنو بِحَدَقِ تَوَلَّبِ قَصَبُ الْجُحْنِ في صفائح عِقْيَان، وسُمُوط دُرٍّ بين زَبَرْجَدٍ وَمَرْجَان، أثرٌ على حِكْمَةِ صَانِعِهِ شَهِيد، وَعَلَمٌ على لطف خالقه دليل، إلى ظل سَجَسَجِ أَحْوَى، وَخَضِلِ أَلْمَى، قد غَنَى عليه أَغْصَانُ فَيْنَانِهِ، وَقُضِبَ غَيْدَانُهُ، تشوّرت لها القُدُودُ الْمُهْفَهَفَةُ والخصور المَهْفَةِ مَيَّلًا، والأعجاز المثقلة حُلَلًا، والمعاصم الشطبة، والأبدان الرطبة، والعيون النُّجْلُ، والحدق المراض، والجاذر النواعم، والخور الحسان، والخرْد الطراف، فأقمت فيه يومًا لخيالك منادِمًا، ولتشوّقك مسامرًا، وشربت لك يا دَكَارًا. وإذا تَفَضَّلَ اللهُ بِإِتْمَامِ السَّلَامَةِ إلى أن أوافي شيراز كتبت إليك من خبري بما تقف عليه إن شاء الله.

ومن النوبندجان إلى شيراز نيف وعشرون فرسخًا وهي من كورة أَرْدَشِيرُخَرَّه ورسايقها جُور وميمند وخبر، والصيمكان والبرجان والكهرجان والخوازُروستان وكير وكارزين وأبزر وسميران وتَوُج وكُرَّان،

وسينيز وسيراف، والرؤنيان وكام فيروز.

ومن سوق الأهواز إلى الدورق، في الماء ١٨ فرسخًا، وعلى الظهر ٢٤ فرسخًا.

كورة سابور، ومدينتها النوبندجان، ورساتيقها الحشت، والكيارج، وكازورن وخره وبندرهمان، ودشت بارين، والهنديجان، والدرخوند، وتنبوك، والخوبندان، والميدان، وماهان، والجند، والراجان، والشاهجان، وموز، ودازين، والسادور، وجنجان والسياه مص، وأنبوران، خمانيان السفلى، خمانيان العليا تيرمردان.

كورة اصطخر ورساتيقها: مدينة البيضاء وبهران وأسلان، وإيراج وخبر اصطخر وكورد وأبرقويه والبودنجان، والميان رودان، والكاسكان، والهزار.

ومن شيراز إلى مدينة فسا ٣٠ فرسخًا، ومن مدينة فسا إلى مدينة دار بجر ١٨ فرسخًا، ورساتيقها: كرم وجهرم ونيريز والفستجان والأبجر والاندان وجويم ورساتيق كثيرة.

ومن شيراز إلى مدينة جور ٢٠ فرسخًا، ومنها إلى بيضاء اصطخر ٦ فراسخ، ومن النوبندجان إلى شيراز ٢٣ فرسخًا، وبين شيراز وسابور ٢٠ فرسخًا، وبين شيراز واصطخر ١٢ فرسخًا.

زموم الأكراد بفارسي قال صاحب كتاب المسالك والممالك وهو عبد الله بن محمد بن خردادبه: محال الأكراد أربعة: زموم بفارس خاصة زمم الحسين بن جيلويه يسمى البازنجان من شيراز على ١٤ فرسخًا، وزم أرجان بن خوانجاء من شيراز على ٥٢٦ فرسخًا، وزم القاسم بن شهریار يسمى الكوريان من شيراز على ٥٠ فرسخًا وزم الحسين بن صالح يسمى السودان من شيراز على

قال: فصارت فارس خمس كور: اصْطَخْر وسابور وأردشير خُرّه ودارابَجَرْد وفَسَا وأَرْجان وفارس مائة وخمسون فرسخاً في مثلها.

وافتححت عنوةً على يدي أبي موسى وعثمان بن أبي العاص، ويقال: إن إبراهيم ؑ من اصطخر، ويقال: بل كان من قرية يقال لها: أَبَرْقُوه، وخراج فارس ثلاثة وثلاثون ألف ألف بالكفاية، ويقال: خمسة وثلاثون ألف ألف درهم وكان يجبي عمرو بن الليث في أيامه خراجها أحد وثلاثين ألف ألف درهم، ويجبي ضياعها تسعة عشر ألف ألف درهم، فجميعه خمسون ألف ألف درهم، وكان يحمل منها في كل سنة إلى السلطان خمسة عشر ألف درهم أو دينار، وجباها الناصر في سنة ٣٧٨ ستين ألف ألف درهم.

ومن العجائب شجرة بشيراز تحمل التفاحة نصفها حلوة في غاية الحلاوة، ونصفها حامضة في غاية الحموضة، وليس بفارس كلُّها من هذا النوع إلا هذه الشجرة الواحدة، ولهم سابور وفيه الأدهان الكثيرة والروائح السنية، وهذا معدوم في شيء من البلدان إلا فيها؛ لأنهم زعموا جميعاً أن من دخل سابور لم يزل يشتمُّ روائح طيبة من غير علة، ولهم جُور وبها الماورد الجُوري، ومنها يحمل إلى جميع البلدان، وهم أحذق أمة بالمرايا والمجامع وغير ذلك من الآلات الحديد.

وقال الأصمعيُّ الدنيا ثلاثة: عمان والأبلة وسيراف.

القول في كَرْمَان

قال ابن الكلبي: سُميت كرمان بكرمان بن فلوج من بني لَنْطِي بن يافث بن نوح، ويقال: إن بعض ملوك الفرس أخذ يومًا فلاسفة فحبسهم في محبس له، وقال: لا يُدْخَل عليهم إلَّا الخبز وحده، ويخَيَّرُون الإدام في سائر الأيام فاخْتارُوا الأترجَّ، فأخبر الملك بذلك وباختيارهم الأترج، فقالوا: أما قشره الظاهر فطيب نَشْتُمُه، وأما داخله ففاكهة يُنتَفَع به، وأما مُحامضه فإنه خَلُّ نافع طاهر، وأما حَبُّه فدهن ينتفع به قال: فلما أعيَا الملك فيهم الحيلة قال: هؤلاء قوم حكماء فأمر بهم فأسكنوا كرمان، وكان لا يخرج ماؤها إلَّا على خمسين ذراعًا فهندسوه هؤلاء الحكماء حتى أظهروه على وجه الأرض، ثم غرسوا فيها الأشجار فالتفت كرمان كلُّها بالشجر، فأخذوا عنهم الهندسة فقال: أسكنوهم الجبال فأسكنوهم الجبال فعملوا الفوَّارت وأظهروا الماء على وجه الأرض على رءوس الجبال، فقال: اسجنوهم فعملوا الكيمياء، وقالوا هذا لا نُخرجه إلى أحد فعملوا ما اكتفوا به، وأحرقوا كتبهم وانقطع الكيمياء.

وقال بعض علماء الفرس: كانت الأكاسرة تجبي السواد مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف سوى ثلاثة آلاف ألف من الوضائع لموائد الأكاسرة، وكانوا يجبون فارس أربعين ألف ألف درهم، وكانوا يجبون كرمان ستين ألف ألف درهم لسعتها، وهي ثمانون ومائة فرسخ في مثلها، وكانت كلُّها عامرة، وبلغ من عمارتها أن القناة تجري من مسيرة خمس ليال، وكانت كرمان ذات أشجار وأنهار وعيون.

ومن شيراز إلى مدينة الشيرجان مدينة كرمان ٦٤ فرسخًا، وكرمان خمسة وأربعون منبرًا صغارًا وكبارًا، ومن مدنها: القُقْص، والبارز والمُراج والبُلُوص وجِرْفَت وهي مدينة سجستان والشِيرَجَان وماهان وَيَمٌ وهرموز والرباط.

قال: وبكرمان مدينة يقال لها: دَمَنْدَان، وهي مدينة كبيرة واسعة بها أكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشاذر والصُّفْر، ومعدنه بجبل يقال له: دُنباوند؛ جبل مرتفع شاهق في الهواء ارتفاعه ثلاثة فراسخ، وهذا الجبل بالقرب من مدينة يقال لها: خُوَاش، والجبل من المدينة على سبع فراسخ، وفي الجبل كهف عظيم يسمع منه دوي وخرير مثل خرير الماء، ويرتفع منه بخار مثل الدخان، فيلصق حول الكهف والجبل، حتى إذا كثف وكثر خرج إليه أهل تلك المدينة فيقلعونه في رأس كل شهر، وقد وُكِّل السلطان به قومًا حتى إذا أخذوا جميع ما فيه أخذ السلطان من ذلك خُمُسَه، ويحمل باقيه إلى الآفاق.

وبها مدينة يقال لها: خَبِيص لم تُمَطَّر داخلها قط ويُمَطَّر خارج المدينة، ولا تُمَطَّر المدينة حتى إن الرجل يُخرج يده من سور المدينة إلى خارج فتبتل يده، ولا يكون في المدينة قطرة واحدة.

وبها خشب لا تحرقه النار يخرج من النار صحيحًا، وقد موّه بهذا الخشب بعض النصارى، فزعم أنه من الخشب الذي صُلب عليه المسيح - عليه السلام - فكاد أن يفتن به الخلق من النصارى حتى فطن له بعض المتكلمين فأتاهم بقطعة عود بكرمان فكان أبقي على النار من صليبه.

وقال المأمون: لو أخذ الطحلب فجفف في الظل، ثم طرح في النار لم يحترق، والسمندل طير يكون في النار فلا يحترق ريشه، وزعم طمياث الحكيم في كتاب له في الحيوان أن في المشرق طيرًا يقال له: بنجس في مدينة يقال لها: مدينة الشمس، ليس له أنثى ولا شكل في فعله، وأهل المدينة يعبدون الشمس، وتسمى المدينة أغفطوس. قال: فيطير هذا الطائر فيجمع بمنقاره عيدان الدارصيني، ثم يضطرب عليها بجناحيه حتى يشعل نارًا من تلك العيدان فتأكله حتى يصير رمادًا، ثم ينشأ من ذلك الرماد دودة فلا تزال تنمي وتزيد

حتى تكون طيرا كما كان، وذلك في خمسمائة عام.

وبخراسان هوة في جبل تتقد فيها نار لا تطفأ، يكون فيه جردان تخرج فإذا رأت إنسانا خاضت النار فلا تحترق.

ومن كرمان إلى سجستان ١٣٠ فرسخا، ولها من المدن: زالق وكركوية وهيسوم وزرنج وهي مدينة سجستان ويُسْت وباشتروذ والقرنين، وبها أثر مَرَبط فرس رُسْتَم، ونهرها الهندميد يقول أهل سجستان: إنه ينصب في ألف نهر فلا يتبين فيه الزيادة ويشق منه ألف نهر فلا يتبين فيه النقصان.

وفي شرط أهل سجستان: ألا يُقتل لهم قنفذ، ولا يصاد، وذلك أن أفاعيها كثيرة وقل بيت لا يكون فيه قنفذ بمنزلة السنانير عندنا لكثرة أفاعيها، وهي بمنزلة النمس بمصر؛ لكثرة ثعابينها.

ومنها الرُّخج، وبلاد الدَّاور؛ وهي مملكة رُسْتَم الشديد ملكه كَيْقَاوُس، ومن مدينة سجستان إلى مدينة هراة ٨٠ فرسخا، ومن شيراز إلى نيسابور ١٢٠ فرسخا، ومن شيراز إلى دارا بجرد ٤٧ فرسخا، ومن اصطخر إلى الشيرجان مدينة كرمان ٥٩ فرسخا، ومن السُّرمقان؛ وهو آخر عمل فارس إلى الشيرجان ١٦ فرسخا، ومن جيرفت إلى بَم ٢٠ فرسخا، ومن جرفت إلى أوّل عمل مُكران ٤١ فرسخا، ومن أوّل عمل مكران إلى منصوره السند ٣٥٨ فرسخا، ومن زرنج مدينة سجستان إلى المولتان مسيرة شهرين.

القول في الجبل

ويسمى هذا الصقع بلاد البهلويين وهي: همدان وملسبذان
ومهرجانقذق، وهي الصيمنة وقمّ وماه البصرة وماه الكوفة وقرماسين، وما
ينسب إلى الجبل، وليس منه الرّي وأصبهان وقومس وطبرستان وجرجان
وسجستان وكرمان وقزوين والديلم والبير والطيلسان.

القول في قُرْمَاسِين

قال أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي لما ظفر قُتَيْبَةُ بن مسلم بَقَيْرُوز بن كسرى يَزْدَجِرْد حيث افتتح خراسان أخذ ابنته شاهِفرند، ومعها سَفْط؛ فبعث بها إلى الحَجَّاج بن يوسف فحملها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك فولدت له يزيد الناقص، وفضل الحجاج السفط فإذا فيه كتاب بالفارسية فدعا زادن فرُّوخ بن بيري الكسكري فترجمه فإذا فيه:

باسم الله المصوِّر مِيز قُبَاذ بن قَيْرُوز إقليمه ووزن المياه والترب؛ ليني لنفسه مدينة ينزلها، فوجد أنزه بقاع إقليمه بعد أن بدأ بالعراق التي هي سُرَّة الأقاليم ثلاثة عشر موضعًا: المَدَّائِن والسُّوس وجُنْدِي سابور وتُسْتَر وسابور وأصبهان والري وبلخ وسمرقند وباوَرْد وبطنًا بنهاوند، يسمى رُوذراور وملسبذان ومهرجائنقَدَق وتَل ماستر.

ووجد أبرد بقاع إقليمه سِتَّة مواضع: قَالِقَلَا وأردبيل وهَمْدَان وقَزْوِين وجَوَانق بطنًا بنهاوند وخوارزم ومرو.

ووجد أوبًا بقاع إقليمه سِتَّة مواضع: البَنْدَنِجَان، وبطن ماستر وهو شَابُور خواست وجرجان والخَوَّار بطنًا بالري، وبرذعة وزنجان.

ووجد أقحط بقاع إقليمه ثمانية مواضع: مَيْسَان ودَسْتَمِيسَان والكلْتَانِيَّة وبَادَرَايا وبَاكُسَايا وماسَبْدَان والري وأصبهان.

ووجد أبخل أهل إقليمه تسعة مواضع: خراسان وأصبهان وأزْدبيل وماسَبْدَان وبَادَرَايا وبَاكُسَايا واضْطَخْر وشيراز وفساء، وأخصب بقاع إقليمه عشرة مواضع: أَرْمِينِيَّة وأذربيجان وجُور ومُكْرَان وكرمان ودَسْتَبِي وماء الكوفة وماء البصرة وأَرَجَان ودَوْرَق، وأكمل بقاع إقليمه عشرة مواضع:

الحيرة والمدائن وكلواذى وسابور واصطخر وجندبا والري وأصبهان وقم والنشوى، وأعقل أهل إقليمه سبعة مواضع: عكبرا وقطربل وعقرقوف والري وأصبهان وماسبذان ومهرجانقذق، وأفطن أهل إقليمه ستة مواضع: إسكاف العليا وإسكاف السفلى ونفر وسمر وكسكر وعبدسي، وأحسد أهل إقليمه خمسة مواضع: جرجايا وحلوان وسحاران وماسبذان وهمذان، وأعلم أهل إقليمه بالسلاح أربعة مواضع: همذان وحلوان وأصبهان وشهرزور.

ووجد أخف مياه إقليمه مياه عشرة مواضع: دجلة والفرات وماء جندي سابور وماسبذان وبلخ وسمرقند وقزوين وماء سُورا عين بقرماسين، وماء ذات المطامير وماء فنجاى قرية الثلج بماسبذان.

ووجد أمكر أهل إقليمه أحد عشر موضعاً: خراسان وأصبهان والري وهمذان وأرمينية وأذريجان وماسبذان ومهرجانقذق وتستر والمذار وأرتوي. وأسرى فواكه إقليمه سبعة مواضع: المدائن وسابور وأرجان والري ونهاوند وماسبذان وحلوان الجبل.

ووجد أقل أهل إقليمه نظراً في العواقب ثمانية مواضع: البندنيجان وماسبذان ومهرجانقذق وأردشير خُره ورامهرمز وأرمينية و أذريجان وبحروف وقرية ومن قرى قُم خرج منها أربعة آلاف رجل، مع كل رجل خادم وسائس وخباز وطباخ لقتال العرب فقتلوا كلهم عن آخرهم بالأسفيذهان، لم يرجع أحد منهم إلا رجل واحد.

ووجد أسفل أهل إقليمه ستة مواضع: البندنيجان وبادريا وباكسايا وبهندق وقهقور بطناً بماسبذان وجرود بطناً بنهاوند، ولم يجد ما بين المدائن إلى نهر بلخ بقعة على الجادة أنزه ولا أعذب ماء ولا ألذ نسيماً من قرماسين إلى عُقبة همذان فأنشأ قرماسين، وبنى لنفسه بناء معمداً على ألف كَرَم فقرماسين كلمة

بالفارسية يعني كرمان شاه.

وبنى الأكاسرة من المدائن إلى عقبة همدان وقصر شيرين ثم نقل قباد
الأشرف من فارس وخراسان من أهل الشرف والجمال والأدب والفروسية
فأسكنهم حافتي دجلة، وأنزل من كان دون هؤلاء في الشرف النهروانات،
وأنزل أصحاب الصناعات بطن جُوخَى وأنزل الحاكة السوس وتستر،
والحجامين بادريا وباكسايا، وأنزل التجار الأهواز، وأنزل الأطباء السيروان -
قرية بهاسبدان.

فلما مَيَّز قُبَاد إقليمه، وعرف أقل البقاع وَمَسَح البلاد، وعرف الحدود،
وعَدَّ الفراسخ اختار للنزول المَدائن؛ لقرب الروم، وكانت الأنبار رومية، ثم
انكمش في بناء المدائن فكان كلما ارتفع شيء من حائط القصر هَبَّت ريح
فاقتلعت فبعث إلى بليناس المطلسم الرومي، وكان قد عُمِّر فأمره أن يطلسم
مواضع آفات إقليمية، وقال له: ابدأ بالمدائن، وجعل له على كل طلسم أربعة
آلاف درهم فاتخذ له في الإيوان طلسمًا كبيرًا وحوله أحد عشر طلسمًا.

فأما الكبير فللريح التي كانت تقتلع الحائط فسكنت وتمَّ البناء، وطلسم
للعقارب فقلَّت بها، وأخرى للحمى فقلَّت الحمى بها، وآخر للجَرَّارات
فقلَّت، وآخر للأسد فقلَّت، وآخر للربع، وآخر للبراغيث، وآخر لاجتماع
كلمة أهلها شهدوا أو غابوا ما دام الملك فيهم، وآخر ليطيع أهلها ملوكهم ما
بقوا، وآخر للملوك الإقليم أن يهابوا الملوك العراق، وليس منها طلسم إلا على
يمينه على أربعين ذراعًا منه كنز، وعلى يساره على أربعين ذراعًا منه كنز،
وكذلك من خلفه وبين يديه، وقالوا: ما بناء بالحصص والآجر أبهى من إيوان
كسرى بالمدائن، وقال البُخَرِيُّ:

وكان الإيوان من عجب الصن عة جوب في جنب أرعن جَلَس
مُسْمَخَر تَعْلُو لَه شُرُفَات رُفَعَتْ فِي رِءُوسِ رِضْوَى وَقُدَس

ليس يُدري أَصْنَعُ إنسَ لجن سَكْنُوهُ أمْ صُنْعُ جنسِ لِإنس

وأنشدني ابن الحاجب لنفسه في إيوان كسرى:

إنْ خَانَنِي رَمَنْ فَمَنْ هَذَا الَّذِي لَمْ تَسْتَبِيحْهُ خِيَانَةً الْأَزْمَانِ
 أَخْنَى عَلَى عَادِ وَأَهْلِكَ ثُبَّعَا وَخَنَا بِكُلِّكَلِهِ عَلَى النُّعْمَانِ
 وَأَزَالَ مُلْكَكَ الْفُرسَ بَعْدَ ثُبُوتِهِ وَسَطًا بِكُسْرَاهَا أَثُوشَ وَرَوَانِ
 أَتَارَهُمْ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ نَصَا وَلَيْسَ مَغِيبُ كَعْيَانِ
 هَلْ أَسْمَعْتَ أَذْنَاكَ مِثْلَ حَدِيثِهِمْ أَوْ عَايَنْتَ عَيْنَاكَ كَالْإِيْوَانِ
 قَضَرُ يَكَادُ يَرْدُ حُسْنِ بَنَائِهِ بُصْرَاءَ عَنْهُ نَوَاطِرُ الْعُمَيَّانِ
 وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِ كُلِّ دُجْنَةٍ نَارُ تُشْبِ لِعَابِدِ الرَّهْبَانِ
 أَوْ فِتْنَةٍ شَرُّبُوا فَأَحْدَثَ فِيهِمْ فِعْلُ الشَّرَابِ مَحِيلَةَ النَّشْوَانِ
 وَضَعُوا الْأَكْفَ عَلَى الْخُصُورِ وَرَفَعُوا فَوْقَ الرِّءُوسِ أَكْلَةَ الْمَرْجَانِ
 مُضْطَفَّةً كَبَنَاتِ نَعَشٍ مِنْ ذَرَا عَالِي السُّمُوكِ مَوْثِقِ الْبُيَّانِ
 وَمُعَسْكَرَانَ لِكُلِّ حَرْبٍ مِنْهَا رَجُلٌ أَمَامَ مَوَاقِفِ الْفُرْسَانِ
 جَيْشَانِ لَوْ وَقَعَ التَّنَاجُزُ مِنْهَا لَمْ يَبْقَ مَنِ جَمَعَتْهُمَا رَجُلَانِ
 لَوْلَا وَقُوعُ الْيَاسِ مِنْ حَرَكَاتِهِمْ لَظَنَنْتُ أَنَّهَا سَيَقْتَتِلَانِ

قال أبو المنذر: طلسمات إيران شهر ظاهرة، وعند كل طلسم منها على أربعين ذراعاً علامة، إما صخرة أو تمثال، ثم وجهه إلى ناحية الجبل فلما انتهى إلى طارستان عمل بإزاء القنطرة طلسمًا للغرق فسلم أهلها منه، وآخر خلف القنطرة، فاستتم بناؤها، وآخر عن يمين القنطرة حتى جرى ذلك الماء الذي على القنطرة وآخر عن يسار القنطرة حتى سلمت من الشجر، وعمل بالبندنجين طلسمًا للغرق فأمنوه، وآخر للمنارة فنصبت لولا ذلك لم يمكن أحداً أن يشرب من ذلك الماء، وعمل آخر فوقه على فرسخ للنفاطة حتى نصبت لولا ذلك لأفسد ماءهم وعمل على يسار البندنجين طلسمًا للزناير

والذئبة فسلموا منها، وكانت أكثر بلاد الله ذئبة وزناير.

واتخذ بإسبذان بقرية بها تسمى ترمان حمة تحيل إلى الإنسان أن النار يتقد فيها تعمل في الشتاء ولا تعمل في الصيف، وحمة وترمان شظية من حمة ماه الكوفة.

ومن عجائب قزماسين أن الريح كانت لا تهب فيها أيام الصيف بالليل، فأمر قباد بليناس أن يطلسمها ففعل فلا بدَّ من أن تهبَّ فيها بعد غروب الشمس الريح، وبقرها قرية يقال لها كركان يقوم بها في كل سنة سوق عظيمة، فكان في كل سنة يموت عالم من الناس؛ لكثرة عقاربها فطلسمها فلا تدبُّ على قريتها عقرب إلا مات، ومن أخذ من طينها ليلة الميلاد فطين به داره أو بيته لم يقربها عقرب إلى قابل ذلك الوقت.

حديث شبديز

ومن عجائبها، وهو أحد عجائب الدنيا صورة شبديز، ومصوره فطوس بن سنهار الرومي، وسنهار باني الخورتق بالكوفة، وكان سبب صورته أن شبديز كان من أذكى الدواب، وأعظمها خلقاً، وأظهرها خلقاً، وأصبرها على طول الركض أهدها إليه ملك الهند مؤدباً فكان لا يبول، ولا يروث ما دام عليه سرجه ولجامه، ولا ينخر ولا يُزِيدُ، وكانت استدارة حافره تزيد على ستة أشبار، فلما نفق أمر الملك فطوس بتصويره فلما فرغ منه جاء فوقف عليه، فلما تأمله استعبر باكياً، وقال: لشد ما نعى هذا التمثال إلينا أنفسنا، وذكرنا ما نصير إليه من فساد حالنا في كلام طويل له.

ومن عجائبه أنه لم ير مثل صورته صورة، ولقد سمعت كثيراً من حملة العلم و الفقه يقولون: ليس شبديز من صنعة العباد، وقال لي بعض الفقهاء: لو أن رجلاً خرج من فرغانة القصوى وآخر من السوس الأقصى قاصدين إلى شبديز حتى ينظرا إليه ما عتقا على ذلك.

وهو أعجب تصوير في الدنيا؛ لأنه في الموضع الذي يحتاج فيه إلى الحمرة أحمر وفي موضع حاجته إلى الغبرة أغبر، وموضع حاجته إلى السواد أسود، وموضع حاجته إلى البياض أبيض، والجل في نفسه أغبر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقال لي أبو علي محمد بن هارون بن زياد وكان حكيماً فيلسوفاً، وقد تجارينا ذكر شبديز فوصلنا إلى هذا الفصل فقال: محال أن يكون حجر واحد بجميع هذه الألوان، ولكنه لما فرغ من الصورة دهنها بالدهن الصيني، وأنشد أبو محمد العبدى لنفسه:

مَنْ نَاطَرَ مُعْتَبِرٌ أَبْصَرَتْ مُقْلَتْهُ صُورَةُ شَبْدِيزِ

فِي مَلِكِ الدُّنْيَا أَبْرُويز
يُلْحِقُ مَوْطُوْدًا بِمَهْزُوْرٍ
تَحْطُّ رَسْمٌ مِنْهُ مَرْمُوْرٍ
رَنْقٌ يُعَانُوْهَا بِتَمْزِيْرٍ
فِيهَا لَذِي لُبٌّ وَتَمِيْزٍ
تِيكَ فِذْوِ الْعِزِّ كَمَغْزُوْرٍ

تَأْمَلِ الدُّنْيَا وَأَثَارَهَا
يُوقِنُ أَنَّ الدَّهْرَ لَا يَأْتِي
أَبْعَدَ كَسْرَى اعْتَاضٍ مِنْ مَلِكِهِ
تَغْبِطُ جِرَانَا عَلَى عَيْشَةٍ
تَحُلُّ عَنِ الدُّنْيَا فَلَا طَائِلَ
نُعْمَى وَبُؤْسَى أَعْقَبَتْ هَذِهِ

وَأَنشُدْ لِأَحَدِ بْنِ مُحَمَّدٍ:

وَفِيهِ تَصَاوِيرُ مِنَ الصَّخْرِ تُحْكَمُ
وَشِيرِيْنُ تَسْقِيهِمْ وَشَيْخٌ مُزْمِرٌ
وَشِرْزَوِيْنُ فِيهِمْ قَاعِدٌ مَتَعَمُّ
إِلَى طِفْلَةٍ حَسَانَةٍ لَا تَكَلِّمُ
وَهَزْبٌ لَهُمُ بِالْجَهْلِ وَالْجَوْرِ يُحْكَمُ
لِيَقْسَمَ فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيْسَ يَظْلَمُ
وَطَرْفٌ عَلَيْهِ الْمَرْزِيَانُ الْمَكْرَمُ
مِنَ الطَّيْرِ وَالْعَنْقَاءُ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ
وَحَيْثَانُ بِحَرٍّ فِي السَّفِيْنِ تُعَوِّمُ
فِيْلٌ وَقِيَالٌ عَلَيْهِ بُدْمٌ دِيمُ
وَبَازٌ وَصَقْرٌ قَدْ يَصِيْدُ وَقَشْعَمُ
وَشَيْخٌ عَدِيْمٌ قِيلَ هَذَا مُعْلَمُ
عَلَيْهِ جَنَاحٌ طَائِرٌ لَا يُحَوِّمُ
فَصَوْرٌ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ مُقَوِّمُ
أَقْرَبُ لَهُ بِالْحِذْقِ عُزْبٌ وَأَعْجَمُ

بُؤْسَتَانِ طَائِقٌ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مِثْلُهُ
وَبَرُويز فِيهِ وَالْمَرَاذِبُ حَوْلَهُ
وَبَهْرَامُ جُحُورٍ وَالْمَقَاوِلُ مُثَلِّلٌ
وُخْرِيْنُ قَدْ أَجْرَى وَأَوْمَى بِسَهْمِهِ
وَمُوبِذُهُمُ فِي الطَّاقِ صُورٌ غُبْرَةٌ
وَكَيْتٌ يُحَوِّزُ الْمَاءَ فِي النَّهْرِ وَاقِفٌ
وَأَسْرَابُ عَيْنٍ وَالْكَلاِبُ تُحَوِّشُهَا
صُورٌ فِيهِ كُلُّ وَخْشٍ وَطَائِرٍ
وَأَشْدُّ وَصِيْرَانٌ وَشَاءٌ وَأَعْنَزُ
وَمَا دَبَّ مِنْ ذَرٍّ وَتَمَلٍّ وَعَقْرِبٍ
وَقَنْبِجٌ وَدُرَاجٌ وَظَبْيٌ وَأَرْنَبٌ
وَمَكْتَبٌ صَبِيَانٍ وَتَأْدِيْبٌ غَلَمَةٍ
وَصَوْرٌ قَطُوسٌ عَلَى الطَّاقِ نَفْسُهُ
فَسُبْحَانَ رَبِّ سَخَّرَ الصَّخَرَ عَنُودَةً
لَقَدْ أَبْدَعَ الرُّومِيُّ فِي الطَّاقِ بَدْعَةً

وأنشد:

كَادَ شَبْدِيرُ أَنْ يُخَمِّجَ لَنَا خُلِّقَ الْوَجْهَ مِنْهُ بِالزَّعْفَرَانِ
فَكَأَنَّ أَهْلَامَ كَسْرَى وَشِيرَى نَ أَوِ الشَّيْخِ مَوَيْدَ الْمَوِيدَانِ
مَنْ خُلِقَ عَمْدًا أَرِيقَ عَلَيْهِمْ أَصْبَحُوا فِي قَطَائِفِ الْأَرْجَوَانِ

وبقر ماسين الدُّكَّانَ الذي اجتمع عليه ملوك الأرض؛ فَعَفُورُ ملك الصين،
وخاقان ملك الترك، وداهر ملك الهند، وقيصر ملك الروم، وكسرى أبرويز:
وهو دُكَّانٌ من حجارة مربع قد هندموه وسَمَّرُوهُ بمسامير الحديد حتى لا يتبيّن
فيه خرق بين حجرين ويتوهّم من رآه أنه قطعة واحدة، وأنشد لأحمد بن محمّد
فيه:

بَيْنَ الْقَنَاطِرِ وَالِدُكَّانِ أَبْنِيَّةُ فَاقَتْ عَلَى كُلِّ آثَارٍ وَبُنْيَانِ
دُكَّانُ صَخْرٍ عَلَى نَلِّ بَنُوهُ فَمَا نَذَرِي لِجَنِّ بَنُوهُ أَمْ لِلْإِنْسَانِ
لَأَتَمَّ صَخْرَةً مَلَسًا مُلَمَلَمَةً عَجِيبَةُ الشَّانِ فِيهَا كُلُّ أَلْوَانِ
قَدْ هَنَدُسُوهُ فَأَوْقُوهُ عَلَى عَمَدٍ وَهَنَدُسُوهُ فَمَا يَخْفَى عَلَى جَانِ
قَالُوا يَا بَنَاءَ مَلُوكِ الْأَرْضِ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ عِنْدَ أَبْرُويزِ بْنِ سَاسَانِ

وبقصر اللصوص، بناءً عجيب وأساطين محكمة.

القول في همدان

قال الكلبي: سميت همدان بهمدان بن الفلوج بن سام بن نوح وهمدان وأصبهان أخوان؛ أحدهما بني همدان، والآخر أصبهان.

وذكر لي بعض الفرس: أن همدان مقلوبة إنما هي ناذمة، ومعناها أنها المحبوبة وروى عن شُعْبَةَ أنه قال: الجبال عسكر، وهمدان مَعْمَعَتُهَا، وهي أعذبها ماءً وأطيبها هواءً، وقال ربيعة بن عثمان: كان فتح همدان في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب، وكان أميرها المغيرة بن شعبة في سنة ٢٤ من الهجرة وفي خبر آخر قال: وجه المغيرة بن شعبة وهو عامل عمر على الكوفة بعد عزل عمار بن ياسر جرير بن عبد الله البجلي إلى همدان، وذلك في سنة ٢٣ فقاتله أهلها فأصيبت عينه بسهم فقال: أحسبها عند الله الذي زين بها وجهي ونور لي ما شاء، ثم سلبنيها في سبيله.

ثم إنه فتح همدان على مثل صلح نهاوند، وكان ذلك في آخر سنة ٢٣، وغلب على أرضها فأخذها قسرًا، وقال بعض علماء الفرس: كانت همدان أكبر مدينة بالجبل وكانت أربعة فراسخ في مثلها، فيقال: إن بختنصر لما غلب على الأرض وأخرب بيت المقدس، وانصرف إلى بابل، وجّه إلى همدان قائداً يقال له: صُقلاب في خمسمائة ألف رجل فأناخ عليها وبقي يحارب أهلها فلم يقدر عليها فلما أعيته الحيلة فيها وعزم على الانصراف كتب إلى بختنصر: أما بعد فإني قدمت على مدينة حصينة كثيرة الأهل واسعة الأقطار حصينة منيعة، واسعة الأنهار، وقد رمت فتحها فلم أقدر عليها، وقد ضجر أصحابي بالمقام، وضائق عليهم الميرة، فلما ورد الكتاب على بختنصر كتب إليه:

أما بعد، فقد فهمت كتابك وما وصفت فيه من حال المدينة، وقد رأيت أن تصور لي المدينة بجبالها وعيونها وطرقها وقراها، ومنع مياهاها، وتنفذها إلي

حتى يأتيك أمري في ذلك إن شاء الله.

فلما ورد الكتاب امتثل ما أمره، ووجه إليه بالصورة، فلما وصلت إليه جمع الحكماء، فقال: احتالوا في فتح هذه فأجمعوا كلهم أن تُسدَّ عيونها حولًا كاملاً ثم يفتح السدُّ، ويرسل الماء على المدينة حتى تغرق، فكتب بختنصر إلى صُقلاب بذلك ففعل فلما كان عند تجرُّم الحول فتح الماء، وأرسله على المدينة فغرق الماء أكثر المدينة ودخلها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأقام بها، فوقع فيها وفي أصحابه الوباء فمات عامة من كان معه حتى لم يبق معه إلا النفر اليسير، ودُفِنوا في أحواض من خَزَف فقبورهم تبين إلى الساعة في السكك والمحال.

فلم تزل همدان خرابًا حتى كان حرب دارا بن دارا والإسكندر فلما همَّ بمحاربته استشار أصحابه، فأشاروا عليه أن يحرز أمواله وخزائنه بـجبال بـوراء أرض الماهين شبيهة بالسد وقالوا: هناك رسم مدينة عظيمة قد خربت، وباد أهلها يقال لها: همدان فالرأى للملك أن يبعث إلى ذلك المكان، ويأمر ببناء المدينة، ويبنى في وسطها حصنًا؛ يكون لحُرَم الملك وعياله وخزائنه، ويبنى حول الحصن دورًا لعيال قواده خاصته ومرازبته، ثم يوكل الملك بالمدينة اثني عشر ألف رجل يحمونها، ويقاتلون عنها إن رام ذلك أحد.

فأمر الملك ببناء همدان وبنى في وسطها قصرًا عظيمًا مشرفًا له ثلاثة أوجه، وسمّاه ساروقًا، واستعجلوا الفعلة في بنائها وصيّروا في القصر ثلاثمائة نخبة لخزائنه وأمواله وعلّق عليها ثمانية أبواب حديد مصراعين كل مصراع في ارتفاع اثني عشر ذراعًا، ثم حوّل أمواله وخزائنه وعياله إلى المدينة، فأسكنوها وأسكن خاصّة حُرَمه القصر الذي سمّاه الساروق، وأحرز أمواله وخزائنه في تلك المخبات، ووكل بالمدينة اثني عشر ألف رجل وجعلهم حراسًا عليها.

وذكر بعض الرواة أن همدان أعتق مدينة بالجليل، وأن سليمان بن داود النبي ﷺ مرَّ بطاق من طيقانها، وهو إلى الساعة مبني، فرأى غراباً قد سقط على الطاق فكان فيما زعموا يعيش الغراب ألف سنة، فقال له سليمان: مذكم أنت ههنا؟ فقال: أخبرني أبي عن جدي أنه جاء إلى هذا المكان، وهذا الطاق مبني، قال: وأنت إذا تفقدت طين المدينة في البناء وجدته مختلفاً من بين أحمر، وأبيض، وأسود، وغير ذلك؛ لأن دارا بن دارا وظَّف على أهل البلدان نقل الطين لبناء المدينة.

حديث المياه ومدح الماء البارد

وقال جعفر بن محمد: إن بأروند عين من عيون الجنة، وأروند: جبل همدان والناس يزعمون أن الحمة التي على القلة هي التي قالوا: إنها من عيون الجنة، وذلك أنه يخرج ماؤها في وقت معلوم من أوقات السنة، يخرج من شق صخرة وهو ماء عذب طيب شديد البرودة خفيف، يشرب الرجل منه في اليوم واللييلة مائة رطل أقل وأكثر لا يروى منه، ولا يضره كثرة شربه بل ينفعه ذلك، ثم ينقطع ذلك الماء إذا ذهب أوانه ووقته إلى قابل من ذلك الوقت.

وأنشد لمحمد بن بشار يذكر طيب ماء أروند وعذوبته في طويلة له:
ولقد أقول ترفعني فتيامتي لتواصلني ديمًا على همدان
بلد تبات الزعفران ترأبه وشراؤه غسل بماء قنان

والماء البارد مزاج الروح، وصفاء النفس وقوام الأبدان من الناس والحيوان بمجانسته لها ومغازلته إياها، ومن فضيلته أن كل شراب وإن رق وصفًا وعذب وحلا فليس بعوض منه، ولا مغن عنه؛ بل يطيب بمزاجه ويعذب بمخالطته حتى يجري في العروق بلطاقته، وينساب في المفاصل برقته مع خاصته في ري الظما، وإطفائه ضرام نار الحشا، ولولاه ما عرف فضل البستان على الجنان، ولكان وغيره سيان، ولقد جعلته العرب مثلًا لها قال القطامي:

فهن يبنذن من قول يصن به مواقع الماء من ذي الغلة الصاد

وقال آخر:

أماي من سغدى عدات كأنها سقتك بها سغدى على ظمأ برذا

وكان الموفق بالله لما خرج إلى ناحية الجبل، حمل معه من ماء دجلة ألف حميسية، فوصف له ماء همدان، فلما وافاها شربها فاستطابها فترك ماء دجلة،

وجعل يشرب من ماء همدان، ومدَّ الشعبي يده وهو على مائدة قُتِيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يَدْر صاحبه أشرابَ اللبن، أم العسل، أم الماء، لم بعض الأشرية؟ فقال: أي الأشرية تريد؟ فقال أعزها مفقودًا، وأهونها موجدًا، فسقاه الماء.

كان أبو العتاهية عند بعض الملوك إذ شرب منهم رجل ماء فقال:

بَرْدُ الْمَاءِ وَطَابُ

فقال أبو العتاهية:

حَبُّ الْمَاءِ شَرَابُ

وقال الله عز وجل في تفخيم الماء، وتعظيمه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال: عن الماء البارد وقال عز وجل: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] ﴿وَاللَّهُ لَاقِحُ كُلِّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥] وقال ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ويقال: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خلق من ماء، والنطفة تسمى ماء، والماء يسمى نطفة، وقال الله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَغْنَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ١١]. وفي بعض الخبر قال: من كان به مرض فليأخذ درهمًا حلالًا فليشتري به عسلًا، ثم ليشر به بماء سماء، فإنه يبرأ بإذن الله.

وقال عدي بن زيد:

لَوْ بَغِرَ الْمَاءُ خَلَقِي شَرْقٌ كُنْتُ كَالْفَصَّانِ بِالْمَاءِ اغْتَصَارِي

وحين اجتهدوا في تسمية المرأة بالجمال والصفاء، والرقعة والبياض، قالوا: ابنة ماء السماء والمنذر بن ماء السماء، ويقال له: طلاوة وماء، وفلان ليس في وجهه ماء ووجهي بمائه قال الشاعر:

مَاءُ الْحَيَاءِ يَجْوِلُ فِي وَجَنَاتِهِ

والماء يُشْرَبُ صرفاً وممزوجاً، والأشربة لا تشرب صرفاً، ولا يُنتفع بها إلا بممازجة الماء وهو بعدُ ظهور الأبدان، وغسول الأدران. وقال النبي -عليه السلام- : «الماء لا يتجسه شيء»، ومن الماء يكون الجليد والثلج والبرْدُ، وهو يُجْمَعُ إلى برده وعذوبته كَرَمٌ في البياض، وحسنٌ في المنظر ولطف الموقع من النفس.

ومن فضل الجبل على العراق أنك لو قلت لمريض نافه ببغداد، أو بناحية الكوفة والبصرة: ما تشتهي لقال: أشتهى شربة ماء بارد، أو قطعة ثلج أو جليد، وقد أقسموا بالماء. قال الشاعر:

غَضِبِي فَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَشْرَبُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى

ومن الماء رَمَزٌ وهو شفاء للأدواء.

وبهَمَذَانِ حَمَاتٌ كثيرة نافعة من الأدوية الغليظة مثل النقرس والرياح المُرْمَنَة وغير ذلك من الأدوية الغليظة، فينفعها ذلك منها ماء حَمَّةٍ أروند وماء لوندان وحَمَّةٍ دارفين وحَمَّةٍ دارنبهان وماء آست وعبد الله أباذ وماء يزين وماء سامير وغير ذلك.

وقيل: أحسن الأشياء صفوهاء وعذوبة ماء وخضرة كلاً والماء حياة كل شيء وهو أحد الأركان الأربعة: النار والهواء والماء والأرض، قالوا: وأفضل المياه ماء السماء الذي يؤخذ في ثوب نظيف ثم ما وقع منه على جبل فيجتمع على صخرة، ثم ماء الأنهار العظام ثم الماء المستقع في الصحاري إذا لم يكن عشب فيه ثم ماء القناة ثم ماء الحوض الكبير العمق، ثم ماء العيون وما كان مجراه على الصخور، وقال تياذوس: الماء حياة كل شيء وهلاك كل شيء وغضارة كل شيء وكاسف بال كل شيء؛ فأما قوله حياة كل شيء فبه يحيا الإنسان الذي لم يخلق الله أشرف صيغة منه والحيوان والنبات والشجر وكل مأكول من الثمر وغيره وهو غضارة هذه الأشياء ونضرتها، وأما كسوف بال كل شيء فإذا عدم الماء وأما هلاك كل شيء فإن الغرق منه وكثرة شربه تورث الأدوية كما أن الاقتصاد فيه يذهب كل داء، وأنشد لأبي

صالح الحداء في طويلة له كتب بها إلى ابنه وهو غائب يذكره طيب هواء همدان وحسنها ونزهتها ويصف له عذوبة مائها ويشوقه إليها:

فأرحل إلينا رحلة تنجلي منّا غيّايات لمخزون
فقد هدّت سورة أيامنا وانسلخت أيام تشرين
وجاءنا الشهر الذي صدّت فيه عفاريت الشياطين
وطاب للسايرين وجه السرى في جادة الرّيّ وقزون
والدهر في تقويم ساعاته كدرهم أبيض موزون
هذا وبنّت الكرم قد أكلت عدّها في القار والطسين
عذراء من خايبة أبرزت تخطب من خدر الدهاقين
قوم تراهم فترى أنهم تجار عطبر في الدكاكين
والطير قد حنت إلى عشها بكل ألوان التزايين
قد أقبلت واردة أرضنا يقدّمها سرب الشفانين
من بعد أن أفحمها عجمة غنّت بلخن غير ملحون
ترنمت في الجوقمريها تترى بزجيجع الوراشرين
والورق من ذكبر فواخيتها تسفدها خضر الوراشرين
تبكي على قرّة ألافها شجوا بدمع غير مهتون
وقد بدا أرند يئدى لنا مبن سفحه وجه التحاسين
ترنّت غرّة إقباله بوشيه أحسن تزين
وحسرت منه رءوس الربا عن ناضر أخضر مشحون
والقبيح من حافاته أردفت فراحها خوف الشواهين
وللمهّاء سرب إذا أقبلت من فجه كالخرد العين
والشاء تحذو تحو جلائها متعبّة خوف السراحين
والماء يجري من مئون الصفا على الخزامى والرياحين
تسّمها عند هبوب الصبا أطيب من نفحة نشرين

والله يَسْقِي الرِّيَّ عَيْنًا بِهِ
 إِنَّ لَهُمْ مِنْ قَرْطِ شُكْرِي بِمَا
 أَجَرَ الْأُلَى صَانُوا إِمَامَ الْهُدَى
 فَهَاكِهِمَا مَكْنُونَةٌ صُفْتُهَا
 أَبْكَارُ أَلْفَاظٍ وَمَا بِكَرُّ مَا
 تَمَّتْ ثَمَانِيْنَ وَتَارِيخُهَا
 مَنْ كَانَ مِنْ سُكَّانِ رَايَيْنِ
 صَانُوكَ أَجْرًا غَيْرَ مُمْتَنُونِ
 أَغْنِي عَالِيَا يَوْمَ صَفِينِ
 حَلِيًّا لِعَرْضِ لِسْكَ مَكْنُونِ
 يُهْدِي مِنَ الْأَلْفَاظِ كَالْعُونِ
 فِي سَنَةِ الْإِحْدَى وَسَبْعِينَ

وقالوا: كُلُّ جَبَلٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْقَلِيلَ فَمَاؤُهُ مِنْ أَسْفَلِهِ وَمَنْابِعُهُ مِنْ سَفْوَحِهِ
 إِلَّا أَرُونْدَ فَإِنَّ مَاءَهُ مِنْ أَعْلَاهُ وَمَنْابِعُهُ فِي ذُرْوَتِهِ وَأَنْشُدُ:

تَذَكَّرْتُ أَرُونْدًا وَطِيبَ نَسِيمِهِ
 سَقَى اللَّهُ أَرُونْدًا وَمَنْ فِي جَوَارِهِ
 وَأَيَّامِنَا إِذْ نَحْنُ فِي الدَّهْرِ جِيرَةٌ
 فَقُلْتُ بِقَلْبٍ لِلْفِرَاقِ سَلِيمِ
 وَمَنْ حَلَّهْ مَنْ ظَاعِنٍ وَمَقِيمِ
 نَطُوفُ بَرْبَعٍ لِلْوَصَالِ قَدِيمِ

وقال آخر:

سَقِيًّا لِأَرُونْدَ مَا أَهْنَا الْمَصِيفَ بِهِ
 وَثَرِيَّةً كَسَحِيقِ الْمَسْكَ نَكْهَتُهَا
 ظِلٌّ ظَلِيلٌ وَمَاءٌ يَنْفَعُ الْكَبِدَا
 وَجِيرَةٌ كَبُحُورٍ تَقْذِفُ الزَّبِدَا

وقال آخر:

قَالُوا تَرَى النِّيلَ فِي مِصْرَ فَتَأْلَفُهُ
 فَقُلْتُ أَحْسَنُ مِنْ نِيلٍ بِمِصْرَ كُمْ
 فِي جَانِبِيهِ رِيَاضُ الزَّهْرِ زِينُهَا
 تَرَى الْخِزَامِيَّ يَنْأَغِي الْأَقْحَوَانَ بِهَا
 إِذَا تَرَامَى عَلَى آذْيِهِ الزَّبْدُ
 مَاءُ الْعَيُونِ عَلَى الرِّضَارِضِ يَطْرُدُ
 نَسِيمُ نَوَارِهَا وَالطَّائِرُ الْغَرْدُ
 عِنْدَ الْغُدُوِّ كَمَا نَأْغِي أَبَا وَلَدُ

وَأَنْشُدُ لَوْهَبِ الْهَمْدَانِي:

أَلْقَى الرَّبِيعُ عَلَى أَرُونْدَنَا خَلْعًا
 كَسَاهُ ثَوْبًا كَثِيرَ الْوُشَى زِينَةً
 خَضْرَاءَ وَخَلَعْتَهُ الْبَيْضَاءَ قَدْ نَزَعَا
 حَدَائِقُ نَصَّعُ مِنْ فَاقِعٍ لَمَعَا

مُلاءةً نَسَجَتْهَا دِيَمَةً فَلَهَا
 لَهَا رَقَائِقُ حَسَنٌ لَيْسَ يَفْهَمُهَا
 صَفَرٌ وَخَضَرٌ وَحُمْرٌ لَيْسَ يَشْبِهُهُ ذَا
 لِلْهَاءِ فِيهِ خَرِيرٌ رَجَعُ نَعْمَتِهِ
 تَرَى حَدَائِقَهَا كَالْبَيْضِ لَامِعَةٍ
 إِذَا بَكَتْ مَزْنَةٌ مِنْ فَوْقِهَا ضَحَكَتْ
 فَلَوْ رَأَيْتَ إِذَا مَا الشَّمْسُ صَبَّحَهَا
 طَوْدًا مَنِيْفًا عَلَيْهِ شَمْلَةٌ نَسَجَتْ
 إِذَا الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَرَّ أَذْيَلَهُ
 فَاَنْظُرْ إِلَى بَطْنِ أَرْوَنْدٍ الْبَهِيِّ تَرَى
 وَاسْمِعْ إِذَا قَرَقَرَتْ قَمْرِيَّةٌ طَرَبًا
 وَالثَّاغِيَاتُ بِهَا تَدْعُو هُوَ الْعَهَا
 مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي دُرَّا أَرْوَنْدٍ مَعْتَكِفًا

وَأُنْشِدْ آخَرَ لَغَيْرِهِ:

أَوْدَى الشِّتَاءُ وَهَاجَ كُلُّ مَغْرَدٍ
 عَكَفَتْ عَلَى أَرْوَنْدٍ غَيْرِ سَحَابَةٍ
 تَبْكِي بِمَدْمَعِهَا وَيَضْحَكُ ثَغْرِهَا
 هَمَلَتْ بِمَا حَمَلَتْ فَأَلْبَسَتْ الثَّرَى
 مِنْ كُلِّ أَخْضَرٍ كَالْحَرِيرِ وَفَاقِعٍ
 شَمَلَتْ عَصَابَةً نَوْرَهُ لَمْ الثَّرَى
 صَارَتْ عَيُونٌ لِلثَّرَى لَمَّا بَكَتْ
 وَكَأَنَّهَا قَمَرٌ وَقَدْ طَلَعَتْ
 حُسْنَتْ فَحَسَنَتْ الثَّرَى بِمَحَارِسِنَ

بَدَائِعُ جَمَّةٌ قَدْ فَاقَتْ الْبَدْعَا
 مَاذَا جَوَاهِرُهَا إِلَّا الَّذِي صَنَعَا
 هَذَا وَلَا ذَاكَ هَذَا عِنْدَمَا طَلَعَا
 فِي الرُّوضِ تَرْجِعُ نَشْوَانٍ إِذَا سَجَعَا
 بَيْنَ الْأَفَاحِي فُضَاءً فِي الرِّيَاضِ مَعَا
 شَقَائِقُ أُخْرِجَتْ مِنْ بَطْنِهَا خَلَعَا
 رَأَيْتَ مَا لَمْ يَرِ خَلَقٌ وَلَا سَمِعَا
 خَضِرَاءَ فَارْتَفَعَتْ فِيهِ كَمَا ارْتَفَعَا
 حَسْبَتْهُ سَوْقُ عَطْرِ بَيْنَهَا وَضَعَا
 أَبَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَرْدَوْسِ قَدْ شُرِعَا
 وَهَاجَ وَرْشَانُهُ فِي سَفْحِهِ وَدَعَا
 فَكُلْ ثَاغِيَةً قَدْ أَرْقَدَتْ هَلَعَا
 فَذَاكَ عَنْ صَحْبَةِ اللَّذَاتِ قَدْ خَدَعَا

وَبَدَتْ مَعَالِمُ لِلرَّيْسِ الْأَحْمَدِ
 سُودَاءُ مَظْلَمَةٌ كُلُّونَ الْإِثْمِ
 عَنْ سَاطِعِ كَالْكُوكَبِ الْمُتَوَقِّدِ
 مَنْ نَسَجَهَا حُلًّا وَإِنْ لَمْ تَعْقِدِ
 نَضْرَ وَأَحْمَرُ سَاطِعٌ مُتَوَقِّدِ
 فَتَعَمَّمَتْ مِنْهَا هَضَابُ الْفَذَقِ
 فِيهَا السَّحَابُ بِأَعْيُنٍ لَمْ تَجْمُدِ
 شَمْسُ الضُّحَى مِنْ جَوْهَرٍ مُتَبَدِّدِ
 حَسَرَتْ مَسَاوِيَ الشِّتَاءِ الْإِنْكَدِ

شربت من الوسمى أول صوبه ومن الزلال البارد المتطرد
وكأنها لبس البقاع معصفراً منها ووشح صدره بمورّد
نفت الصبا عنه القذى بنسيمها فكانه لمعان متن مهند

وقالوا: شتاء بغداد وريبع الري وخريف همذان ومصيف أصبهان،
وقالت الحكماء: أحسن الأرض مخلوقة الرّيّ ولها الشّرّ والسربان، وأحسنها
مصنوعة جرجان، وأحسنها مفروقة طبرستان، وأحسنها مستخرجة نيسابور
وأحسن الأرض قديمة وحديثة جندي سابور ولها حسن الآبان، ومرو ولها
الرزق والماجان، والغوطة ولها الزاريان ونصييين ولها الهرماس والصيمرة ولها
الحصنان، والبصرة ولها النهروان، وبفارس شعب بوان، ومستشرف شهرزور
وباقرحي ولها من ههنا بستان ومن ههنا بستان، ونهر في الميان، والمدائن
والسوس وتستر وهي بين أربعة أودية؛ دجيل، والمسرغان، وماهينان،
ونروبان، وبلخ، ونهاوند، وأصبهان، وإقبال همذان.

مجاراة عبد القاهر والحسين بن أبي سرح
في مدح همدان والعراق وذمهما

وكان عبد القاهر بن حمزة الواسطي والحسين بن أبي سرح كثيرًا ما يلتقيان عند محمد بن إسحاق يتجاربان الآداب، ويتذاكران العلوم والأسباب، وكان ابن أبي سرح يذمُّ العراق، وكان عبد القاهر يذمُّ الجبل ويمدح العراق؛ فالتقيا يومًا في شتاء في يوم شات صادق البرد؛ فلما دخل الواسطي وسلَّم قال: لعن الله الجبل، ولعن سكانيه، وخصَّ الله همدان منها بأوفر اللعن فما أكدر هواءها، وأشدَّ بردها، وأكثر مؤنتها، وأقلَّ خيرها قد سلَّط الله عليها الزمهرير الذي يعذب الله به أهل جهنَّم مع ما يحتاج فيها من المؤن المجحفة من الدثار الكثيرة، والخطب الجزل وغيره فوجوهكم يأهل همدان متشقة، وأنوفكم سائلة، وأطرافكم خضرة، وثيابكم متسخة، وروائحكم قذرة، وثيابكم متقطعة، والفقر في طلبكم أظهر، والستر عندكم أهتك؛ لأن الشتاء يهدم الحيطان، ويبرز الحصان، ويفسد الطرق، ويشعث الآطام، ويخرب الديار، ويجعل الأرض وحلة طفسة قذرة تتهافت فيها الدواب، وتقذر فيها الثياب، وتحطم الإبل، والحمير، ولا تطهر فيه الصلوات، وتنخسف فيه الآبار، وتوكف فيه السطوح، وتهيج فيه الرياح العواصف، وتكون فيه الزلازل، والخسوف، والرعد، والبروق، والدمق، والثلوج، ويكثر فيه المدود، والسيول، والناس فيه في جبل أنفسهم يتوقعون العذاب، ويخافون السخطة والعقاب وهم مع ذلك يسمونه العدو الحاضر والكَلْب الكَلْب؛ ولذلك كتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله أنه قد أظلمكم الشتاء وهو العدو الحاضر؛ فأعدوا له الفراء والخفاف المنعلة، ثم فيكم أخلاق الفرس وجفاء العلوج وبُخل أهل أصبهان ورقاعة أهل الري وفدامة أهل نهاوند وغلظ طبع أهل همدان على أن بلدكم هذا أشدُّ البلدان بردًا وأكثرها ثلجًا وأضيقتها طرقًا وأوعرها مسلکًا وأغلظها مؤنة، ولذلك قالوا: أبرد البلدان ثلاثة؛ همدان وقاليقلا وخوارزم وقد روى

ثقاتكم عن عبد الله بن المبارك أنه لما قدم همدان جعل توقد بين يديه النار؛ فكان إذا سخن باطن يده أصاب ظاهرها البرد وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد؛ فأنشأ يقول:

أقول لها ونحن على صلاء أما للناء عندك حرٌّ نارٍ
لئن خُيِّرْتُ في البلدان يوماً لما همدان عندي بالخيار

ثم التفت إلى ابن أبي سرح وقال يا أبا عبد الله وهذا والدك الذي يقول:
النار في همدان يبردُ حرُّها والبردُ في همدان داءٌ مُسَقِّمٌ
والفقر يُكْتَمُ في بلاد غيرها والفقر في همدان ما لا يكتُم
قد قال كسرى حين أبصر بلدكم همدان فانصرفوا فتلک جهنم

والدليل على هذا أن الأكاسرة كانت لا تدخل همدان؛ لأن بناءهم متصل من المدائن إلى آرميذدخت من أسداباذ ولم يجوزوا عقبة أسداباذ، وأن كسرى أبرويز همَّ بأن يدخلها؛ فلما بلغ موضعاً يقال له دوزخ در ومعناه بالعربية باب جهنم أو كهف جهنم قال: انطلقوا فلا حاجة لنا في دخول مدينة فيها ذكر جهنم، وقال شاعركم وهو وهب الهمداني:

أما أن من همدان الرّحيل من البلدة الجذبة الجامدة
فما في البلاد ولا أهلها من الخير من خصلة واحدة
يشيبُ الشباب ولم يهرموا بها من ضبايتها الراكدة
سألتهم أين أقصى الشتاء ومستقبل السنة الساردة
فقالوا إلى جمرة المنتهى فقد سقطت جمرة جامدة

وقال أيضاً وهب:

يوم من الزمهرير مقروور عليه جيب الصّبا مَزُور
كانها حشو جوه إبر وأرضه وجهها قوارير
وشمسُه حُرَّةٌ مخدرة تسلبت حين حمّ مقدور

تُخَالُّ بِالْوَجْهِ مِنْ ضَبَابَتِهَا إِذْ أَخَذَتْ جِلْدَهُ زَنَايِرُ
تَرَى الْبَصِيرَ الْحَدِيدَ نَظَرْتُهُ فِيهَا لِأَجْفَانِهِ سَمَادِيرُ

وسأل عمر بن الخطاب رجلاً فقال: من أين أنت؟ قال: من الجبل، قال:
من أية مدينة؟ قال: من همدان، فقال: إنها مدينة همٌّ وأذى يجمد قلوب أهلها
كما يجمد ماؤها.

وسُئِلَ أَعْرَابِي كَانَ دَخَلَ هَمْدَانَ عَنْهَا فَقَالَ: أَمَّا نَهَارُهَا فَرَقَاصُ، وَأَمَّا لَيْلُهُمْ
فَحِمَالُ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَرْقِصُونَ بِالنَّهَارِ لِحَصْرِ أَطْرَافِهِمْ، وَبِاللَّيْلِ يَتَدَثَّرُونَ وَيَحْمِلُونَ
الثِّيَابَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ عُلَمَائِكُمْ وَمَشَائِكُمْ يَقُولُونَ: يَرْبِحُ أَهْلُ هَمْدَانَ إِذَا
كَانَ يَوْمُ شَمْسٍ فِي الشِّتَاءِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْوَقُودِ؛
وَقِيلَ لِابْنَةِ الْحُسَّيْنِ أَشَدُّ الشِّتَاءِ أَمْ الصَّيْفُ؟ فَقَالَتْ مَنْ يَجْعَلُ الْأَذَى
كَالزَّمَانَةِ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِي مَا غَايَةُ الْبَرْدِ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: إِذَا كَانَتِ السَّمَاءُ نَقِيَّةً
وَالْأَرْضُ نَدِيَّةً وَالرِّيحُ شَامِيَّةً فَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِ الْبَلِيَّةِ، وَأَنْتُمْ تَرَوُونَ فِي الْخَبْرِ
هَمْدَانَ تَحْرَبُ لِقَلَّةِ الْحَطَبِ.

ودخل بعض الأعراب همدان؛ فلما رأى هواءكم وسمع كلامكم ذكر
بلاده وأنشأ يقول:

وَكَيْفَ أُجِيبُ دَاعِيَكُمْ وَدُونِي جِبَالُ الثَّلَاجِ مُشْرِقَةُ الرِّعَانِ
بِلَادُ شَكْلُهَا مِنْ غَيْرِ شَكْلِي وَأَلْسُنُهَا مُخَالِفَةُ لِسَانِي
وَأَسْمَاءُ النِّسَاءِ بِهَا زَنَانٌ وَأَقْرَبُ بِالزَّنَانِ مِنَ الزَّوَانِي

ودخل بعض الأعراب الجبل في الشتاء فجعل أنفه يَرَعُمُ فَرَفَعُ يده ووجاه
فقال: لا والذي جل وعلا ما رأيت عضواً أنتن منك إذا جمد كل شيء فأنت
تذوب وإذا ذاب كل شيء فأنت تجمد أُنَيْتَ إِلَّا خِلَافاً.

وقال شاعركم وهو أحمد بن بشار في ذم همدان وشدة بردها وغلظ طبائع

أهلها وما يحتاجون فيها من المؤن المجحفة الغليظة:

قد آن من ههذان السير فأنطلق
بئس اعتياض الفتى أرض الجبال له
أما الملوك فقد أودت سراتهم
فلا مقام على عيش ترنقه
قد كنت أذكر شيئاً من محاسنها
فاليوم لا بد من نعتي مساويها
لا خير فيها ولا في أن تقيم بها
أرض يعذب أهلها ثمانية
ثلثي حياتك ما تنها بنافعة
فإن رضيت بثلث العيش فارض به
إذا ذوى البقل هاجت في بلادهم
أما الغني فمحصور يكابدها
يقول أطبق وأسبل يا غلام فقد
وأوقدوا في تنانير تذكرهم
والمملقون بها سبحان ربهم
تسد أبوابهم بالثلج فهو لهم
والأرض تصبح والدنيا لها طبق
حتى إذا استحكمت برداً غدا طبق
ينهل منها عليهم دائباً ديماً
فويل من كان في حيطانه قصر
يدعو الثبور على صبيانه فرقاً
أما الصلاة فودعها سوى طلل
تُسي وتصبح والشيطان في قرن
وارحل على شعث شمل غير متفقي
من العراق وباب الرزق لم يضق
والغابرون بها في شيمة السوق
أيدي الخُطوب وكيف والعيش ذو
أيام لي قنن كاس من الوري
كيا يغص بها الثاوي على شري
ولو تقلبت بين التبر والوري
من الشهور كما عذبت بالدهق
إلا كما انتفع المجروض بالرمق
على شرائط من يقنع بها يمي
برد وغلقت الأبواب بالغلق
طول الشتاء مع اليربوع في نفق
خشيت أجند من برد ومن دمق
نار الجحيم بها من يصل يحترق
ما إذ يقاسون طول الليل من أرق
دون الرتاج رتاج غير منطبق
تحار فيه عيون الناس في الطرق
من الضباب فقد أوفى على طبق
بالزمهرير عذاباً صُب من أفق
ولم يُخصن رتاج الباب بالغلق
بعد العشاء ويدعوه من الفرق
أقوى وأفقر من سلمى بذى العمق
مستمسكاً من جبال الكفر بالربق

والماء كالملح والأنهار جامدة	والأرض أضر أسها تلقاك في دمي
حتى كأن قرون العفر نابذة	تحت المواطئ والأقدام في الطرق
والناس بيض اللحى تهمني أنوفهم	فوق الشوارب كالمصدوم ذي البلق
تسعين يومًا وعشرًا أكملت مائة	يدعون ليلة ثمت ليلة السدق
كانهم عسكرٌ هاج الحريق بهم	فهم يموجون والضوضاء في فرق
كانهم حين أفضوا في ثيابهم	خلف الغراييل أوهامًا من الخرق
فما ترى بعدها يلقون من عذب	من الوحول التي طمت على اللثق
والمشي شهرين بالميزان قد زهقت	نفوسهم فرقًا من خشية الزلق

في طويلة له، فلما بلغ عبد القاهر هذا المكان التفت إليه ابن أبي سرح فقال: قد أكثرت المقال، وأسرفت في الدم، وأطلت الثلب، وطولت الخطبة، ولولا ما جريت إليه من سوء المقال، وكثرة الهذيان؛ لكننا عن مجاوبتك بمعزل، وعن محاورتك في شغل فهمها كان فينا يا أبا علي - أكرمك الله - وفي هوائنا، وأرضنا، وبلدنا، وصقعنا فليس فينا جفاء النبط، وعجرفة أهل السواد، وأخلاق الخوز، وغدر أهل الكوفة، ودقة نظر أهل البصرة، وبخل أهل الأهواز، وسوء معاشر أهل بغداد، وجفاء أهل الجزيرة، وغلظ طبع أهل الشام، وجهلهم، وأهل الجبل قد سلموا من شدة حر البصرة، ومن وبائها ومن كثرة براغيث بغداد وذبانها، ومن نز البطائح، وتغير هواء مصر وثعابينها، ومن جرارات الأهواز وسائمها، ومن عقارب نصيين وأفاعي سجستان، وهل الخصب والخير، والنعمة، والدعة، والأكل، والشرب إلا عندنا في الشتاء الذي تغيب فيه الهوام وتنجحر الحشرات، ويموت فيه الذباب، ويهلك فيه البعوض، ويبرد فيه الماء، ويسخن الجو، ويطيب فيه العناق، ويظهر فيه الفرش، والكسوة، والنعمة، والملوكية، والسرو، والمروة، وإذا سبرت الأقاليم صقعا صقعا، وبلدا بلدا، وكورة كورة؛ علمت أنه لا يخلو بلد من البلدان، ولا إقليم من الأقاليم في شرق الأرض ولا غربها، وبرها وبحرها، وسهلها وجبلها من

حرّ أو برد أربعة أشهر؛ ولذلك قال أبو دلف:

إني امرؤ كسروى الفعّال أصيفُ الجبال وأشتو العراقا
وألبسُ للحرب أثوابها وأعتقُ السدراعين اعتناقًا

فاختار بفضل رأيه أن يصيف الجبال؛ ليسلم من سائم العراق وذبابه وهوائه وحشراتِه وسخونة مائه وهوائه؛ وكان يشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحه وأندائه ووحوله وأقذاره وقال أبو دلف أيضًا:

ألم ترني حين حال الزمانُ أصيفُ العراق وأشتو الجبالا
سموم المصيف وبردُ الشتاء حنانيك حالًا أزالتك حالًا
فصبرًا على حدث النائبات تأبى الحوادثُ إلا انتقالًا

فإذا صحَّ لك ما قلنا، وتبين لك ما حكينا، ثم ميّزت وتفكرت علمت أن العيش عيشنا، والنعمة نعمتنا؛ لأن البرد أصلح من الحر لأنك إذا أضفت البرد إلى ما يقاسيه أهل عمان وأهل البصرة وسيراف والعراق من أذى السائم القاتلة، وإلى ما يعانونه من الهواء الكدر الغليظ والماء السخن الزعاق وكثرة الذبان والجعلان والخنافس والحيات والعقارب والجرادات والنمل والبعوض والبق والجرجس وذوات السموم القاتلة والحشرات وملوك الجبل لا يعدّون العيش عيشًا ولا النعمة نعمة إلا في أيام الشتاء؛ لأنهم يفرشون من الفرش أسراها، ويلبسون من الثياب أحسنها، وأدفأها ويلبسون الثعالب البيض والسود والفتك والسمور والقاقم والخواصل والوشق والدلق ويفرشون الخز والأرمي والديباج والمرعزي، وغير ذلك من الخز والبز، ولهم المطارم والمطارق والمضارب والأبنية والستارات والسرادقات والقباب التركية وأتواب عدن وثياب نيسابور ومرو وأصبهان والنعمة عندنا في الشتاء أظهر والخير أكثر، ولولا الشتاء وثلجه وبرده وريحه ومطره لما نبت لنا في الصيف زرع، ولا درّ لنا ضرع، ولا أثمر لنا شجر، ولا اخضرّ لنا عود، ولذلك قال

بعض الشعراء:

لولا الشتاء ولولا قُبْحُ مَنْظَرِهِ لما رُؤِيَ من ربيع مَنْظَرٍ حَسَنٍ

والشتاء يستلذُّ فيه المملوكُ شربَ المدام؛ لطول الليل، وقلة الهوام الذي هو صديق النفس، وحياة الأبدان، والسبب إلى الزيادة في الأعمار، وصحة الأجسام وله اتخذت القصور المشيدة، والمجالس المنجدة، والنهارق الممهدة هذا في الشتاء فإذا جاء الربيع فلنا الجنان المتصلة، والرياض الخضرة، والأنوار الحسنة، والأماء المطردة، والأرواح الطيبة، والمواضع النزهة ثم لنا من الأنوار، والزهر والرياض والغدران ما لا يكون في بلادكم، ولا يعرف عندكم حتى لقد جهد ملوككم وكتابكم، وذوو النعمة منكم أن يُنبئوه عندهم في جناتهم ويساتينهم فلم ينبت منها شيءٌ مثل الزعفران، والزرذلال، والجاولال، والكستج، والسحالة، والكركيس، والنستر، والتدير، والسوسن آزاد وغير ذلك من الأنوار الجبلية التي لا تكون إلا في بلادنا، ولنا الرياس خاصة الذي يتداون به، وأنواع الفواكه مما إذا حمل إليكم تتفاخرون به، وتتهادونه كالكمثرى النهاوندي، والصيني، والتفاح الشيري، ولنا أيضًا ما يتخذ من الألبان، ويتمنى عندكم منها.

ولقد سئل جلة كتاب أهل العراق عن همدان فكان يقول: إذا جاءك حنطة أزنأوه وخبز المهروان، ولحم الشرايين فأمسك، وحسبك فضيلة بشيء ينادى على الخبز بالحرمين مكة والمدينة في أيام الموسم، والناس مجتمعون من كل فج عميق: المهرواني، المهرواني.

ولما ميز قُباذ إقليمه وجد أنزه بقاع إقليمه ثلاثة عشر موضعًا: المدائن، والسوس، وجندی سابور، وتستر، وسابور، وأصبهان، والري، وبلخ، وسمرقند، وباورد، وماسبذان، ومهرجانقذق، وتل ماستر بطناً بنهاوند يسمى روذرأور وهي ثلاثة فراسخ فيها ثلاث وتسعون قرية متصلة، وحنان متسقة،

وأنهار مطردة حشيشها الزعفران، وفواكهها العنب، والرمان، والجوز، واللوز، والتفاح، والكمثرى وغير ذلك من أنواع الثمار.

ولقد قال لي بعض الدمشقيين ممن قد جال الآفاق ودار البلدان: دخلتُ غُوطَة دمشق، وأُبْلَة البصرة، وإسكندرية مصر، وصنعاء اليمن، ورأيتُ خورنق الكوفة، وحافتي دجلة والفرات، وبغداد العراق، وشبديز قرماسين، وزرند أصفهان، وجندی سابور الأهواز، وشعب بوان فارس، وسر، وسربان الري، ومستشرف باكرخي، وسابور فارس، ورأيتُ إقبال همذان، وسمرقند الصغد، وبلخ خراسان، والرزيق، والماجان بمرّو فما رأيتُ بلدًا أطيب هواءً، ولا أعذب ماءً، ولا أكثر خيرًا من رودراور، وما ظنُّك ببلد حشيشه الريحان والزعفران، وشرابه العسل والسمنان، وثمره العنب والرمان قال الشاعر:

بلد نبات الزعفران ترابسه وشرابه عسل بماء قنان

فلما بلغ هذا الموضع حضرت الصلاة وقاموا فأنشأ ابن أبي سرح يقول:
إن عادت العقربُ عُدنّا لها وكانت النعلُ لها حاضرة

وقال بعض الشعراء:

وبالقوس لما حلت الشمسُ أظلمتُ	وأطبّقَ أروندٌ على همذانٍ
وهبّتُ رياحُ الزمهرير فأحرقّتُ	بها كلّ ذي جنسٍ من الحيوان
فما إن ترى شيئًا بها غير جامد	مع النّقط والنّقاط والقطران
ترى الناس بين السوق والدور جهّدًا	عدهم عن الترداد والجولان
فطرقهم والدور مطموسة بهم	يزيدهم طمسًا وليس بقاني
ترى الطير في جو السماء معلقًا	من البرد ممنوعًا من الطيران
وتجمد بين الحائطين كلابهم	وكانت تبارى الخيل يوم رهان
وليس يقي من بردها جلد ثعلب	بخوارزم مدبوغ بغير تواني

ولا جُلْدُ سَمُور ولا الفَنَك الذي
 وليس يقيهم منه لَفْحُ جَهَنَّمَ
 أما مَهْرَبًا من ذا العَذَار فقد وَهَتْ
 إلى الكَرَج الحَسَناء دار أميرنا
 مباركة حُقَّتْ بخصب ونعمة
 فأهلُ التَّقَى والبر والفضل أهلها

يوقى به المقرور حرَّ عَمَانِ
 وما لَهُمْ بالزَمْهَرِيرِ يَدَانِ
 عَظَامِي ولا يشعر به القَدَمَانِ
 فنوسعها حمْدًا بكلِّ لِسَانِ
 بيماء عَيَسُون عَذْبَةً وَجَنَانِ
 وليس لَهُم في المَشْرِقَيْنِ مَدَانِ

ذكر حب الأوطان

ولولا أن الله - تعالى وتقدس - جبل هذا العالم على حب الأوطان، ورضي كل حزب منهم ببلده، وحب إليهم تربتهم، وأرضهم لما فضل قائل هذا الشعر الكرج مع ضيقها، وقدرها، وقلة خيرها، وشدة بردها على همدان؛ ولكن الله قد خالف بين طبائع الناس ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأساء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أغذاها، ومن الأمصار إلا أوسطها، ولو كانوا كذلك لتناحروا على الواسطة، وتشاحوا على بلاد الغذاء، وقد قيل في الأمثال: عمر الله البلدان بحب الأوطان، وقال عبد الله بن الزبير: ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنع منهم بأوطانهم، وقال الله - جل وعز -: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]؛ فَفَرَّ النَّاسُ مِنْهُمْ بِالْأُوطَانِ إِلَى الضَّنِّ مِنْهُمْ بِالْأَبْدَانِ.

وزوجت أعرابية في الحضر وأسكنت مصرًا فحنّت إلى البدو فقالت:
لِّلْبُسِّ عِبَاءَةٌ وَتَقَرَّرَ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَيَبْتَ تَخْفَقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفِ

ولذلك قالوا: من لطّف النفس أن تكون إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقّة، وقال آخر: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك إذ كان غذاؤك منها و غذاؤهما منه، وقالوا: أولى البلدان بالحنين إليه بلد شربت ماءه وطعمت غذاءه، وقالوا: أرض الرجل ظئره وداره مهده، وقال أبقراط: فِطْرَةُ الْإِنْسَانِ مَعْجُونَةٌ بِحُبِّ الْوَطَنِ، وَكَانَ أَيْضًا يَقُولُ: يَغْذِي كُلَّ عَلِيلٍ بِأَطْعَمَةِ أَرْضِهِ فَإِنِ النَّفْسُ تَطَّلَعَ إِلَى غِذَائِهَا، وَقَالَ آخَرُ: إِمَارَةُ الْعَاقِلِ إِلْفُهُ لِإِخْوَانِهِ وَحَنِينُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَأَنْشَدَنِي صَدِيقٌ:

كفى حزناً أنى ببغداد نازل وقلبي بأكناف الحجاز رهين
إذا عن ركبٍ للحجاز استفزني إلى مَنْ بأكناف الحجاز حنين

وبالله ما فارقتهم قالوا لهم ولكن ما يُقضى فسوف يكون

قالوا: إن أردت أن تعلم وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه، وهذا الباب إن مررنا فيه طال وكثر وفي بعض ما مر مقنع - إن شاء الله -.

قال: وقبّل عبيد الله بن سليمان في سنة ٢٨٤ هـ من التناثين ببائة وسبعين ألف دينار بالكفاية على ألا مئونة على السلطان، وهي أربعة وعشرون رستاقاً قبل منها اثنا عشر رستاقاً: همدان فراوار وقوهيا باز وأنار مرج وسفسان شرّاه الأعلى شرّاه الميانج الأسفيذجان الأجم الأعلى والفراهان روزه وساوّه وكان منها نساء وسلقانو روذ وخرقان فنقلت إلى قزوین، وهي سبعمائة وخمسة وستون قرية، وعملها من باب الكرج إلى سيسر طولاً وعرضاً من عقبة أسداباذ إلى ساوه.

قال: وسميت سيسر؛ لأنها في انخفاض من الأرض بين رءوس آكام ثلاثين فقيل: ثلاثون رأساً، وكانت سيسر تدعى صدخانية أي: ثلاثون رأساً ومائة عين لكثرة عيونها ومنابعها ولم تزل سيسر وما والاها مراعي لمواشي الأكراد وغيرهم، وإن المهدي أمير المؤمنين بعث إليها مولى له يقال له سليمان بن قيراط صاحب صحراء قيراط بمدينة السلام، وشريك معه يقال له سلام الطففوري، وكان طيفور مولى المنصور فلما كثر الصعاليك والدعار، وانتشروا في الجبل في خلافة المهدي جعلوا هذه الساحة ملجأ لهم فكانوا يقطعون ويأوون إليه فلا يُطلبون؛ لأنها من حد همدان والدينور وأذربيجان فكتب سليمان وشريكه إلى المهدي بذلك، فوجّه إليهما جيشاً عظيماً وكتب إليهما يأمرهما ببناء مدينة يأويان إليها مع أغنامهما ورعاتها ويحصنان فيها الدراب والأغنام ممن خافاه عليها فبنينا مدينة سيسر وحصنّاها وأسكنّاها الناس وضم إليها رستاق ماينمرج من الدينور ورستاق الجوزمة من أذربيجان من كورة برزة

وولاهما عاملاً مفرداً، كان خراجها يؤدَّى إليه ثم إن الصعاليك كثروا في خلافة الرشيد، وشعثوا سيسر، فأمر بينائها وتحصينها ورتَّب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الحارثي السُّغدي وفيها اليوم قوم من أولادهم.

ثم لما كان في آخر أيام الرشيد توجه مُرة بن أبي مرة الرديني العجلي على سيسر، فحاول عثمان الأودي مغالته عليها فلم يقدر عليه وعلى ما كان في يده من أذربيجان، ولم يزل مرة بن أبي مُرة يؤدي الخراج عن سيسر في أيام محمد بن الرشيد على مقاطعة معلومة إلى أن وقعت الفتنة فلما أن استقر الأمر للمأمون أخذت من عاصم بن مرة، وأخرجت من يده فرجعت إلى ضياع الخلافة.

الأسد بهمدان

ومن عجائب همدان الأسد الذي من حجارة على باب المدينة يقال: إنه طلمس للبرّد، وهو من عمل بَلِيناس الرومي صاحب الطلسمات وجّهه قُبَاذ الأكبر لما أراد أن يطلسم آفات بلاده، وكان الفارس من قبل يغرق فيها في الثلج لكثرة ثلوجه فعمل بها الأسد وهي صورة أسد عظيم من حجارة بحذاء أروند جبلها المظل عليها فقلّ ثلجها وبردها ثم عمل عن يمين الأسد طلمسًا للحيات فقلّت، وآخر للعقارب فقلّت، وطلسمًا للغرق فأمنوه وآخر خلفه للبراغيث فقلّت وآخر للصالب فقلّ بها واستهان أهلها بَلِيناس فأتخذ على أروند طلمسًا مشرقًا على أهلها ففيهم الجفاء وطلسمًا بإزاء ساروقها يطوّه الناس فغدروا بملكهم فحولت الأكاسرة أسلحتهم منها وطلسمًا للحرب والعساكر فلا تخلو من عسكر أو حرب، وأنشدني محمد بن أحمد الحاجب لنفسه في الأسد:

ألا أيها الليث الطويل مُقَامُهُ	على نُوب الأيام والحدّثان
أقمت فما تنوي البراح بحيلة	كأنك بواب على همدان
أراك على الأيام تزداد جدة	كأنك منها آخذ بأمان
أَقْبَلَكَ كان الدهر أم كنت قبله؟	فنعلم أم رييتما بلبان؟
وهل أنتما ضدان كل تفردت	به نسبة أم أنتما أخوان؟
فلو كنت ذا نطق جلست محدثًا	فحدثتنا عن أهل كل زمان
ولو كنت ذا روح تطالب مأكلًا	لأنيت أكلًا سائر الحيوان
فلا هرما نخشى ولا الموت تتقي	بمضرب سيف أو شاة سنان
وعما قليل سوف تلحق من مضى	وجسمك أبقي من جرّى وأبان

وأنشدني أبو محمد عبد الله بن محمد بن زنجويه لنفسه يذكر فيها الأسد وكل صورة مشهورة في الأرض:

أُرْقَتَ لِلْبَرْقِ اللَّمُوعِ اللَّامِعِ
 أَمْ شَاقَكَ الطِّيفُ الْمَلْمُومُ بَيْنَهُ
 أَمْ قَدْ ذَهَلْتَ بَلَيْثَ غَابِ رَائِعِ
 مَوْفٍ عَلَى صُمِّ الصُّخُورِ كَأَنَّهُ
 فِي الصَّيْفِ تَحْرِقُهُ السَّمُومُ وَبَعْدَهَا
 وَإِذَا الرِّبَاحُ عَصْفَنَ مِنْ أُرُونَدَنَا
 وَإِذَا الرِّعُودُ تَتَابَعَتْ بِسَحَابَةٍ
 وَإِذَا الرِّبِيْعُ تَتَابَعَتْ أَنْوَاؤُهُ
 أَلْفَيْتَهُ مَتَبَسِّمًا لِنَسِيمِهَا
 لَوْ كَانَ يَفْهَمُ عَنْكَ خَبْرٌ بِالَّذِي
 وَلَقَالَ إِنْ الْمَرْءَ يَنْقُذُهُ التَّقَى
 تَمْضِي الدُّهُورُ وَمَا يَرُومُ فَرِيَسَةً
 شَبْدِيزِ إِذْ هُوَ وَاقِفٌ فِي طَاقِهِ
 مَا إِنْ تَرَاهُ عَلَيْهِ فِي غُلُوَائِهِ
 بَرُوزِ عَنْ شَبْدِيزِ لَيْسَ بِبَارِحِ
 وَكَذَا بَتَدْمَرُ صُورَتَانِ تَعَانَقَا
 لَا يَسَامَانُ مِنَ الْقِيَامِ وَطَالَ مَا
 وَبِأَرْضِ عَادٍ فَارَسٌ يَسْقِيهِمْ
 فَإِذَا انْقَضَى الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَطَفَحَتْ
 وَبِأَرْضِ وَادِي الرَّمْلِ بَيْنَ مَهَامِهِ
 طَرَفِ هِنَالِكَ بِاسْطَ بِيَمِينِهِ
 وَبِفَارَسِ سَابُورٍ صُورٌ عِبْرَةٌ
 خُذْهَا إِلَيْكَ وَقُلْ مَقَالَةٌ عَادِلِ
 قَدْ كُنْتُ قَلْتُ قَصِيدَةً سَوَّغْتُهَا

وَحَمَائِمُ فَوْقَ الْغُصُونِ نَوَائِحِ
 فَظَلَلْتُ تَرَعِي كُلَّ نَجْمٍ لَائِحِ
 مُذْ كَانَ عَنْ هَمَّذَانَ لَيْسَ بِنَازِحِ
 يَبْنِي الْوُثُوبَ عَلَى الْغَزَالِ السَّانِحِ
 بَرْدُ الشِّتَاءِ بِزَمْهَرِيرٍ لَا فِجِحِ
 خَلَّتْ أَهْرِيرُ بِمِثْلِ تَرَسِ الرَّمَاحِ
 لَقِيَ الزَّمَاهِرَ بِالْمَجْنِ الْكَالِحِ
 وَتَبَفَّسَتْ أَنْوَارُهُ بِرَوَائِحِ
 وَمَحْيَا أُرُونَدُ فَعَلَ مَصَافِحِ
 أَفْنَى الدُّهُورِ وَكُلَّ أَمْرِ فَادِحِ
 وَنَجَاتُهُ قَصْدُ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ
 فَعَلَ الطَّمْرُ الْكَسْرُويَّ الْقَارِحِ
 يَعْלוهُ بِرُوزِ بِحُسْنٍ وَاضِحِ
 يَوْمَ الْهَيَاجِ وَلَا الطَّمْرُ بِسَابِحِ
 وَاللَيْثُ عَنْ هَمَّذَانَ لَيْسَ بِبَارِحِ
 فِي الْحُسْنِ أَشْبَهَتَا بَيْتِي ضَارِحِ
 صَبْرًا عَلَى صَرْفِ الزَّمَانِ الْكَادِحِ
 بِالْعَيْنِ عَذْبًا كَالْفِرَاتِ السَّائِحِ
 تِلْكَ الْحَيَاضُ تَجَفُّ عَيْنُ الرَّمَاحِ
 يَلْقَاكَ قَبْلَ الْخُتْفِ نَصِيحُ النَّاصِحِ
 أَنْ لَيْسَ بَعْدِي مَسْلُكٌ لِلْسَّائِحِ
 فَكَأَنَّهُ يُضْغِي لِمَدْحِ الْمَسَادِحِ
 لَيْسَ الضَّنِينُ بِعَلَمِهِ كُمَسَامِحِ
 مِنْ رَابِهَا بِنَجَالِدٍ وَتَكَافُحِ

سَيِّئَةً فَجَعَلْتُهَا حَائِثَةً فِيهَا عَجَائِبُ مِنْ صَحِيحٍ فَاتِحٍ
فَإِذَا أُبَيَّتْ جَعَلْتُهَا ضَادِيَةً مِنْ جَوْهَرِيَّةٍ مَا تُجْنُّ جَوَانِحِي

وقد كان المكتفي بالله هم بحمل الأسد إلى مدينة السلام وكتب إلى حمد بن محمد العامل بها في حمله فاجتمع إليه أهل البلد وقالوا: إن هذا طلسم بلدنا ولا يجوز حمله فكتب إلى الوزير بذلك فكتب إليه الوزير أن قدر ما يحتاج إليه لحمله فإننا نوجه إليك بالفيلة لتحمله على عجل فاستشار حمد بعض الحكماء فقال: ليس يمكن حمله من طريق العقاب لا سيما في الحدود فكتب إليه أن أمسك عن حمله.

وبهمذان صخرة عظيمة بموضع يقال له: تبنابر من دار نبهان في سفح الجبل قد حُفِرَ فيها طاقان مربعان على قائمتين وبسطة من الأرض وقد نُقِرَ في كل طاق كهيئة الألواح ثلاثة طولاً في كل لوح منها عشرون سطراً، وهي كتابة يقال لها: الكشتج فيقال: إن الإسكندر مرَّ بهمذان فرأى هذه الصخرة فأمر بقراءتها فقرئت وكانت: (الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور، وهما يتعالجان ويتعانقان ويتعاوران في العباد والبلاد فإذا رجح الصدق بالكذب رجح العدل بالجور وإذا مال الكذب بالصدق مال الجور بالعدل فأطبقت الأرض ذنوباً فقولوا الصدق ولو بمقياس شعرة فإنه نور من نور الله - جل وعلا - واجتنبوا الكذب ولو بمقياس شعرة فإنه عُدَّة من عُدَد الشيطان واصدقوا من صدقكم؛ يولَّد الصدق صدقاً، ولا تكذبوا من كذبكم؛ فيولَّد الكذب كذباً فإن لهما من طبائعهما وحسنهما مجالا فكونوا أيها الحكماء صديقين يمتلئ أفواهكم نوراً ولا تكونوا كذابين فيغلب على ألسنتكم اللعنة فإني افتتحتُ بالله كلاماً كنت به صادقاً فمشيت على الماء، وافتتحت بالشيطان كلاماً كنت به كاذباً فهويت في الظلم فجعلت توبتي من تلك الكذبة، عظمتي في هذه الصخرة؛ ليتعظ متعظ

فخذوا هذه الحكمة الناطقة عن هذه الصخرة الصامتة)، ووقفت أنا وعبد الله بن محمد بن زنجوية بن مهران وهو من بئك دهاقنة همدان وأصحاب ساروق وحصنها فقرأت عليه خبر الإسكندر فأنشدني لنفسه:

لست مع الشيب بمعدور	قدك عن القهوة والخور
أنت عن اللهو بمزجور	تقدمة الموت مشيب فهل
لو نفع الحذر لمحدور	كم لك يا عاقل من عبرة
في صخرة من عهد سابور	كتابة في سفتح أروندنا
باليأس يأتي بعد معسور	الصدق ميزان الجواد الذي
أخرجنا من معدن الخور	والمين مكبال اللعين الذي
ملئ به فوك من الثور	ياها الناطق صدقا لقد
هويت في هوة دردور	وأياها الشاهد زورا لقد
أمشي على ساحل مخور	إني افتحت القول بالله كي
والسوج في طاعة مأمور	فظلت فوق الماء والبحر لي
ظللت في ظلمة ديجور	وقلت بالشیطان قولا به
في الحجر الصلد عن الزور	كفاك أي تائب واعظ
تبقي إلى النفخة في الصور	خذ هذه الحكمة عن صخرة

وقال بعض الحكماء: وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساما وأعظم من أجسامهم أحلاما وأشد قوة وأشد من قوتهم امتحانا وأطول أعمارا وأطول بأعمارهم للأمور اختبارا فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علما وعملا منا، وصاحب الدنيا كذلك، ووجدناهم لم يرضوا بما خُصُّوا به من الفضل حتى أشركونا معهم بأنفسهم فيما ابتغوا من علم الآخرة والأولى فكتبوا به الكتب الباقية، وبلغ اغتنامهم بذلك أن الرجل منهم كان يفتح له باب من الحكمة وهو بالبلد غير المأهول فيكتب في صخرة صماء ضئا منه بذلك وكراهية أن يسقط ذلك على من بعدهم فكتبوا الكتب الباقية من العلم.

فكان صنيعهم في ذلك كصنيع الوالد المشفق على ولده الرحيم وكانوا
يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المعروفة التي هي أجدر أن تبقى على
وجه الدهر وأبعد من الدروس فيجعلون فيه الكتاب كما كتبوا على قبة غمدان
وعلى عمود مارد وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق الفرد وعلى النيل بمصر وعلى
باب كنيسة الرُّها وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى الصخرة بتبناير
بهمذان.

الملحة بفراهان

قالوا: ومن عجائبنا الملحة التي برستاق الفراهان هي شبه بحيرة تكون أربعة فراسخ طولاً في عرض فرسخ أقل وأكثر إذا كان أيام الخريف واستغنى أهل الرستاق عن الماء للزراعة ألقي جميع أمياه الرستاق إلى هذه البحيرة فلا يزال ينصب إليها الماء الخريف وطول الشتاء حتى إذا جاء الربيع واحتيج إلى الماء قُطع الماء عن البحيرة فصار ذلك الماء كله ملحاً فتحمله الأكراد والجبابدق إلى جميع بلدان الجبل وزعم الكلبي أن هذه البحيرة طلسم عليها بليناس ما دام لا يحظر عليها فإذا حظر عليها جفت.

وفي هذا الرستاق قرية يقال: لها الفردجان وفيها بيت نار عتيق وهي أحد النيران التي غلت فيها المجوس مثل نار آذرخره ونار جم الشيد وهي الأولى ونار ما جشنسف وهي نار كيخسرو وكان المجوس غلت في هذه النيران الثلاث غلوا لا تضبطه العقول فقالت: كان مع زردهشت ملك يشهد له عند كشتاسف أنه رسول ثم عاد ناراً وأما نار جم الشيد فهي آذرخره كانت بخوارزم فنقلها أنوشروان إلى الكاريان فلما ملكت العرب خافت المجوس أن تطفأ فصيروها جزأين؛ جزء بالكاريان وجزء حمل إلى فسا وقالوا: إن طفئت واحدة بقيت الأخرى وأما آذر جشنسف نار كيخسرو فإنها كانت بأذربيجان فنقلها أنوشروان إلى الشيز وأما نار زردهشت فهي بناحية نيسابور ولم تحول وهي أحد الأصول من نيرانهم ومما غلت فيه المجوس نار آذر جشنسف وهي النار التي بالفراهان.

قال المتوكلي: فحدثني بعض المجوس ممن رآها أن مزدق لما غلب على قباد قال: ينبغي أن تبطل النيران كلها إلا الثلاث الأوائل ففعل؛ فذكر أن نار آذر جشنسف خرجت حتى صارت إلى آذر جشنسف بأذربيجان فاختلطت معها فكانوا إذا أضرموها ظهر نار آذر جشنسف حمراء وتظهر نار آذر جشنسف

بينساء فلما قتل مزدق ردّ الناس النيران إلى أماكنها فافتقدوها بأذربيجان فلم يزالوا يقفون أثرها حتى وقفوا أنها قد رجعت إلى الفردجان فلم تزل في هذا البيت في هذه القرية إلى أن كان في سنة ٢٨٢ فصار إليها برون التركي وكان يتولى قمّ فنصب عليها المجانيق والعرادات حتى افتتحها وأخرب سور القرية وقلع البيت وأطفأ النار وحمل الكانون إلى مدينة قمّ وبطلت النار منذ يومئذ، وزردشت هذا شدد عليهم في الوعيد لما رأى من برد بلادهم فلذلك أمرهم بعبادة النيران.

وقالوا: في بعض رساتيق همذان عيون ماء تنبع وإذا خرجت من أماكنها وزالت عن مواضع منابعها تحجرت وقالوا في الشب اليماني: إنه ماءً ينقطر من جبل شاهق فإذا صار في قعره تحجر وهو الشب وكذلك النوشاذر ومعدنه بكرمان في شعب هناك فإذا اجتمع تحجّر.

ذات الحوافر

وبها ذات الحوافر وهي منارة عظيمة مبنية من حوافر حمر الوحش مسمرة بمسامير حديد برستاق يقال له: ونجر بقرية يقال لها: خسفجين وكان السبب في بنائها أن سابور بن أردشير قال له منجموه إن ملكك سيزول، وإنك تشقى أعوامًا كثيرة حتى تصير في حد المسكنة والفقر ثم يعود ملكك إليك فاختر أن تلقى ذلك في شببيتك أو بعد كبرك؛ قال فما علامة رجوع ملكي إلي؟ قالوا: إذا أكلت خبز الذهب على مائدة حديد فذاك علامة رجوع ملكك، فاختر أن يكون ذلك في شبابه فاعتزل ملكه وأخذ تاجه ومقرعته وقميصه فجعله في جراب له ثم خرج ترفعه أرض وتخفضه أخرى إلى أن صار إلى هذه القرية فأجر نفسه من عظيم القرية فأودعه سابور الجراب فكان يحرث النهار كله ويعمل حتى إذا جئت الليل وجّهه إلى طرد الوحوش فبقي على ذلك حولا كاملا فرأى الرجل منه ثقة وأمانة فرغب فيه الرجل فاسترجحه فزوجه بعض بناته فلما حوّلها إليه كان سابور يعتزل عنها ولا يقربها فلما أتى لذلك شهر شكت إلى أمها فاختلعتها منه.

وبقي سابور يعمل معه ثم إن الرجل سأله أن يتزوج ابنته الوسطى ووصف له جمالها وكمالها وعقلها فتزوجها فلما حولت إليه كان سابور يعتزل عنها. ولا يقربها فلما أتى لذلك شهر شكت إلى أمها فاختلعتها منه.

وبقي سابور يعمل معه ثم إن الرجل سأله أن يتزوج ابنته الصغرى ووصف له جمالها وكمالها وعقلها فتزوجها فلما حولت إليه كان سابور يعتزل عنها ولا يقربها فلما تم لها من تحويلها شهر دخلت أمها يوما على ابنتها فسألته عن حالها مع زوجها فأخبرتها أنها بأحسن حال وأسرّه.

وإن سابور لما رأى صبر المرأة عليه استفرشها وعلقت منه وولدت له ابنا

فلما أتى على سابور أربع سنين اتفق يوماً من الأيام أن عُرسا كان في القرية ما بقي أحد من أهل القرية إلا حضره من الرجال والنساء وكانت امرأة سابور فيمن حضر العرس وسابور في الصحراء فبقي يومه ذلك لا يحمل إليه شيء من الطعام لاشتغالهم كان بالعرس.

ثم إن امرأة سابور ذكرت زوجها بعد العصر وأنها لم تحمل إليه شيئاً من الطعام فدخلت المنزل وطلبت ما تحمل إليه فلم تجد إلا رغيف جاورس فحملته إليه وسابور يسقي وكانت بينهما ساقية فلم يمكنها أن تصير إليه فناولها المرء الذي كان يسقي به فوضعت عليه الرغيف فلما وضع سابور المرء بين يديه وكسر الرغيف ووجده أصفر شديد الصفرة ووجده على الحديد ذكر ما كان قال له المنجمون فقال: قد تم أمري وبأد شقائي فلما انصرفت عنه المرأة قام فاغتسل في الساقية وصار إلى منزله وأمر أهله أن تخرج إليه الجراب فأخرجته إليه فأخرج منه التاج والقميص ولبس ثياب ملكه فلما رآه أبو الجارية كفر له وسجد وحياء بتحية الملوك فأخرج سابور مقرعته ودفعه إلى أبي الجارية وقال: علقها على باب القرية واصعد السور وانظر ماذا ترى؟ ففعل ما أمره به ثم انصرف فقال: أيها الملك أرى الخيل واردة فلم يكن بأسرع من أن أقبلت الخيل شاطئاً في طلبه فكان الفارس إذا رأى المقرعة نزل عن دابته وسجد حتى اجتمعت.

ثم قعد سابور فحدث وزراءه وعظماء قومه بما لقي من الجهد، فقال بعض الوزراء أسعدت أيها الملك وعمرك الله طويلاً أخبرنا ما الذي استفدت في طول هذه المدة؟ قال: ما استفدت إلا بقرة واحدة ثم أمر بإخراجها إليهم، قال: هي هذه فمن أراد كرامتي فليكرم هذه فأقبل الناس عليها من كل وجه يلقون عليها الحلي والحلل والدراهم والدنانير حتى اجتمع من ذلك ما لا يحصى عدده ولا يبلغ مقداره ثم قال: لأبي المرأة دونك هذا المال كله فخذ

لا بنتك ثم رجع الملك إلى حديثه فقال له: وزير آخر أيها الملك المظفر فما أشد شيء مرّ عليك قال طرد الوحوش عن الزروع بالليل فإنها أتعبتني وأسهرتني وأبلغت إليّ فمن أراد كرامتي فليصِدْ لي منها ما أمكن لأبني من حوافرها بنياناً يبقى ذكره لنا على غابر الدهر وعلى مرّ الليالي والأيام.

فتفرق الناس في صيدها فصيد منها ما لا يحصى كثرة ثم أمر بقطع أيديها وأرجلها وأخذ حوافرها وأحضر البنائين فبنوا له منارة عظيمة تكون ثلاثين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً وبنوها مُصَمَّتَةً بالكلس والحجارة ثم ركب فيها الحوافر وسمر بمسامير حديد فصارت كأنها منارة من حوافر.

فلما فرغ منها قعد يتأملها فاستحسن ذلك واستظرفه فقال للذي بناها وهو عليها بعد هل بنيت مثلها لأحد؟ قال: لا، قال: وإن أمرك أحد أن تبني له مثلها، هل كنت تقدر على ذلك؟ قال: نعم وعلى أحسن منها، قال: والله لا أتركك تبني لأحد بعدي مثلها، ثم ضرب رأس دابته ومضى فقال: أيها الملك فإن كنت لا بدّ قاتلي فلي إلى الملك حاجة، قال: هات، قال: يأمر الملك أن أعطي خشباً لأسوي لنفسي قبة أكون فيها حتى يأتيني الموت لأن لا تمزقني النسور والعقبان، قال أعطوه ما يسئل فأعطي خشباً فسوى لنفسه أجنحة من ذلك الخشب فلما كان في بعض الليل شدّها على بدنه ثم حمل نفسه فوقه إلى الأرض ولم يصبه شيء فهرب على وجهه وطلب فلم يُقدّر عليه فلما بلغ سابور الخبر قال: قاتله الله ما كان أحكمه وأصنع كفيّه ثم انصرف إلى دار مملكته فالمنارة باقية إلى يومنا هذا وفي ذلك يقول بعضهم:

رأيت بناء الناس في كل بلدة فلم أرُ بُنياناً كذات الحوافر
بناء عجيباً لم يرَ الناس مثله ولا سمعوه في الدهور الغواير

ذكر ما خص الله تعالى كل بلدة بشيء من الأمتعة دون غيرها

ولولا أن الله - عزَّ وجلَّ - خصَّ بلطفه كلَّ بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب أحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشرى والبيع والأخذ والإعطاء، إلا أن الله - عزَّ وجلَّ - أعطى كلَّ صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا إلى بلد هذا ويستمتع قوم بامتعة قوم ليعتدل القسم ويتنظم التدبير قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا ﴾ [الزخرف: ٣٢] وفي قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَامًا ﴾ [فصلت: ١٠] قال الكاغذ بسمرقند والقراطيس بمصر: ولذلك خصَّ الله - جلَّ وعزَّ - بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر كاليواقيت والألماس وغير ذلك من الحجارة الثمينة والكركدن والفيل والطاوس والأعواد والعنبر والقرنفل والسنبل والخلونجان والدارصيني والنارجيل والهليج والتوتياء والقنى والخيزران والبقم والصندل والساج والفلفل وعجائب كثيرة.

وخصَّ أهل الصين بالصناعات وأعطاهم ما لم يعط أحداً فلهم الحرير الصيني والغضائر والسرّج وغير ذلك من الآلات المحكمة العجيبة الصنعة المتقنة العمل ولهم أيضاً مسك إلا أنه ليس بجيد، وقالوا: إنما يتغيّر في البحر لطول المسافة.

ثم الروم وما قد خصّها الله - عزَّ وجلَّ - به من العلوم والآداب والفلسفة والأحكام والهندسة والحذق بالأبنية والمصانع والقلاع والحصون والمطامير وعقد الجسور والقناطر وعمل الكيمياء ولهم من الديباج الرومي والبزبون وفي بلادهم الميعة والمصطكى.

ثم هذه البلدة وما نُحِصَّت به من الرمي فهم رماة الحَدَق ولهم الخيل العجيبة والأفراس السابقة وفي بلادهم معدن الزبرجد والذهب وزئبج شبيه بزي العرب كأنها قطعة من بلاد اليمن.

ولأهل المغرب البغال البربرية والجواري الأندلسية والنمور الزنجية .

ثم ما قد نُحِصَّ به أهل مصر من النيل وعجائب ما فيه من السمك والخيل والتماسيح ولهم السمك الرعاد والاسقنقور ولهم الثياب الدبيقية والشطوية والقصب الموزون والمسيّر وغير ذلك من أنواع ثياب الكتان والصوف من الأكسية ولهم البغال المصرية والحمر والمريسية والثياب التنيسية والإسكندرانية.

ولأهل اليمن الحلل اليمانية والثياب السعيدية والعذنية وفي بلادهم الورد والكندر ولهم النجائب المهرية والسيوف اليمانية وفي بلادهم القردة، والنسناس وغير ذلك من أنواع العجائب.

ثم العراق قلب الأرض وخزانة الملك الأعظم وما قد خُصَّ الله -جلّ وعلا- به أهل الكوفة خاصة من عمل الوشي والخز وغير ذلك من أنواع الفواكه والتمور والقسوب ما قد عدم مثله بالبصرة والأهواز وبغداد والحجاز مثل الميرون والمشان وقصب العنبر والنرسيان ولهم الأدهان الطيبة الكثيرة ثم قُل في عجائب بغداد ما شئت التي قد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الأقاليم من أنواع التجارات والصناعات.

ولهم الذي لا يشركهم فيه أحد الثياب البيض المروية والزجاج المحكم من الأقذاح والأقحاف والكاسات والطاسات والغضائر الحجرية ولهم الدارش واللحاء خاصة وفيها أعجوبة وذلك أن الدارش يتخذ من هذا الجانب واللحاء من ذلك الجانب فلو جهد صاحب الدارش أن يتخذ من جانب صاحب

اللِّكَاءَ لأعوزه وكذلك لو جهد صاحب اللِّكَاءِ أن يتَّخذ في جانب صاحب الدارِش لتعذَّر عليه ذلك على أنهم قد امتحنوا ذلك وجربوه ففسد وتعذَّر عليهم.

وقد حمل المعتصم بالله صنَّاع القراطيس إلى سُرٍّ من رأى من تربتها ومائها وأمرهم باتخاذها هناك فلم يخرج منه إلا الخشن الذي يتكسر، ولأهل كورة دجلة والسواد وميسان ودسَّت ميسان من عمل السُتور والبُسُط وعمل الميسانى والحريز والدَّرانك والدُّورنك وغير ذلك من أنواع القُرُش والبُسُط ما ليس لأحد، ولأهل البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كور النخل.

وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أصناف نخل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليَمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ودون الكوفة وسواها وخيبر وذواتها والأهواز وما بها أيام المعتصم وإذا ثلاثمائة وستون ضربًا من مغلٍّ معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب.

ولأهل الأهواز أنواع من السُّكَّر والتمور، ولأهل السوس خاصَّة وجُنْدِي سابور حذق في اتخاذ أنواع ثياب الحرير والديباج وكذلك لأهل تستر ثم الجبل وعجائبها وما قد أعطوا من الفواكه السرية الكثيرة والزعفران والأقطان واتخاذ طرائف الألبان كالجبين واللُّور.

ولأهل همدان خاصَّة حذق باتخاذ المرايا والملاعق والمجامر والطبول المذهبة التي قد فاقوا بها وباتخاذها جميع أهل الأرض.

ولأهل الري الأطباق والمدهنة والحرير وآلات كثيرة يتَّخذونها من الخشب من الأمشاط وغير ذلك من المالح والمغارف ولهم الأكسية البيض الطرازية والطيايسة البيض السرية والثياب المنيرة.

ثم بغداد الثانية أعني أصبهان وما أُعطي أهلها من طيب الهواء وعذوبة الماء والحذق بأنواع الصناعات فلهم الثياب المروية والعنابية والملاحم العجيبة والحلل الأبريسمية المنسوجة وغير المنسوجة والثياب السعيدية.

ولفارس فضل في اتخاذ الآلات الظرفية المحكمة من الحديد حتى لقد قال بعض الحكماء لما وقف على أشياء ظرفية عند بعض الملوك من آلات فارس: لقد ألان الله - عز وجل - هؤلاء القوم الحديد، وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا، فهم أحذق الأمة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن، ولهم الثياب الجبائية والسينيزية، ولهم الماورد الجوري والطين السيراقي والأكسية الفسوية والأدهان السابورية والثياب الكازرونية.

ولأهل سجستان عمل المشارب السجزية والكيزان وآلات كثيرة من الشبه والصفير.

ولأهل طبرستان والديلم وقزوین حظ من عمل الأكسية الرويانية والآملية واتخاذ الشستانك والمناديل وأشياء كثيرة من أنواع ثياب القطن والصوف والأبريسم والكتان.

ولأهل جرجان من الأبريسم ما ليس عند غيرهم ومنها يُحمل إلى جميع البلدان، ولهم حذق باتخاذ الديباج والمقانع والثياب والستور وغير ذلك.

ولأهل نيسابور الثياب الملحمة والظاهرية، ولهم التاختج والراحتج وليس هذا إلا لهم، ولأهل مرو الثياب المروزية والملاحم الفائقة التي هي أعلى الملاحم.

وبخراسان فواكه كثيرة سريّة وأعناب طيبة ولهم الزبيب الكشمهائي والكشمش وبطيخ يقدد وقد كان فيما مضى يُحمل بطيخها إلى الخلفاء في قدور

نحاس؛ لشدة حلاوتها ولذتها وطيبها ولهم الاشتراغ والآنجدان والغوشنة والكيلكان والرخيين والملمن وبها معدن الفيروزج واللازورد، ولهم الفنجهير معدن الفضة، ولهم الحزم الغرجية والخيل البخارية والركب المروية والثياب السمرقندية، ولهم الاشكن والخلنج وبها الختو، وبالترك السمرور والفنك، وبالتبت المسك التبتى والدرق التبتية.

وزعموا أن كل من دخلها لم يزل ضاحكاً مسروراً فسيحان من أعطى كل بلد نوعاً من الخيرات وجنساً من الصناعات..

ثم لأهل المغرب ومصر وبلاد الجبل وخراسان عجائب لا تكون بغيرها مثل منارة الإسكندرية وعمود عين شمس والهرمان وجسر آذنة وقنطرة سنجة وكنيسة الرها والأبلى الفرد والمشقر وغان وبرهوت وبلهوت والتمساح والرعد والأشقفور والفرس النهري بمصر والفرس الذي في أقصى المغرب وإيوان المدائن وتحت شبديز وبهستون وأساطين قصر اللصوص وعمل الدكان والأسد الذي بهمذان وطاق تباير بها والسمكة والثور بنهاوند وعجائب رومية ونيل رومية ومنارة ذات الخوافز بهمذان وغير ذلك من العجائب التي لا تحصى فتبارك الله أحسن الخالقين.

قصر بهرام جور وناووس الظبية

وبهمدان على ثلاثة فراسخ منها ناووس الظبية وقصر بهرام جور بقرية يقال لها جوهسته، والقصر كله حجر واحد منقور وفيه كتابة بالفارسية من أوّله إلى آخره يقرؤها من يفهم الفارسية، كلّ خبره وكلّ أمر عجيب وفي كلّ ركن من أركانه صورة جارية، فإن كانوا هندموه ولا حكوا بينه حتى لا يتبين فيه مجمع حجرين فهذا عجب، وإن كان حجراً واحداً ومحل ذلك فنقرته الرجال بالمناكير حتى خرقوا فيه تلك المخارق إنّ هذا لأعجب .

وعلى مقدار نصف فرسخ من هذا القصر الناووس على تلّ مشرف، وكان السبب في ذلك أن بهرام جور خرج يتصيدّ ومعه جارية له، وكانت من أحبّ جواريه إليه، وأحظاهن عنده فلماً فرغ من صيده نزل في هذا القصر، وجلس يشرب مع الجارية فلماً أخذتها الشراب التفت إلى الجارية فقال: تَشْهِي عَلَيَّ شهوة، فنظرت الجارية إلى ظبية ترعى على ذروة جبل هناك، فقالت: أريد أن ترمي هذه الظبية فتصل ظلّفها مع أذنّها مع قرنّها بسنهم واحد فورد على بهرام أمر بقي فيه متحيراً، ثم قال: إن أنا لم أفعل ذلك عيّرتي الناس بأنّي لم أعط امرأة شهوتها، ثم أخذ الجّلاّهق فرمى الظبية ببندقه فأصاب أذنّها فرفعت ظلّفها لتحك أذنّها فانتزع سهماً فخاط ظلّفها مع أذنّها مع قرنّها ثم قام إلى الجارية فذبّحها ودفنها مع الظبية وبنى عليهما ناووساً من حجارة وكتب عليها بالفارسية خبرها، فالناووس باقٍ إلى يومنا هذا أنشدني بعضهم فيه:

عجبت لبهرام ومن ذات ظبيّة	نحوب وتغدوبين قفر السباب
وبهرام مع حوراء عين كأنها	أيا الشمس أصبت بين عشب
فقال له الحوراء دونك فارمها	وصكّ بسهم من سهام الشصائب
بجامع أذنيها وأسفل ظلّفها	فلا عذر إن خالفت يا بن الأشاهب
فأرسل سهماً صكّ منها الذي بغت	وقام إليها مغضباً بالقواضب

وقال آخر في طويلة له:

بالسند والهند والمعمور بالصين	ولا رأى ملكاً تجبو الملوك له
كسرى شهنشاہ إذ يلهو بشيرين	ولا رأى أردشير الفارسي ولا
إلى غزال تناغى ريرب العين	إذ قالت القينة الورهاء إذ نظرت
سكاً إلى قرنه بهرام يرضيني	ما دون جمعك ظلّفيها بنافذة
من قول صنّاجة قالت بتهجين	فدعر الملك وارتجبت فرائصه
منه بظلف على قرن وأذنين	فراصد الظبي حتى حكّ سامعه
بذي غرار ظرير النصل مستون	فسك ظلّفيه بالمدرى وسامعه

وقال عبد الرحمن بن الأزهري: سمعت عمر بن الخطاب يقول: اللهم لا تدركني أبناء الهمذانيات والاصطخريّات وعدّ قرى من قرى فارس الذين معهم قلوب العجم والسنة العرب، فزعموا أن همذان الذي ذكره عمر قرية من قرى اصطخر وليس بهمذان الجبل.

وعن كعب قال: إنّنا نجد في الكتب أن الأرض كلّها لتخرب قبل الشام بأربعين سنة فمكة يخرّبها الحبشة، والمدينة الجوع، والبصرة الغرق، والكوفة الترك، والجبال تخرب بالصواعق والرواجف، وخراسان بأصناف العذاب، والريّ يغلب عليها الديلميّة والطبريّة، وأما أرمينية وآذربيجان فيهلكان بسنابك الخيل من الجيوش وبالصواعق والرواجف ويلقون من الشدّة ما لا يلقاه غيرهم، وأما حلوان فتهلك بهلاك زوراء ويصبح أهلها قردة وخنازير نسأل الله العافية.

وأما الكوفة فإنه يصير إليها رجل يقال له عنيسة من بني أبي سفيان فيخرّبها ويأخذ جارية شابة ورجلاً صالحاً من آل عليّ جميعاً فيقتلها، ويجعل العيدان في أدبارهما ويصلبهما، ويقول هذه فاطمة وهذا عليّ، ثم يخرج رجل من جهينة يقال له ناجية فيدخل مصر فويل لأهل مصر منه، ولا يدخل بيت

المقدس يمنعه الله بحوله وقوته وويل لأهل دمشق وإفريقية.

وأما سجستان فرياح تعصف عليهم أيامًا مظلمة شدة مع هذه تأتيهم،
وأما كرمان وأصبهان وفارس فصيحة تأتيهم وأكثر خرابها الجراد والسلطان.

وخراب السند من قبل الهند وخراب خراسان من قبل التبت وخراب
التبت من قبل الصين.

وخراب الشام من قبل الملحمة الكبيرة قال: فإذا كان ذلك فتحت
قسطنطينية على يدي رجل من بني هاشم.

وخراب همذان من قبل جيوش أهل الديلم يدخلونها فيخربونها فلا
همذان بعدها.

القول في نهاوند

قال الكلبي: سميت نهاوند لأنهم وجدوها كما هي، ويقال: إنها من بناء نوح عليه السلام وإنما هي نوح أونند، وهي أعتق مدينة بالجبل، وفتحت نهاوند يوم الأربعاء في سنة ١٩، ويقال في سنة ٢٠، ويقال إن سهاك بن عبيد العيسى تبع رجلاً منهم ذات يوم فقتله، وجعل لا يبرز له رجل إلا قتله حتى لم يبق غير رجل واحد فاستسلم وألقى سلاحه فأخذ أسيراً وتكلم بالفارسية فدعي له بترجمان وذهبوا به إلى حذيفة فصالحه على الخراج والجزية وآمن أهل مدينة نهاوند على أموالهم وحيطانهم ومنازلهم فسميت نهاوند ماه دينار.

وقالوا: نهاوند من فتوح أهل الكوفة والدينور من فتوح أهل البصرة فلما كثر المسلمون بالكوفة احتاجوا إلى أن يزدادوا في النواحي التي كان خراجها قد صرح أهلها عليه، ليتوفر فيهم فصيرت لهم الدينور وعوض أهل البصرة نهاوند؛ لأنها قريبة من أصبهان فصار فضل ما بين خراج الدينور ونهاوند لأهل الكوفة فسميت نهاوند ماه البصرة والدينور ماه الكوفة وذلك في أيام معاوية بن أبي سفيان.

وعلى أيزا جبل نهاوند طلسمان سمكة وثور من ثلج لا يذوبان في شتاء ولا صيف، وينظر إليهما من المدينة صُور ثور قائم فصيح، وسمكة فصيحة تتبع السمكة الثور، ويقال: إنها للماء ألا يقل بها، وبها قصب الذريرة وهو الخنوط فما دام بنهاوند فهو والخشب بمنزلة، لا رائحة له حتى يجاز به ثنية الركاب فإذا جيز به الثنية ورُدَّ إلى نهاوند فاحت رائحته وحمل إلى البلدان، وبنهاوند موضع يقال له: أزواز البلاءة في رستاق الاسفيذهان، وفيه حجر يفور منه الماء في كل يوم مرة أو مرتين فيخرج وله خرير فيسقي تلك الأراضي ثم يتراجع.

قال الكلبي: وهو مطلسم بسبب الماء ألا ينقص ولا يزيد، وذلك أن الأكار يجيء وقت الحاجة ومعه المر فيقف عند الحجر فيسمع في الحجر وقع مثل وقع أبواب الحمامات، ثم يخرج الماء فإذا استغنى عنه نقص وتراجع، وبها حجر يقال له: كيلان وثم صخرة عظيمة وفيها أعجوبة وذلك أن من أراد أن يتعرف حال غائب له أو أبق أو سرقة جاء إلى عند الصخرة فينام عندها فيرى في النوم جميع ما يحتاج إليه، ويرى غائبه وأبقه في الحالة التي هو بها، ويوجد على حافتي نهرها طين أسود كالقار يصلح للختم وهو أجود ما يكون من الطين، ويقول أهل نهاوند: إن السراطين تحمله فتلقيه على حافتي هذا النهر، وزعموا أنهم لو حفروا في جوف النهر عشرة أذرع على أن يجدوا فيه شيئاً من هذا الطين لم يصيبوه إلا ما تحمله السراطين.

وفي رستاق جوانق من كورة نهاوند في قرية يقال لها كنخواست صورة فرس من حشيش يراه الناس أخضر في الشتاء والصيف يقال: إنه طلسم للكلأ والحشيش فهي أكثر بلاد الله حشيشاً.

وقال لي بعضهم رأيت بنهاوند فتى من الكتاب فقلت له كيف حالك فأنشدني:

يا طول ليلي بنهاوند	مفكراً في البسث والوجد
فمرة أخذ في منية	لا تجلب الخير ولا تجدي
ومرة أشدو بصوت إذا	غنيته يصدع من كبدي
فجال هذا الدهر بي جولة	فصرت منها بروجرد
الحمد لله على كل ما	قدر من قبلي ومن بعدي

القول في أصبهان

قال الكلبي: سميت أصبهان بأصبهان بن الفلّوج بن سام بن نوح وهي صلحية؛ لأن عمر بن الخطاب وجه عبد الله بن بديل بن ورقاء إليها سنة ٢٣، ويقال بل كتب إلى أبي موسى الأشعري يأمره بتوجيه جيش إلى أصبهان فوجه عبد الله بن بديل ففتحها صلحاً على أن يؤدّي أهلها الخراج والجزية، ووجه عبد الله بن بديل الأحنف بن قيس، وكان في جيشه إلى اليهودية فصالحه أهلها على مثل ذلك الصلح، وغلب ابن بُدَيْل على أرض أصبهان ثم ولّاها عثمان بعده السائب بن الأقرع وكان فتحها في سنة ٢٣ و ٢٤.

وقال الكلبي: وكان جدُّ أبي دُلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل العجلي يعالج العطر، ويحلب الغنم، فقدم الجبل في عدة من أهله؛ فنزلوا قرية من قرى همدان فأثروا واتخذوا الضياع ووثب إدريس بن معقل على رجل من التجار كان له عليه مال فخنقه وأخذ ماله فحمل إلى الكوفة وحُبس بها في ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق في زمن هشام بن عبد الملك، ثم إن عيسى بن إدريس نزل الكَرَج وغلب عليها وبنى حصنها وقويت حال أبي دُلف وعظم شأنه عند السلطان فكبر الحصن، وزاد فيه وسماها الكَرَج فقيلاً: كَرَج أبي دُلف، فالكرج اليوم مصر من الأمصار وكانت من قبل من رستاق أصبهان فهي اليوم مفردة برأسها تسمى الإيغارين.

ولما ارتحلت اليهود من بيت المقدس هارين من بختنصر حملوا معهم من ماء بيت المقدس وتراها فكانوا لا ينزلون منزلاً ولا يحلّون مدينة إلا وزنوا ماءها وتراها فلم يزالوا كذلك حتى دخلوا مدينة أصبهان فنزلوا بموضع منها يقال له بنيحنا، ومعنى هذه الكلمة انزلوا فقد أصبتم الموضع وهي بالعبرائية، فنزلوا ذلك المكان ووزنوا الماء والطين فكانا جميعاً كماء بيت المقدس وطينها فنزلوها وأخذوا في العمارات وتوالدوا وتناسلوا وموضعهم الآن يسمّى

اليهودية؛ فأما مدينتهم فتسمى جَيّ وبنائها الإسكندر على مَجَرّ حَيّة لأنه بناها مرارا كثيرة مربعة ومدوّرة فكانت تتساقط،؟ فألى على نفسه ألا يبرح منها أو ينيها فرأى في بعض الأيام حَيّة خرجت من جُحرها فدارت حول المدينة بسرعة ثم رجعت إلى جحرها فأمر الإسكندر أصحابه أن تُبْنى المدينة على مَجَرّها فبنوها على ذلك فالبناء قائم إلى يومنا هذا معرّج.

وأصبهان صحيحة التربة طيبة الهواء عذبة الماء قال ابن عيينة: سمعت ابن شُبْرُمَة يقول: يوم ليلة بالحيرة خير من دواء ستين، قال: وقال سعيد بن المسيّب: لو أني لم أكن من قريش لأحييت أن أكون من أهل فارس ثم أحييت أن أكون من أصبهان، وقال الشَّعْبِيّ لما انهزم يَزْدَجِرْدُ من المدائن صار إلى نهاوند فلما انهزم منها انتخب من عسكره ألف أسوار وألف صنّاجة وألف خبّاز وألف صاحب حلواء ثم مضى حتى نزل مَرَوْ فلما قُتل خرجت الأساورة إلى بلخ والصنّاجات إلى هراة وأقام الخبّازون بمرّو فلهم ضروب من الخبز، وخرج أصحاب الحلواء إلى أصبهان فهم أحذق خلق الله بالتخّاذة.

وقال الهيثم بن عديّ: لم يكن بفارس كورة أهلها أقوى من أهل كورتين: كورة سهليّة وهي كَسْكَر، وكورة جبليّة وهي أصبهان وكان خراج كلّ كورة مائتي ألف درهم، وكانت مساحة أصبهان ثمانين فرسخًا في ثمانين فرسخًا وهي سبعة عشر رستاقًا في كلّ رستاق منها ثلاثائة وستون قرية قديمة سوى الحديثة وخراجها في هذا الوقت سبعة آلاف ألف درهم وهي واسعة الأرض كثيرة العمارات صحيحة التربة قليلة الهواء ورسايقها: جَيّ ومارّين والنجان وبرّاء و بُرْخُوار ورويندشت وأردستان وكروان وپُرزاوند والدارك وفريدين وقهستان والقامدار وجزم قاسان وسرد قاسان وأرزنان والتميرة الصغرى والكبرى.

ثُمَّ

ويقال: إن الذي بنى قُمْ قمسار، وروى أبو موسى الأشعري قال سألت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن أسلم الأرض وخير المواضع عند نزول الفتنة وإظهار البلاء، قال: أسلم المواضع يومئذ أرض الجبل فإذا اضطربت خراسان، ووقعت الحرب بين جرجان وطبرستان وخرب سائر سجستان فاخرج يومئذ إلى الجبل فأسلم المواضع يومئذ قصبه قُمْ؛ تلك التي يخرج منها أنصار خير الناس أباً وأماً وجدّاً وجدّة وعمّاً وعمّة تلك التي تسمى الزهراء؛ أن بها موضع قدّم جبرئيل -عليه السلام- يوم نزل إلى قوم لوط وهو الموضع الذي ينبع منه الماء الذي من شرب منه أمن الداء.

من ذلك الماء عُجن الطين الذي عمل منه كهية الطير، ومنه يغتسل الرضا، ومن ذلك الموضع خرج كبش إبراهيم وعصا موسى وخاتم سليمان، والجزيرة أعظم المدن شأناً يُسترون أهلها بالأمن والخصب والخير والعزّ والسطوة والظفر وصحة الأهواء وطيب الهواء.

وأخبرني محمد بن أبي مَرْيَم قال: مبلغ وظيفة الخراج بكورة قُمْ مع ما في ذلك من الاحتسابات وما على آل عجل ومن في ناحيتهم وعلى أهل الأطراف من الورق ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وثلاثون ألف درهم وما على الضياع المنقولة إلى هذه الكورة مائتا ألف وعشرون ألفاً وثلاثمائة وثلاثون درهماً فجميع ذلك ثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف وخمسون ألفاً وثلاثمائة وثلاثون درهماً قيمتها على صرف سبعة عشر بدينار مائتا ألف ألفان وخمسمائة وتسعة وأربعون ديناراً، وطساسيجها طسُوج ليَجْرُود وطسُوج الرُّودْبَار طسُوج إبرسيحان وسحاران طسُوج سراحة طسُوج وأركروذ رستاق الجبل ساوه وسِيَا وجَرِي سو ميلاد جَرْد وكور أخرى كثيرة.

ولما أمر قباذ بليناس الرومي أن يطلسم آفات إقليمه مضى إلى قم فأتخذ
أباراً بإزاء شجرة الملاحه طلسماً لتجري عين الملاحه فحظر عليها فإذا منع منها
الناس جفت، وطلسماً آخر ليخفي معدن ذهبها وفضتها، وطلسماً آخر فوق
منارات للحيات فانحازت إلى جبل؛ فهي فيه ثم مضى إلى الفراهان وفيها
سبخة تقطع البعير بحمله والفرس براكبه وأتخذ حولها طلسمين فاستراح
أهلها منها.

ولما ملك طهمورث بنى بأرض أصبهان في رستاق مارين ورؤيدشت.

وفي تلك فيروز بن يزدجرد بن بهرام لم يمطر الناس سبع سنين فمات
رجل بجوانق فوجه فيروز إلى ذلك الرجل فوجد له ثلاث خزان حنطة
فأخبر الملك بذلك فأعطى الذي بشره أربعة آلاف درهم ثم قال: الحمد لله
الذي لم يمطر في ملكي سبع سنين فلم يمت أحد جوعاً؛ وكانت جوانق ماهية
وكانت لقوم لهم أخطار فسألوا فيروز أن يصير جوانق إلى أصبهان ففعل ذلك
ثم مطر الناس ما فروردين في روزآبان فصبوا الماء بعضهم على بعض لطول
عهدهم به، فصارت تلك سنة إلى اليوم في ماه وهمذان وأصبهان والدينور وما
حولها.

وواد بها يسمى زرن روذ ويخرج من قرية يقال لها: بناكان ويسقي رساتيق
أصبهان، ثم يغور في رمل في آخرها ويظهر بكرمان على ستين فرسخاً من
الموضع الذي غار فيه فيسقي أرض كرمان ثم يصب في البحر الشرقي وعرف
أنه بكرمان يخرج بقضيب كتب عليه وطرح فيه فخرج القضيب بكرمان،
وأنشد في عذوبة ماء أصبهان.

لستُ آسى من أصبهان على شيء	و سوى مائها الرجيق الزلال
ونسيم الصبا وتحرق الرياح	وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الما	ذي والصافيات تحت الجلال

ويقال: إن بليناس الرومي لما أراد دخول أصبهان ليطلب آفات مدينتها مرّ برستاق قد أضرّ الماء بزرعهم فأتخذ لهم طلسماً في جوف بئر إذا احتاجوا إلى الماء فاضت البئر بماء غزير ليسقي أراضيهم، ثم يتراجع بقية الماء إلى البئر، ثم دخل مدينة أصبهان فأتخذ فيها طلسماً للهوام فقلّت، وأتخذ بُرود دشت طلسماً لأن ينضب ماؤها في الصيف فلا ينتفع به، ويفيض في الشتاء فيؤذيهم وذلك أن أهلها أغضبوه، وطلسمًا تحت باب من أبواب المدينة يقال له: طهره مردوم فكلّمًا فُتح ذلك الباب وقع الوباء في أهلها، وطلسمًا تحت شجرة على فرسخ من المدينة فإذا طُفّت تلك الشجرة، وفُتح ذلك الباب ارتفع الوباء، وطلسمًا للفجور، والفجور فيها ظاهر، وأتخذ في كلّ طريق منها طلسماً للخوف، ولها سبع طرق فطرُقهم مخوفة أبدًا.

ويقال ما بُني بالجصّ والآجر أبهى من إيوان كسرى بالمدائن، ولا بناء بالحجارة أحسن من قصر شيرين، ولا أساطين أعجب من أساطين قصر اللصوص ولا طاق أعجب من طاق شبديز ولا بناء باللبن والطين أبهى ولا أحسن من بناء نيمور رستاق بأصبهان، وفي ذلك البناء عجائب من التصاوير والأنباء والعبر وبأصبهان قرية يقال لها: أنبارجي عند أهلها خرزة خضراء آسمانجونية، وفيها عروق بيض وصفريز عمون أنها طلسم للبرد فإذا كان أيام الربيع وخافوا على زروعهم وثمارهم البرد أخرجوا تلك الخرزة فنصبوها على قناة إلى موضع عيد لهم معروف، وفي يوم من السنة معروف فيسمع من جوفها دوي كدوي النحل قالوا: فإن البرد ليحيي في صحاريهم فلا يضرّ بالعامر ولا يصيبه شيئاً ويصيب الغامر.

وأنشد منصور بن باذان

فما أنا من مدينة أهل جيٍّ ولا من قرية القوم اليهود
وما أنا عن رجالهم براضٍ ولا لنسائهم بالمستريد

وذكر بعض الرواة ممن قد جال البلدان أنه لم ير مدينة أكثر زائياً ويهودياً ويهوديةً وحائكةً من أهل أصبهان، وأنشد أبو محمد العبدى لنفسه:

لَمَنْ طَلَّلَ تَعَاجِمَ عَنْ جَوَابِي	لَقَدْ قَضَحَتْ دُمُوعُكَ بَانْسَكَابِ
قِفِ الْعَبْرَاتِ إِنَّ دَمًا وَدَمْعًا	يَصُوبُ بَرْنِعَهُمْ فَمِنْ الصَّوَابِ
أَلَمْ يَحْزُنْكَ مَنْ وَلَعَانِ دَهْرٍ	تَعَتُّتْهُ بِأَطْلَالِ الرُّبَابِ
لَبَائِي مَنْ أَحْبَبُ إِذَا اللَّيَالِي	بَقُرْبِهِمْ كَأَيَّامِ الشَّبَابِ
فَأَبْدَلَنِي النَّوَى مِنْ حُسْنِ لَيْلِي	لَبَائِي مِثْلَ أَيَّامِ الْكُلابِ
عَلَى بَلَدِ أَصْبَهَانَ وَسَاكِنِيهَا	لَعَائِنُ وَالْدَّمَارُ عَلَى الْكِلابِ
وَلَا صَبَّ الصَّبَا يَوْمًا إِلَيْهَا	لَيْسَحَبَ ذَيْلَ غَادِيَةِ السَّحَابِ
أَحَاوَلُ دَهْرَهَا بِالسَّيْفِ طَوْرًا	وَطَوْرًا بِالْبَلَاغَةِ وَالْحِسَابِ
فَلَا فِي ذَاكَ يُفْلِحُ قَدْحُ نُجُحِ	وَلَا فِي ذَيْنِ يُفْنَمُ بَاكْتِسَابِ
وَكَيْفَ يَنَالُ مِثْلِي النُّجُحُ فِيهَا	وَقَدْ شُحِنَتْ بِأَوْلَادِ الْفَحَابِ

وفي الحديث أن آدم لما أهبط بالهند على جبل سَرَنْدِيبَ، وأهبطت حواء بجدة وإبليس اللعين بنيسان والحية بأصبهان ومنها يخرج الدجال. وهي صحيحة التربة عذبة الماء طيبة الهواء قليلة الهوام تبقى بها الحبوب أضعاف ما تبقى في غيرها من البلدان والله أعلم وأحكم.

القول في الريّ وذنباوند

قال ابن الكلبيّ سمّيت الريّ برؤي من بني بيلان بن أصبهان بن فلوج بن سام بن نوح وكان في موضع المدينة بستان فخرجت بنت رؤي إلى البستان فإذا درّاجة تأكل تيناً، فقالت بُورأنجير يعني إنّ الدّراجة تأكل تيناً فاسم المدينة بُورأنجير ويغيّره أهل الريّ فيقولون بهرزير.

قال وكتب عمر بن الخطّاب إلى عمار بن ياسر وكان عامله على الكوفة بعد شهرين من واقعة نهاوند يأمره أن يبعث عروة بن زيد الخيل الطائيّ إلى الريّ ودسّتي في ثمانية آلاف، ففعل وسار عروة فجمعت له الديلم وأمدّهم أهل الريّ فقاتلوه فأظهره الله عليهم فقتلهم واستباحهم، قال: وبنى مسجدها المهديّ في خلافة، المنصور وبنى مدينتها أيضاً، وخذق حولها وجرى ذلك على يدي عمار بن أبي الحُصيب، وكُتب اسمه على حائط جامعها فاتمّ بناءها سنة ١٥٨ وجعل لها فصيلاً يطيف به فارّقين وسماها المحمّديّة، فأهل الريّ يدعون المدينة الداخلة المدينة، ويسمّون الفصيل المدينة الخارجة وحصن الزينبي في داخل المدينة.

وكان المهديّ أمر بمرمّته ونزله وهو مطلّ على مسجد الجامع ودار الإمارة، وقد كان جعل بعد ذلك سجناً ثم خرّب وعمّره بعد ذلك رافع بن هرّثمة في سنة ٢٧٨ وخرّبه أهل الريّ بعد خروج رافع عنها، وبالريّ أهل بيت يقال لهم الحريش نزلوا بعد بناء المدينة.

قالوا: وكانت مدينة الريّ تدعى في الجاهليّة أزارى، فيقال: إنه خُسف بها وهي على اثني عشر فرسخاً من الريّ على طريق الخوار وبنّاؤها قائم إلى يومنا هذا، وقلعة الفرّخان هو الدّز الذي بالشّرّ حبسُ الجرائم.

وبالريّ دُفن عمرو بن مَعْدِيكَرْب ومحمّد بن الحسن الفقيه، وعنه أخذوا

الفقه وعلي بن حمزة الكسائي والحجاج بن أَرْطاة النخعي وكان الكسائي شخص مع الرشيد والحجاج مع المهدي ويكنى أبا أَرْطاة، وبها قبرا محمد وأحمد ابني خالد بن يزيد بن مَزِيد الشيباني؛ فمات أحمد في ولاية موسى بن بُغَا، ومات محمد في خلافة المعتضد في مقام المكتفي بالري. وقصر جابر بدستبي منسوب إلى جابر أحد بني زِمَان بن تيم الله بن ثعلبة.

ولم تزل وظيفة الري اثني عشر ألف ألف درهم حتى مرَّ بها المأمون منصرفه من خراسان يريد مدينة السلام فأسقط من وظيفتها ألفي ألف درهم وأسجل بذلك لأهلها.

وروى بعضهم أنه مكتوب في التوراة: الريُّ باب من أبواب الأرض وإليها متَّجِر الخلق، وقال محمد بن إسحاق: الريُّ طيبة الهواء عجيبة البناء باب الثَّجَّار وماوى الفُجَّار فهي عروس الأرض وسكَّة الدنيا واسطة خراسان وجرجان والعراق وطبرستان، وهي أحسن الأرض مخلوقة ولها السُّرُّ والسُّرَّبان وإليها تقع تجارات أرمينية وآذربيجان وخراسان والخرزَر وبلاد بُرْجان لأنَّ تجار البحر يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق فيحملون الديباج والخرزَ الفائق من فِرْنَجَة إلى الفَرَمَا ويركبون البحر من القلزم، فيحملون ذلك إلى الصين ويحملون الدارصيني والماميران ومتاع الصين كلَّه حتى يصيروا بالقلزم، ثم يتحوَّلون إلى الفَرَمَا وهم التجار اليهود الذين يقال لهم: الرَّاهِدَانِيَّة يتكلمون بالفارسيَّة والروميَّة والعربيَّة والإفرنجيَّة ويخرجون من الفَرَمَا فيبيعون المسك والعود وجميع ما معهم من ملك فرنجة فيجيئون إلى أنطاكية ثم يصيرون إلى بغداد ثم إلى الأبلَّة.

فأما تجار الصقالبة فيحملون جلود الثعالب وجلود الخنز من أقصى صقلية فيجيئون إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ثم يجيئون في البحر إلى سَمَكُوش اليهود ثم يتحولون إلى الصقالبة أو يأخذون من بحر الصقالبة في

هذا النهر الذي يقال له: نهر الصقالبة حتى يميثون إلى خليج الحزَر فيعشرهم صاحب الحزَر ثم يصيرون إلى البحر الخراساني فربما خرجوا بجرجان فباعوا جميع ما معهم فيقع جميع ذلك إلى الري.

وأعجب من هذا أنها فرضة الدنيا؛ ولذلك قال عمر بن سعد بن أبي وقاص حين خيّر بين قتل الحسين بن عليّ ؑ وولاية الريّ فأنشأ يقول:

أَتَرَكْتُ مُلْكَ الرِّيّ والرِّيّ رَغْبَةً أَمْ أَرْجِعُ مَذْمُومًا بِقَتْلِ حُسَيْنٍ
وفي قَتْلِهِ النَّارُ التي ليس دونها حِجَابٌ وَمُلْكُ الرِّيّ قُرَّةُ عَيْنٍ

وقال ابن كَرْبُويَة الرازي، وكان أحد أصحاب الحسين بن أحمد العلويّ

بقزوين:

يا مَنيّةً هَيَّجَتْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي	لا تُبْعِدْنِي فُبْعْدُ الدَّارِ أَضْغَانِي
إِنِّي أُعِيبُكَ بِالْأَجْفَانِ يَا سَكَنِي	أَنْ تَتْرُكْنِي أَخَا شَجْوٍ وَأَشْجَانِ
إِذَا بَعُدَتْ يَكَادُ الشَّوْقُ يَقْتُلُنِي	حَتَّى إِذَا طَافَ طَيْفٌ مِنْكَ أَخْيَانِي
يَا جَفْوَةً مِنْ حَبِيبٍ أَفْرَحْتُ كَيْدِي	هَلَّا رَثَيْتُ لِنَائِي الدَّارِ حَيْرَانِ
دَامِي الْجُفُونُ نَحِيلَ الْجِسْمِ مُحْتَرِقِ	صَبَّ أَسِيفُ قَرِيبِ الْقَلْبِ حَرَّانِ
أَمْسَى بِقَزَوِينَ مَسْلُوبًا عَزِيمَتِهِ	مَقْسَمًا بَيْنَ أَشْجَانٍ وَأَحْزَانِ
أَقُولُ يَوْمَ تَلَاقَيْنَا وَقَدْ سَجَعَتْ	خَاطِمَتَانِ عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ بَانِ
الآن أَعْلَمُ أَنَّ الْغُصْنَ لِي غُصَصِ	وَأَنَّهَا الْبَانُ بَيْنَ عَاجِلِ دَانِ
وَقُمْتُ تَخْفِضُنِي أَرْضَ وَتَرْفَعُنِي	أُخْرَى وَهَذَا مَسِيرُ اللَّيْلِ أَرْكَانِي
مَا لِي أُنَادِي فَيَأْتِي أَنْ يُجِيبَ فَتَى	لَوْ كَانَ بِالرَّيِّ لَبَّائِي وَقَدَّائِي
يَا نَفْسَ لَا تَجْزَعِي مِنْ ذَاكَ وَاسْتَمْلِي	ثُوبَ الْعَزَاءِ فَإِنَّ الْغَائِبَ الْجَانِي
أَنَا الَّذِي غَرَّهَ بَيْنَانِ قَالَهُمَا	مُضَلَّلٌ مَا لَهُ فِي جَهْلِهِ ثَانِ
لَا يَمْنَعُكَ خَفَضُ الْعَيْشِ فِي بَلَدِ	نُزُوعُ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ أَنْتَ سَاكِنُهَا	أَهْلًا بِأَهْلِ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ

حتى تركتُ لذيذ العيش في بلدي
وشاقتي نحو قزوين منى بطلك
فيها لها خسارة إذ عَزَّ مطلبُها
أنا النذيرُ لكم يا قوم فاستمعوا
للموت بالريِّ خير للمقيم بها
أنسى لها كجنسان في شوارعها
أو كالمدينة شطأها وشارعها
وهات كالسربان اليوم مُرتبعا
أنهارها أَرَسَع عَفْوَةً زُهر
وشارع السُر يُنْهَاه وَيُسْرَتْهُ
وقضُرُ إنسحاق من فُولاد مُتَحَدِرَا
وكم برودة من مُستَشْرِف حَسَن
وكم بناهك من دار كَلِفَتْ بها
وشادين عَنِيَج كالبذر صورته
يا ريَّ صَلِّ عليك الله من بَلَد
حيّ الديار بها والساكين بها
إلا بقايا بُغاة الأرض قد جحدوا
كم حَلَّ عَرَصَةٌ نَضْراباذ قاطبة
وكم بسكّة ساسان إذا ذُكروا
همُ الألى مَنَعُونِي قُرْبَ دارهم
وشرُّ دُونِي عن صَخي وعن وَلَدِي

فناء دارِي عن أهلي وإخواني
نَفَتْ رُقادي وأذرت دمعَ أجفاني
لم تُبقِ مِنِّي على رُوح وجْهاني
مني مقالة نُضح غير خَوَّانٍ
من الحَيوة بقزوين وزَنجاني
يُطْفَخُن في كُلِّ بُستان ومِيدانٍ
من المُصَلَّى إلى صحراءِ أزدانٍ
من باب حَرْبٍ إلى ساحات عَفَّانٍ
يَحَارُ فيهنَّ هَيْئًا كُلُّ إنسانٍ
مُخَفَّانٍ بأنهار وأغصانٍ
على الشراك إلى دَرْب الفَليسانِ
إلى المَضيق بها من باب باطانٍ
وظَبِيَّة تَزْجَعِي في سَفْح عُذرانٍ
يَمِيسُ في حَلَلٍ تَلْهُو بِقَتَّانٍ
ولا أَهْبَكَ دارُ القَطْرِ هَتَّانٍ
من النساءِ ومن شيب وشُبَّانٍ
دِينُ المُهَيَّوِينَ من كُفْرٍ وعُدوانٍ
من ابن زانيةٍ تَحْضُ وكُشْخانٍ
من ابن فاجرةٍ نَصْرٍ وقَرْنانٍ
وباعِدُونِي عن أهلي وُحْلايِ
حتى لَجأتُ إلى أَجبال قُضْرائِ

وفي أخبار آل محمد - عليه السلام - الريُّ ملعونة، وهي على بحر عجاج
وترتبتها تربة دِيْلَمِيَّة يَأْبَى أن تقبل الحقَّ، وأنشد لأدم بن عبد العزيز:

مالي وللرّي وأكنافها يا قوم بين التّرك والدّيلم
أرض بها الأعجم ذو منطيق والمرء ذو المنطيق كالأعجم

وكان هارون الرشيد يقول: الدنيا أربعة منازل قد نزلت منها ثلاثة: أحدها دمشق، والآخر رقّة، والثالث الرّي، ولم أر في هذه المواضع موضعاً أحسن من السّرّبان شارعاً في مدينة الرّي في وسطه نهر وعن جنبيه أشجار ملتفة متّصلة وفيها بينها سوق، والمنزل الرابع سمرقند.

ولما وجّه قباذ بليناس الروميّ إلى الرّي اتّخذ بها طلسمًا للغرق فأمّنه، وذلك أنها على بحر عجّاج وآذاه أهل الرّي فاتّخذ بها طلسمًا للنزول فليس يقبل أحد من خراسان إلّا نزلها وطلسمًا للغلاء فهو فيها ثابت ثم يكتب بليناس إلى قباذ يخبره بما قد طلسم، ويستأذنه في المصير إلى خراسان فكتب إليه قباذ: إن قباذ الأكبر قد طلسم ما وراء الرّي إلى نهر بلخ وخراسان وجرجان وسنجستان مائتين وخمسين طلسمًا وليس ما وراء النهر شيء، وقال الشاعر:

الرّيّ أغلّى بلدة أسعارا لا درهمًا تُبقي ولا دينارًا
تَدْعُ الغريبَ مُحِيرًا في سُوقها قد تاه ينظُرُ هاتِمًا حَوَارًا
في كلِّ يومٍ ينبغي لغدائه إن كان يملك للغدا قنطارًا
وبها أناس شرُّ ناسٍ باعةً لا يحفظُون من الغريبِ جوارًا
سيسُوا بكلِّ قبيحةٍ فتراهم أذهى وأخبث من تحلّي العارًا
لا يصدّقون وصدّق قول فيهم عار وكلُّ يُبغضُ الأبرارًا
إن جئتَ تسألهم لتُنقَى شُرْبَةً قالوا: إليك تجنّب الأشرارًا
فلقد لبّسنا العارَ حتّى مالنا إلّا الفضائحَ ملبّسًا وإزارًا

والرّي سبعة عشر رستاقاً؛ ومنها الحوّار ودُثبانود وويمة وشلّنبه هذه التي فيها المناير.

وفي أخبار الفرس أن أفريذون لما أقبل بالبيوراسف من المغرب نحو المشرق ليسجنه مرّ بكورة أصبهان فطلب قومًا يُمسكونه عليه ريشًا يتغذى فلم يجد فجمع عالمًا من الناس فلم يقدروا على ذلك فأوثقه بأساطين وسلاسل، وأدار سلاسله على جبل وتوثق منه وجلس يتغذى فاجتذب البيوراسف سلاسله مع تلك الأساطين والجبل وطير به في الهواء فتبعه أفريذون فلحقه بمدينة بهرذير وهي الريّ فلما لحقه قمعه بمقامع من حديد كانت بيده فسقط مغشيًا عليه، ورسا ذلك الجبل المنقول من أصبهان بمدينة الريّ مطلاً عليه فلعن أفريذون ذلك الجبل، ودعا الله أن لا يُنبت عليه شيئاً فأجاب الله دعوته، ثم سار به نحو دناوند فسجنه في جبل قرية الحدّادين، ووكل به أرمائيل ومثّل بين يديه في القلّة الجوفاء صورة أفريذون وطلسم عليه طلسمًا، وبنى حوله حوانيت، ورَتّب فيها قومًا حدّادين يضربون مطارقهم بالنواشب على سنداناتهم ليلاً ونهارًا، شتاءً وصيفًا لا يفترون عنها، ومضى أفريذون إلى مملكته، ووكل أرمائيل بحفظ البيوراسف وغذائه، فكان يذبح له في كلّ يوم نسمتين يتغذى بدماغهما، فكان أرمائيل يتحوّب من ذبح الناس فتلطّف في استنقاذهم ويحتسب الأجر في إطلاقهم من القتل فمضى إلى قرية تسمى مندان فبنى على الجبل الشرقيّ منها قصرًا فيه بساتين ومنازل شريفة، وعيون تجري في صحون تلك الدور والبساتين، وبنى في تلك الدور بيتًا بخشب الساج والآبنوس بتساوير، فلم يكن لأحد في المشرق بيت أشرف منه ارتفاعًا وحسنًا، فما زال ذلك البناء قائمًا حتى استنزل المهديّ بن المصمّغان من قلّة العيرين بالأمان فلما وافوا به الريّ والمهديّ نازل بها أمر بضرب عنقه.

فلما استخلف الرشيد ووافى الريّ خبّر بذلك المكان والبنيان، فصار إليه حتى وقف عليه، وأمر بنقضه وحمله إلى مدينة السلام، وكان أرمائيل يطلق الأسارى ويسكنهم الجبل الغربي من قرية مندان. فبقي على ذلك من أحواله ثلاثين حوّلًا يعتق الأسارى، وقرية مندان على جبلين بينهما وادٍ فيه ماء عذب

غزير لا ينقطع شتاء ولا صيفًا، وعلى حافتي الوادي عيون تنصب إليه، وشجر مشمر فكان كلما أعتق أسيرًا أعطاه دارًا وأسكنه الجبل الغربي، وأمره أن يبني لنفسه بنيانًا ففعل ذلك.

وقيض الله لأرمائيل مطلقًا أتاه فقال: إن أنا طلسمت الطعام الذي تُغذى به هذا الملعون وحبسته في جوفه إلى انقضاء مدته ليتغلغل في جوفه، ويرتفع إلى صدره، ويجري في لهواته، فإذا همَّ بقذفه منعه من ذلك ما أنت صانع بي؟ قال: سل ما أحببت قال: إن أتتك رياسة الناحية أشركتني في رياستك ونعمتك، وعقدت بيننا قرابة لا تنقطع فضمن أرمائيل له ذلك، فطلسم مأكول الملعون ومشروبه في جوفه فهو يتغلغل في صدره إلى انقضاء أيامه.

وتناهى خبر الأسراء إلى أفريزون فسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا، ومضى نحو الجبل وتقرَّر عنده فعل أرمائيل فحباه وعقد له التاج، ورفع درجته، وسمَّاه المصمغان، وقال له بالفارسية، وسَّ مانا كته آزاد كَرْدِي أَي: كم من أهل بيت قد أعتقتهم فأهل المصمغان معروفون إلى يومنا هذا بتلك الناحية، وكان اتفق لأفريزون أن سجن البيوراسف في النصف من ماه مهر، وروز مهر فلما أصبح جعله عيد المهرجان.

ويقال: كان طول أفريزون تسعة أرماح، والرمح بباعه ثلاثة أبواع، وعجزه ثلاثة أرماح، وعرض صدره أربعة أرماح، ووسطه رمحين.

وقال محمد بن إبراهيم: كنت مقيمًا بطبرستان في خدمة موسى بن حفص الطبري في أيام المأمون إذ ورد عليه قائد من قواد المأمون يأمره بالشخص مع موسى بن حفص إلى موضع البيوراسف بقرية الحدادة في سنة ٢١٧، والوقوف على أمره، وتعريف صحة الخبر قال: فوافينا قرية الحدادة فلما قربنا

من الجبل الذي فيه البيوراسف إذا نحن بذئبة في عظم البغال، وطيور أمثال النعام في خلق الفصلا، وإذا قلة الجبل مغشاة بالثلج، ودود عظام كأنها جذوع تنحط عن هذا الثلج إلى القرار فتعدو عليها تلك الطيور فتبتلعها فلم نهتد إلى قلة الجبل، ولم نعرفه.

فبينما نحن كذلك إذا شيخ قد أتانا فسائلنا عما قدمنا له فعرفناه الخبر، وإذا على الجبل حوانيت كثيرة فيها قوم من الحدادين حول تلك القلة، عليهم نواذب يضربون مطارقهم على سنداناتهم ساعة بعد ساعة، ويتكلمون بكلام يهجسون به موزون عند ضربهم لا يفترون لحظة.

فسألنا الشيخ عن هذه الحوانيت، فقال: هؤلاء الحدادون طلسم على البيوراسف لئلا ينحل من وثاقه وأنه لدائبا يلحس وثاقه وسلاسله، فإذا ضربت هذه المطارق عادت إلى ما كانت عليه من الغلظ، فإن أحببتم الوقوف عليه وعلى هذا الحيوان المحبوس أريتمكم برهان ذلك؟ فقال له القائد: ما جئت لغير هذا الذي وصفت، فأخرج لهم الشيخ سلما مخروزا من الصرم وسكك حديد، وجمع شُبَّان القرية حتى صعد منهم من صعد ذلك السلم من قرار القلة إلى مقدار مائة ذراع في الجبل، ثم أَرانا من الناحية الشرقية في القلة عند مطلع الشمس جوبة عظيمة وعليها أسكفة باب حديد عليه مسامير من حديد مذهبة مكتوب عليها بالفارسية على كل مسمار ما أنفق عليه وفوق الأسكفة كتابة تخبر أن على القلة سبعة أبواب من حديد مصاريع، على كل مصراع أربعة أقفال، قد كتب على كل عضادة منها له أمد يجري إلى غايته ونهاية لا يعدوها فلا يعرض خلق لفتح شيء منها فيهجم من هذا الحيوان على الإقليم آفة لا تُدفع لكم عنها، ولا حيلة لكم في صرفها.

فقال موسى بن حفص: ويحكم فحيوان منذ آلاف سنين يبقى بغير قوت، فقال الشيخ: طعامه القديم الذي تغذى به مطلسم في جوفه، فهو يتغلغل في

صدره ويرتفع إلى لهواته حتى يمتلئ منه، قد منع من إخراجه فذلك غذاؤه، فانصرفوا ولم يحدثوا شيئاً، وكتب بخبره إلى المأمون فكتب ألا يعرض له.

وعن رجل من كلب قال: كان الضحاك غيوراً فركب إلى الصيد فجاء أفريدون في خيله فاحتوى على داره، فلما انصرف الضحاك نظر إلى أفريدون في داره، ومع نسائه فأدركته الغيرة وغشي عليه، وسقط عن دابته فوثب عليه أفريدون فأوثقه، ثم تتبع عماله فأوثقهم، وذلك ماه مهر، وروز مهر فصيره يوم المهرجان، وأخذ المصمغان.

فقال: إنك كنت شر عماله، وكنت صاحب الذبيح فأذبحك كما ذبحتهم فقال: إن لي بلاء قال: وما هو؟ قال: أمرني بذبح اثنين فكنت أعتق واحداً في كل يوم، قال: وأين هم؟ قال: اركب حتى أريكهم فركب معه وسارا حتى أشرف على جبال الديلم والشرز، وقد توالدوا وتناسلوا، فقال: هؤلاء كلهم عتاقى، فقال أفريدون: وسى مانا كته آزاد كردي قد ملكتك عليهم فأعطاه مملكة دُنياً ولم يزل الضحاك عنده موثقاً ستة أشهر ثم قتله يوم النيروز فقالت الأعاجم: امروز ذو كروز أي: استقبلنا الدهر بيوم جديد فاتخذوه عيداً.

وعن القاسم بن سليمان وقال: أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت كانوا ملوكاً جبابة فتفكر قرشت يوماً فقال: تبارك الله أحسن الخالقين فخلقه أزدها فله سبعة رؤوس وهو بدنباوند محبوس.

وزعم بعض المحدثين أن المحبوس بدنباوند صخر الجني الذي أخذ خاتم سليمان بن داود فلما رد الله -جل وعز- على سليمان ملكه حبسه في جبل دنباوند، وأنشد للطائي:

مانال ماقدنال فيرعون ولا هامان في الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحّاك في مَطَوَاتِهِ بالمالمين وأنت أفريدونُ

وذكر عليُّ بن رَئِن أنه وجَّه إلى هذا الجبل من يتعرَّف خبره من الديالة والطبرية فذكروا أنهم صعوده في يومين وليلتين، وبعض اليوم الثالث فوجدوا قلَّته مساحةً نحوًا من ثلاثين جريب أرضٍ على أنها من بعيد ترى بمنزلة قبةٍ منخرطة في رأي العين، وإن عليها رملاً تغيب فيه الأقدام، وأنهم لم يروا عليها دابةً، ولا يبلغها طائر ولا حيوان؛ من شدة البرد، وعواصف الرياح، وإنهم وجدوا في قلَّتها ثلاثين نقبة يخرج منها الدخان الكبريتيُّ، ورأوا على طرف تلك النقبة كبريتاً أصفر كأنه الذهب، وحملوا منه إلينا جُرباً.

وزعموا أنهم رأوا الجبال حوله مثل التلال، وأنهم نظروا إلى البحر فحزروه نهراً صغيراً، وبين البحر والجبل زيادة على عشرين فرسخاً.

القول في قزوين وزنجان وأنهر

قال بكر بن الهيثم: كان حصن قزوين يسمّى بالفارسيّة: كَشُوِين، ومعناه الحُدُّ المحفوظ وبينه وبين الدَّيْلَم جبل ولم يزل فيه لأهل فارس مقاتلة من الأساورة يرابطون فيه، فيدفعون الديلم إذا لم يكن بينهم هدنة، ويقال: إنهم نزلوا قرية يقال لها: سَسِين فقالوا: جَشْ اَيْن، ثم دخلوا قرية يقال لها فاسقين فقالوا: بَسْ اَيْن، ثم دخلوا قرية سَرْوِين فأنذر صاحب الجيش قال: سَرْوِين، وكانت دَسْتَبِي مقسومة بين الريّ وهمدان فقَسِمَ منها يدعى: دَسْتَبِي الريّ، وهو مقدار كذا وكذا قرية، ومنها ما قد حازه السلطان أعزّه الله في هذا الوقت لنفسه واستخلصه.

وكان سبب حيزه دخول اذكوتكين بن ساتكين التركيّ قزوين، وتغلّبه عليها وأسره محمّد بن الفضل، وقبض هذه الضياع عنه.

وقسم منها يدعى: الهمدانيّ، وكانت جبايتها إلى همدان حتى كُورَت قزوين، وكان العدل بقزوين من جهة طاهر بن الحسين، والجور بهمدان من قبل موالي المعتصم بالله أمير المؤمنين فتظلم رجل يقال له: محمّد بن ميسرة من رجل آخر من أهل قزوين يدعى أحمد بن النضر بن سعيد، فوجّه وفدّه إلى نيسابور يسأل الكُتّاب في نقل رستاق نَسَا وسلقانروذ إلى قزوين، فكتب صاحب خراسان بذلك فتقلّت إلى قزوين.

وكان المغيرة بن شعبة والي الكوفة، وجريز بن عبد الله والي همدان، والبراء بن عازب والي قزوين، ولأه جريز بن عبد الله، وأمره أن يسير إليها فإن فتحها الله على يده غزا الديلم منها، وإنما كان مغزاهم قبل ذلك من دَسْتَبِي، ولم يكن بقزوين موضع بناء إلا مدينتها الداخلة، فإنها كانت من بناء سابور ذي الأكتاف في هذا الذي قد وصفناه من مصيره إلى قزوين، فسار البراء بن

عازب، ومعه حنظلة بن زيد الخيل حتى أتيا أبهر فأقام على حصنها، وهو حصن بناه سابور ذو الأكتاف، وإنه بنى مدينة قزوين فكان بناؤه لمدينة أبهر على عيون سدّها بجلود البقر والصوف، واتخذ عليها دكة وأنشأ الحصن عليها فقاتله أهل أبهر، ثم طلبوا الأمان على مثل ما آمن عليه حذيفة أهل نهاوند، ثم غزا أهل حصن قزوين فأناخ عليها، فلما رأوا ذلك طلبوا الصلح فعرض عليهم مثل ما أعطي أهل أبهر فنفروا من الجزية، وأظهروا الإسلام.

ف قيل: إنهم نزلوا على ما نزل عليه أساورة البصرة من الإسلام على أن يكونوا مع من شاءوا فنزلوا الكوفة، وحالفوا زُهرة بن حويّة فسُموا همراء الديلم.

وقيل: إنهم أسلموا وأقاموا مكانهم فصارت أرضهم عُشرية، كما اشترطوا فرتب البراء بن عازب طليحة بن خويلد الأسديّ مع خمسمائة فارس على دستى وقزوين فتناسلوا هناك، فأولادهم وأولاد أولادهم إلى اليوم فيها قد توارثوا الضياع، وكانت قبالة من السلطان في أيديهم الخمسين السنة، والأقل والأكثر إذ كانت أرضين وضياعاً لا حق لأحد فيها، وهم عمروها وأجروا أنهارها، فسُموا تُنّاوها متقبّلين؛ لأنهم تقبلوا بضياعهم من السلطان، وأنشد رجل من أهل قزوين يحثُّ ابنه، وكان غازياً مع البراء بن عازب:

قَدْ تَغَلَّمُ الدِّيلَمُ إِذْ تُحَارِبُ أَنْ قَدْ أَتَى فِي جَيْشِهِ ابْنُ عَازِبٍ
وَأِنْ ظَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُفْرًا فَالْجَيْشُ بَيْنَ يَدَيْهِ

ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا إليه الإتاوة، وغزا الجليل، والبَبر، والطَيْلَسَان، وفتح زَنْجَانِ عَنوة، ووَيْيَ الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط الكوفة لعثمان بن عفّان، فغزا الديلم مما يلي قزوين، وغزا آذربيجان، وجيلان، ومُوقان، والبَبر، والطَيْلَسَان، ثم انصرف، ووَيْيَ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بعد الوليد فغزا الديلم، ومَصَر قزوين، وكان موسى الهادي لما

صار إلى الريّ أتى قزوين فأمر ببناء مدينة بإزائها فهي تعرف بمدينة موسى، وابتاع رُستَم أبَادَ ووقفها على مصالح المدينة، وكان عمرو الروميّ يتولّاها، ثم تولّاها ابنه محمّد بن عمرو، وبنى المبارك التركيّ بها مدينة فهي منسوبة إليه، ودخلها الرشيد وقت اجتيازه إلى خراسان فنظر إلى غزوهم، ومجاهدتهم للعدوّ، فبنى فيها مسجد جامعها، ووقف عليه حوانيت ومستغلات، وخط عنهم خراج القصبة، وجعلها عشرة آلاف درهم.

وروى أبو مجالد الصنعاني، قال: قزوين وعسقلان إحدى العروسين، وشهداؤها ترف يوم القيامة إلى الله زفًا، وروى أبو هريرة، وابن عباس قالا: كنا عند رسول الله ﷺ فرفع بصره إلى السماء كأنه يتوقع شيئًا، ثم بكى حتى جرى دموعه على خده، وجعل يقطر من أطراف لحيته وهو يقول: «رحم الله إخواني بقزوين» قلنا: يا رسول الله ومن إخوانك بقزوين الذين رقت لذكرهم؟ فقال: «إخواني بقزوين وهي من أرض الديلم، وستفتح على أمّتي في آخر الزمان؛ فتكون رباطًا لطوائف من أمّتي فمن أدرك ذلك الزمان فليأخذ بنصيبه من فضل رباط قزوين؛ فإنه يستشهد منها قوم يعدلون شهداء بدر».

وبعث الحجاج بن يوسف إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلموا أو يقرّوا بالجزية؛ فأبوا فأمر أن تصور له الديلم سهلها وجبلها وعقابها وغياضها؛ فصورت له فدعا من قبله من الديلم فقال: إن بلادكم قد صورت لي فرأيت فيها مطعمًا فأقرّوا لي بما دعوتكم إليه قبل أن أغزيكم الجنود فأخرب البلاد؛ وأقتل المقاتلة، وأسبي الذرّة.

فقالوا: أرنا هذه الصورة التي أطعمتك فينا في بلادنا، فدعا بالصورة فنظروا فيها، فقالوا: قد صدقوك عن بلادنا هذه صورتها غير أنهم لم يصورا فرسانها الذين يمنعون من العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو قد تكلفته؛ فأغزاهم الجنود وعليهم محمد ابن الحجاج؛ فلم يصنعوا شيئًا وانصرفوا إلى

قزوين، فابتنى لأهلها مسجدًا ونصب لهم منبرًا، وهو مسجد التوث الذي على باب دار قوم يعرفون بالجنديّة، وحُكي أن عمال خالد بن عبد الله القسري لعنوا علي بن أبي طالب على المنبر، فقام جيش بن عبد الله - وهو من موالي الجنيد، أو بني عمه - فاخترط سيفه، وارتفع إلى العامل فقتله، وقال: لا نحتملكم على لعن علي بن أبي طالب؛ فانقطع بعد ذلك اللعن عنه رضوان الله عليه.

القول في آذربيجان

قال ابن المقفع: آذربيجان أذرباذ بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح، ويقال: أذرباذ بن بيوراسف، وافتتحها المغيرة بن شعبه في سنة ٣٣ عنوة، ووضع عليها الخراج، وأخبرني واقد: إن العرب لما نزلت آذربيجان نزلت إليها عشائرها من المصريين والشاميين، وغلب كل قوم على ما أمكنهم؛ فصار أهلها مزارعين لهم فكانت وَرْثَان منظره فبناها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وأحيا أرضها، وحصّنها؛ فصارت ضيعة، ثم قبضت عن بني أمية فصارت لأم جعفر زبيدة بنت جعفر ابن المنصور، وكان الورثاني من مواليتها، وكانت برزند قرية فعسكر بها الإفشين أيام محاربتة بابك فحصنها وبناها، وكانت المراغة تدعى أفراهرود، وكانت موضع متمرّع لداوب مراون بن محمد والي أرمينية ودواب أصحابه؛ فكانوا يسمونها قرية المراغة، ثم حذف الناس قرية فقالوا: المراغة. وكان أهلها ألجئوها إلى مروان فقبضت مع ضياع بني أمية، وصارت لبعض بنات الرشيد، فلما عاث الوجداء الأزدي وصدقة بن علي مولى الأزدي، وأفسدوا ولي خزيمة بن خازم أرمينية وآذربيجان في خلافة الرشيد فبنى سورها، وحصّنها، ومصرّها وأنزلها جنّدًا كثيفًا، فلما ظهر بابك بأرمينية لجأ الناس إليها؛ فنزلوها وتحصنوا بها، وأما مَرْنَد فكانت قرية صغيرة فحصّنها أبو البعيث، ثم حصنها البعيث، ثم من بعده محمد ابنه، وبنى بها قصرًا، وأمّا أَرْمِيَة فمدينة قديمة يزعم المجوس أن زردشت صاحبهم منها، وكان صدقة بن علي مولى الأزدي غلب عليها وبنى بها قصورًا، وأمّا تبريز فنزلها الرواد الأزدي، ثم الوجداء بن الرواد، وبنوا بها وحصنوها بسور فنزلها الناس معه، وأمّا الميانج وجيلبايا فمنازل الهمدانين، وأمّا كورة برزة فللأوديين، وأمّا نرّيز فكانت قرية لها قصر قديم متشعث، فنزلها مر بن عمرو الموصلّي الطائي فبنى بها وسكنها وولده فصاروا يتولونه دون عامل آذربيجان، وأمّا سراة ففيها جماعة من كنده من ولد من كان مع الأشعث بن قيس.

وروى مكحول الشامي قال: أسرع الأرض خراباً أرمينية. قيل: وما يخرّبها؟

قال: سنايك الخيل. كأني أنظر إلى خلاخيل نساء قيس تضطرب، فدار فيها الخيل.

وحد آذربيجان: من حد بردعة إلى حد زنجان، ومن مدنها بَرْكِرِي وَسَلَّاس ومُوقان وخُويّ ووَرْثان واليَلْقان والمراغة وتَرِيز وتَيرِيز، ويتصل الحد الثاني من الجانب الشرقي ببلاد الديلم والطّرم وجيلان، ومن مدنها بَرْزَة وسابُرْخاست والخنوج والميّاّنج ومَرْنَد وخوي وكولسرة وبرزند، وكانت خراباً فمدّها الإفشين ونزلها، والطريق من برزند إلى ورثان - وهي آخر عمل آذربيجان - ١٢ فرسخاً، ومنها جنزة وجابروان وأرمية مدينة زردشت، والشيز وبها بيت نار آذربجنس وهو عظيم القدر عند المجوس ورستاق السلق، ورستاق سندبايا والبدّ، ورستاق ماينهرج، ورساتيق أرم، وخراج آذربيجان ألفا ألف درهم، وورثان آخر عمل آذربيجان من ذلك الوجه.

القول في أرمينية

قال أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: سُمِّيت أرمينية بأرميني بن لَنْطِي وهو ابن يونان بن يافث.

وحد أرمينية من بردعة إلى الباب والأبواب، وإلى حد الروم من ذلك الوجه وإلى جبل القَبْقُ وملك السَّرِير وملك اللَّكْز، ومن آخر عمل آذربيجان وهو ورثان إلى أول عمل أرمينية ٨ سكك، ومن بردعة إلى تفليس ١٠ سكك وأرمينية الأولى هي السَّيسَجَان و آرَان وتَفْلِس، وافتتحها حبيب بن مسلمة ومنها بَرْدَعَة، وبناها قُبَاذ الأكبر وبنى الباب والأبواب وبناها قصورًا، وإنها سميت أبوابًا؛ لأنها بُنيت على طَرُق في الجبل، وهي ثلاثمائة وستون قصرًا إلى باب اللَّان مائة قصر وعشرة قصور في أيدي المسلمين إلى أرض طَيْرِشَرَان وباقي القصور في أرض فيلان وصاحب السرير إلى باب اللَّان.

وكان منازل الأتراك مدينة الباب فحاربهم سلمان بن ربيعة فاستشهد هو وأصحابه وهم أربعة آلاف، فقال عبد الرحمن الباهلي يذكر سلمان بن ربيعة ودفنه خلف نهر بَلَنْجَر من الباب والأبواب:

وإن لنا قبرين قبر بَلَنْجَر وقبر بصين أستان - يا لك من قبر -؛ فأما الذي بالصين عَمَّتْ فُتُوحه وهذا الذي يُسْقَى به سَبَل القَطْرِ، ومن أرمينية الأولى البيلقان، وقَبْلَة، وشرَوَان، وأرمينية الثانية جُرْزَان و صُغْدَيِل و باب فيروز قُبَاذ واللَّكْز، وأرمينية الثالثة البُسْفَرَجَان، وديبل وسراج طير، و بَغْرُونْد، والنَّشَوِي، وأرمينية الرابعة وفيها قبر صفوان بن المعطل السلمي صاحب رسول الله ﷺ - بينها وبين حصن زياد - عليه شجرة لا يعرف ما هي حملها، يشبه اللوز وطعمه أطيب من الشهد شمشاط وخلاط وقاليقلا وأرجيش وباجنيس، وكانت كور آرَان والسيسجان في مملكة الخزر.

وفي قصة موسى «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» [الكهف: ٦٣] قال الصخرة: صخرة شروان، والبحر: بحر جيلان، والقرية: باجروان.

وبنى قباذ مدينة البيلقان أيضًا ومدينة برذعة ومدينة قبله وبنى سد اللبن وبنى على سد اللبن ثلاثمائة وستين مدينة خربت بعد بناء الباب والأبواب، ثم ملك بعده ابنه كسرى أنوشروان فبنى مدينة الشابران ومدينة مسقط ومدينة كركرة، ثم بنى مدينة الباب والأبواب، وإنما سميت أبواب؛ لأنها بنيت على طرق في الجبل، وبنى بأرض أران أبواب شكي، وأبواب الدودانية وهم أمة يزعمون أنهم من بني دودان ابن أسد بن خزيمة وبنى الدرزوقية، وهي اثنا عشر بابًا كل منها فيه قصر من حجارة وبنى بأرض جرزان مدينة يقال لها: سفدييل وأنزلها قومًا من السغد وأبناء فارس وجعلها مسلحة، وبنى باب اللان وباب سمسخي وبنى قلعة الجردمان، وقلعة سمشلدي وبنى بلنجر وسمندر وخزران وشكي.

وفتح جميع البلاد ما كان في أيدي الروم، وعمر مدينة ديبيل وحصنها وبنى مدينة النشوى وهي مدينة كورة البسفرجان وبنى حصن ويص وقلعًا بأرض السيجان منها قلعة الكلاب وشاهبوش وأسكنها من سياسجيته ذوي البأس والنجدة وبنى الحائط بينه وبين الخزر بالصخر والرصاص وعرضه ثلاثمائة ذراع حتى ألحقه براءوس الجبال ثم قاده في البحر وجعل عليه أبواب حديد فكان يجرسه مائة رجل بعد أن كان يحتاج إلى خمسين ألف رجل.

وفي أخبار الفرس أن أنوشروان لما فرغ من سد ثغر بلنجر، وقيد الفند في البحر وأحكمه سر بذلك سرورًا شديدًا، فأمر أن ينصب له على الفند سرير من ذهب، ثم رقى إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال:

يا رب الأرياب ألهمني سد هذا الثغر وقمع العدو فلك الحمد وأحسن
 مثويتي ورد غرأتي إلى وطني، ثم ركع وسجد، ثم استوى واستلقى على فراشه
 وأغفى إغفاءة فطلع طالع من البحر سد الأفق لطوله وارتفعت معه غمامة
 سترت الضوء وأهوى نحو الفند، فبادر الأساورة إلى قسيهم وانتبه الملك
 فزعاً، فقال: ما شأنكم؟

فقليل له...، فقال: أمسكوا عن سلاحكم فلم يكن الله -جل وعز-
 ليلهمني الشخوص عن وطني اثني عشر حولاً حتى أسد ثغراً يكون مرفقاً
 لعباده وراحة لأهل إقليمه، ثم يسلط عليّ بهيمة من بهائم البحر فتتحى
 الأساورة.

وأقبل الطالع نحو الفند حتى علاه، ثم قال: أيها الملك أنا ساكن من
 سكان هذا البحر، وقد رأيت هذا الثغر مسدوداً سبع مرات وخراباً سبع
 مرات وأوحى الله -جل وعز- إلينا معاشر سكان البحر أن ملكاً عصره
 عصرك وصورته صورتك يبعثه الله لسد هذا الثغر فيسده إلى الأبد، وأنت
 ذلك الملك فأحسن الله مثوبتك وعلى البر معونتك، وأطال مدتك وسكن يوم
 الفزع الأكبر روعتك، ثم غاص في البحر، وكذلك بنى مدينة شروان فأما
 بلنجر -داخل أرض الخزر- فبناها بلنجر بن يافث.

ولما فرغ أنوشروان من الفند الذي في البحر سأل عن ذلك البحر، فقليل
 أيها الملك: هذا البحر يسمى بكردييل، وهو ثلاثمائة فرسخ في مثله، وبيننا وبين
 بيضاء الخزر مسيرة أربعة أشهر على هذا الساحل، ومن بيضاء الخزر إلى السد
 الذي سده أسفنديار بالحديد مسيرة شهرين.

قال أنوشروان: لا بد من الوقوف عليه، قالوا: فليس إليه طريق يسلك،
 وفيه موضع يقال له: دهان شير، وفيه دردور لا يطمع فيه ولا في سلوكه ولا

تنجو سفينة منه، فقال: لا بد من ركوبه والإشراف على هذا الدردور والنظر إلى هذا السد، فقالوا: أيها الملك اتق الله في نفسك ومن معك، فأبى وقال: إن الذي نجاني من الخارج علينا من البحر لقادر أن ينجيننا من دردوره.

فهبت له سفن وركب معه عدة من الزهاد والعباد، ولججوا في البحر أيامًا حتى إذا وافوا موضع الدردور بقوا متحزين لا يرون علمًا يجعلونه منارًا لهم ولا جبالًا يقيمونه أمانة لمنصرفهم فرجعوا على الملك باللوم، فقال أنوشروان: أخلصوا الله نياتكم واضرعوا إليه وابتهلوا إلى الله - عز وجل - ونذر أنوشروان لئن نجاه الله ليصدقن خراج سبع سنين في أهل الفاقة من مملكته فبينما هم كذلك إذ رفعت لهم جزيرة تعلوها الأمواج وفوق الجزيرة تمثال أسد في عظم جبل يدخل الماء في مؤخره وينحط من فيه إلى ذلك الدردور فبينما هم كذلك إذ بعث الله - جل وعز - بقرش سمكة أعظم من التنين ينساب على الماء فظفرت في فم الأسد وسكن الدردور، ونفذت السفن حتى وصل إلى ما أراد وانصرف إلى جرجان وقضى نذره.

وذكر أحمد بن واضح الأصبهاني أنه أطال المقام ببلاد أرمينية، وأنه كتب لعدة من ملوكها وعملها، وأنه لم ير بلدًا أكثر خيرًا ولا أعظم حيوانًا منها، وذكر أن عدة ممالكها مائة وثلاث عشرة مملكة.

منها مملكة صاحب السرير بين اللان وباب الأبواب، وليس إليها إلا مسلكان: مسلك إلى بلاد الخزر، ومسلك إلى بلاد أرمينية وهي ثمانية عشر ألف قرية وأران أول مملكة بأرمينية فيها أربعة آلاف قرية، وأكثرها قرى صاحب السرير.

وذكر أن الباب والأبواب: حائط بناء أنوشروان، وأن طرفًا منه في البحر قد أخرج ركنه من البحر إلى حيث لا يتهيأ الحيلة فيه، ومد سبعة فراسخ إلى

موضع أشب وجبل وعر لا يتهياً سلوكه، وهو مبني بالحجارة المنقورة المربعة لا يقل الحجر الواحد منها خمسون رجلاً، وقد بقيت هذه الحجارة، وأنفذ بعضها إلى بعض بالمسامير وجعل في هذه السبعة الفراسخ سبعة مسالك على كل مسلك منها مدينة قد رتب فيها قوم من المقاتلة من الفرس يقال لهم: السياسيين.

وذكر أن على أهل أرمينية وظائف رجال لحراسة ذلك السور والأبواب، وعلق على كل مسلك باب.

وعرض السور في أعلاه ما يسير عليه عشرون فارساً لا يتزاحمون، وأن بمدينة الباب على باب الجهاد فوق الحائط أسطوانتين من حجر على كل أسطوانة صورة أسد من حجارة بيض، وأسفل منهما حجران عليهما صورة سَبْعَيْن، وقرب الباب صورة رجل من حجر، ما بين رجله صورة ثعلب في فمه عنقود من عنب، وبجنب المدينة صهريج يعرف بصهريج معروف له درجة ينزل بها إلى الصهريج إذا قل الماء، على جنبي الدرجة أسدان من حجارة وعلى أحدهما صورة رجل من حجارة، وعلى باب الإمارة صورة أسدين أيضاً من حجارة، خارج من الحائط يذكر أهل الباب أنها طلسم الحائط.

وقال قلا: امرأة بنت مدينة قال قلا فنسبت إليها، ومعنى ذلك: إحسان قالي، وأما بحيرة الطريخ فلم تزل مباحة حتى ولي محمد بن مروان بن الحكم الجزيرة، وأرمينية فحوى صيدها ثم صارت لمروان بن محمد فقبضت عنه.

وفتح حبيب بن مسلمة لعثمان بن عفان من أرمينية مدناً كثيرة، وولي عبد الله بن حاتم بن النعمان بن عمرو الباهلي من قبل معاوية، ثم وليها ابنه عبد العزيز فبنى مدينة دبل إلى مدينة بردعة، ومدن كثيرة، ففتح حبيب بن مسلمة لعثمان بن عفان من أرمينية: جراح وكسفر، وكسال، وخنان، وسمسخي،

والجر دمان، وكسفى بيس، وشوشيت وبازليت، صلحًا على أن يؤدوا إتاوة عن رءوسهم وأراضيهم، وصالح الصنارية وأهل قلرجيت والدودانية على إتاوة.

وكانت شمكور مدينة قديمة فوجه إليها سلمان بن ربيعة من فتحها، فلم تزل مسكونة حتى أخرجها الساوردية قوم تجمعوا أيام انصراف يزيد بن أسيد عن أرمينية فغلظ أمرهم وكثرت نوائبهم، ثم إن بغا مولى المعتصم بالله عمرها وحصنها ونقل إليها التجار وسماها المتوكلية.

وفتح سلمان بن ربيعة مدينة اليلقان صلحًا، ووجه خيله ففتحت سيسر والمسقوان وأوذ والمصربان والمهرجليان، وهي رساتيق عامرة وفتح غيرها من أران، ودعا أكراد البلاسجان إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم بالجزية وأدى بعضهم الصدقة، ثم سار سلمان إلى مجمع الكر والرّس خلف برديج فعبر الكر ففتح قُبَلَة، وصالحه شكن والقميران وخيزان وملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب ثم أغلقت هذه بعده، ولقيه خاقان في خيوله خلف نهر بلندر فَقَتَلَ رحه في أربعة آلاف من المسلمين، وكان سلمان أول من استقضى بالكوفة أقام أربعين يومًا لا يأتيه خصم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب، قالوا: ولما فتح حبيب ما فتح من أرض أرمينية كتب بذلك إلى عثمان فوافاه كتاب نعي سلمان فهم بأن يوليه، ثم رأى أن يجعله غازيًا لثغور الشام والجزيرة، فولى ثغر أرمينية حذيفة بن اليمان العبسي، ثم عزله وسار حبيب راجعًا إلى الشام، فكان يغزو الروم، ونزل حمص فنقله معاوية إلى دمشق فتوفي بها، وولى أرمينية المغيرة بن شعبة ثم عزله، وولى القاسم بن ربيعة الثقفي وَوَلَّى الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب أرمينية وآذربيجان، ثم وليها غير واحد، إلى أن وليها مروان بن محمد ففتح بلاد الخزر، وأمعن فيهم.

ثم جاءت الدولة العباسية فولى أبو جعفر الجزيرة وأرمينية في خلافة أخيه أبي العباس ثم استخلف، وولى يزيد بن أسيد السلمي، وفتح باب اللان، ورتب فيه رابطة من أهل الديوان ودوخ الصنارية حتى أدوا الخراج.

ثم إن أهل أرمينية استعصوا في ولاية الحسن بن قحطبة الطائب بعد عزل يزيد بن أسيد فبعث المنصور بالإمداد، وعليهم عامر بن إسماعيل فأوقع الحسن بموشايل وكان رئيسهم وفرق جمعه واستتب له الأمر.

وهو الذي نسب إليه نهر الحسن باليلقان وباغ الحسن ببرذعه والضياح والمعروفة بالحسنية، ثم ولى بعد الحسن عثمان بن عمارة، ثم روح بن حاتم المهلبى ثم خزيمة بن خازم، ثم يزيد بن مزيد الشيباني، ثم عبيد الله بن المهدي، ثم الفضل بن يحيى، ثم سعيد بن سلم، ثم محمد بن يزيد بن مزيد.

وكان خزيمة أشدهم ولاية وهو الذي سن المساحة بدليل ونشوى ولم يكن قبل ذلك، ثم وليهم خالد بن يزيد بن مزيد في ولاية المأمون، ثم ولى المعتصم بالله الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني الذي واصل بطارقة أرمينية، ولأن لهم حتى خرجوا عليه، ثم لم يزل يتولى أرمينية عمال كانوا يرضون اليسير من أهلها، حتى ولى المتوكل فبعث إليها يوسف بن محمد بن يوسف المروزي لستين من خلافته.

وقالوا: أعظم حيوان أرمينية الشاء والثيران الكلاب وبراذينها صغار، وكذلك جماها صغار تكاد صدورها تصيب الأرض تشبه إبل الترك.

وجبل القبق فيه اثنان وسبعون لساناً، كل إنسان لا يعرف لغة صاحبه إلا بترجمان، وطوله خمسمائة فرسخ وهو متصل ببلاد الروم إلى حد الخزر واللان، ويتصل ببلاد الصقالبة، وفيه أيضاً جنس من الصقالبة والباقون أرمن.

وقالوا: إن هذا الجبل - جبل العرج الذي بين المدينة ومكة - يمضى إلى الشام ويتصل بلبنان من حمص وسنير من دمشق، ثم يمضى فيتصل بجبال أنطاكية والمصيصة، ويسمى هناك: اللكام، ثم يتصل بجبال ملطية وشمشاط وقاليقلا إلى بحر الخزر، وفيه الباب والأبواب ويسمى هناك: القبق.

قالوا: ومن العجائب بيت بقاليقلا في بيعة للنصارى إذا كان ليلة الشعانين يخرج من موضع من البيت تراب أبيض إلى الصباح، فإذا كان الصباح انضم موضعه إلى قابل من ذلك الوقت فيأخذه الرهبان فيدفعونه إلى الناس، وخاصيته للسموم والعقارب والحيات يداف منه وزن دائق بهاء، ويشربه الملدوغ والمسلوع فيسكن على المكان، وفيه أعجوبة أخرى، وذلك أنه إن بيع هذا التراب وأخذ عليه شيء من عرض الدنيا لم يتتفع صاحبه، لم يبرئه من وجعه.

ومن عجائب أرمينية بحيرة خلاط فإنها عشرة أشهر لا يرى فيها ضفدع ولا سرطان ولا سمكة، ثم يظهر السمك بعد ذلك شهرين، وسمكه كله مستراث.

وقال أبو المنذر: اتخذ الطلسمات كوش بن حام بن نوح، والضحاك ذو الحيتين، وذو القرنين، ويوسف بن يعقوب، وموسى بن عمران، وحلوان العمليقي، وبليناس الرومي، وقانبوس.

وحد آذربيجان إلى الرس والكر بأرمينية، ومخرج الرس من قاليقلا، ويمر بأران فيصب فيه نهر أران ثم يمر بورثان، ويمر بالمجمع فيجتمع هو والكر وبينهما مدينة البيلقان ويمران جميعاً فيصبان في بحر جرجان.

والرس واد عجيب وفيه أنواع من السمك وفيه يكون الشورماهي ولا يكون إلا في هذا الوادي ويجيء في كل سنة في وقت معلوم كمثمل أصناف

حيثان البحر وقواطع السمك فإنها تجيء في أوقات معلومة كالاستور والجراف والبرستوج فإن هذه الأنواع تأتي البصرة من أقاصي البحار تستعذب الماء في ذلك الإبان.

إلا أن البرستوج يقبل عليهم من الزنج يستعذب الماء من دجلة البصرة يعرف ذلك جميع البحرية، وهم يزعمون أن الذي بين البصرة و عمان أبعد ما بين البصرة والزنج، وإنما غلط الناس فزعموا أن الصين أبعد؛ لأن بحر الزنج حفيرة واحدة عميقة واسعة وأمواجه عظام، ولذلك البحر ريح تهب قوية، ومن عمان إلى جهة الزنج شهران، فلما كان البحر عميقاً والرياح قوية والأمواج عظيمة والخيرات ببلاد الزنج قليلة، وكان الشراع لا تحط، وكان سيرهم مع الوتر ولم يكن مع القوس، ولا يعرفون الكنب والمكا.

صارت الأيام التي تسير فيها قسمة الزنج أقرب، فالبرستوج يقطع أمواج البحر ويسبح من الزنج إلى البصرة، ثم يعود ما فضل عن صيد الناس إلى بلاده... فتبارك الله أحسن الخالقين.

وإنما عرف الشورماهي في هذا النهر من بين السمك لطيبه ولذته وكثرة دسمه ورطوبة لحمه.

قالوا: ولنا المن الكثير وهو الترنجيين، ولنا القرمز الذي ليس يشركنا فيه أحد، وهي دودة حمراء تظهر أيام الربيع فتلتقط، ثم تطبخ ويصبغ بها الصوف.

والأشق: دابة تكون بأرمينية شبه السنور لينة المفاصل وبرة الجلد ويبلغ الثوب جملة، وأنيابها جيدة للمحبة يؤخذ أنيابها ومخالبها فتجفف وتسقيه من تحب؛ فإنه يحبك حباً شديداً.

ولنا القوة الكثيرة وبها معدن الزبيق والقلقند والقلقطار والأسرب ولهم الثيران الأرمينية والشاه بلوط والخلنج الكثير، ويتخذون منه عجائب، وتقطع هذه من غيضة ملتفة بناحية برذعة كثيرة الشجر والنبات تتصل بالخزر وتمر إلى ناحية خوارزم تسمى غيضة الرحمن وتقرير أرمينية ألفا ألف وثلاثة وثلاثون ألفا وتسعمائة وخمسة وثمانون درهما.

وخارج الباب: ملك سور واللكز، وملك اللان، وملك فيلان، وملك المسقط وصاحب السرير، ومدينة سمندر.

ومن جرجان إلى خليج الخزر إذا كانت الريح طيبة ثمانية أيام، والخزر كلهم يهود، وإنما هودت من قريب، ومن بلاد الخزر إلى موضع السد شهران قال الله - جل وعز - في سورة الكهف: ﴿وَسْأَلُونَا عَنْ ذِي الْفُرْقَيْنِ قُلْ سَأَلْتُمُونِي عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لِي بِهِ كَلِمَةٌ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٦] إلى قوله: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤] قال كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون شيئا أخضر إلا أكلوه ولا شيئا يابساً إلا احتملوه فقال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَسِرَ فَأَعِثُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. قالوا: ما الذي تريد قال: زبر الحديد يعني قطع الحديد ثم أمر بالحديد فضرب منه لبناً عظماً وأذاب النحاس، ثم جعل ملاط اللبن النحاس، وبنى به الفج وسواه مع قلتي الجبل، فلما فرغ منه أمر بالنحاس فأذيب وأفرغ عليه من فوقه فصار شبيهاً بالمصمت، فلما فرغ منه جاز تلك الأرض فقطعها في أربعة أشهر منصرفاً.

وفي الخبر أنه لما انتهى إلى موضع السد اجتمع إليه خلق كثير، فقالوا له:

يا أيها الملك المظفر إن خلف هذا الجبل أمّا لا يحصيهم إلا الله - جل وعز - وقد أخبروا علينا بلادنا وزرعنا.

قال: وما صفتهم.

قالوا: هم قوم قصار صلع عراض الوجوه.

قال: وكم صنف هم؟

قالوا: هم أمم كثيرة لا يحصيهم إلا الله.

قال: وما أساميهم؟

قالوا: من قرب منا فهم ست قبائل: يأجوج ومأجوج وتاويل ووتاريس ومنسك وكماري وكل قبيلة من هؤلاء مثل جميع أهل الأرض، فأما من كان في البعد منا فإننا لا نعرف قبائلهم، وليس لهم إلينا منفذ إلا من هذا الوجه، وهذا الفج فهل نجعل لك خرجاً على أن تسده عليهم وتكفينا أمرهم.

قال: فما طعامهم؟

قالوا: يقذف البحر إليهم في كل عام سمكتين مسيرة عشرة أيام كل سمكة منهما.

قال: فبنى هذا السد.

وفي الخبر قال: السد طريقة حمراء من نخاس وطريقة سواد من حديد، ويأجوج ومأجوج أربع وعشرون قبيلة فكانت قبيلة منهم في الغزو وهم الترك فردم ذو القرنين السد على ثلاثة وعشرين قبيلة.

قال مقاتل بن سليمان: وإنما سموا الترك لأنهم تركوا خلف الردم، قالوا: وإذا نزل عيسى عليه السلام، وقتل الدجال الملعون ظهر يأجوج ومأجوج، فيقوم عيسى في المسلمين خطيباً فيحمد الله ويشني عليه ويقول: اللهم انصر القليل في طاعتك على الكثير في معصيتك فينصر الله المؤمنين عليهم.

وفي خبر عن وهب بن منبه قال: هم قوم طول أحدهم مثل نصف الرجل المربع منا، لهم مخالب في مواضع الأظفار في أيدينا ولهم أضراس وأنياب كالسباع، ولهم آذان عظام يفترشون الإحدى ويلتحفون بالآخرى وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا وقد عرف أجله وذلك أنه لا تموت الأنثى حتى يخرج رحمها ألف ولد، وكذلك الرجال منهم.

وهم يرزقون التين في الربيع ويستمطرونه لحينه، كما يستمطر الغيث لحينه، وهم يتداعون تداعي الحمام، ويعوون عواء الذئب، ويتسافدون حيث ما التقوا كتسافد البهائم.

ولما عاين ذو القرنين ذلك منهم انصرف إلى ما بين الصدفين ففاس ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق، فوجد بعد ما بينهما فرسخاً، وهو ثلاثة أميال، فحفر له أساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه ميلاً، وجعل حشوه زبر الحديد أمثال الصخور، وطينه النحاس يذاب فيصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض، ثم علاه وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر فكانه برد محبر من صفرة النحاس وحرته وسواد الحديد فلما فرغ منه وأحكمه انصرف راجعاً.

وقال ابن عباس: الأرض ستة أجزاء: فيأجوج ومأجوج منها خمسة أجزاء، وسائر الخلق في جزء واحد.

وقال المعلي بن هلال الكوفي: كنت بالمصيصة فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربما مكث أيام وليالي لا يصفق أمواجه، ويسمع له دوي شديد فيقولون: ما هذا إلا لشيء قد آذى دواب البحر فهي تضح إلى الله - تعالى - قال: فتقبل سحابة حتى تغيب في البحر، ثم تقبل أخرى وأخرى حتى عد سبع سحائب، ثم ترتفع إلى جانب آخر تنهزم تتبعها التي تليها والريح تصفقها، ثم يرتفعن جميعاً في السماء، وقد أخرجن شيئاً يرون أنه التين حتى يغيب عنا، ونحن نراه ورأسه في السحاب وذنبه يضطرب فيطرحه إلى يأجوج ومأجوج فيسكن البحر لذلك.

وقال المنصوري: إن السحاب الموكل بالتين يخطفه حيثما وجده، كما يخطف الحجر المغناطيس الحديد، حتى صار لا يطلع رأسه خوفاً من السحاب، ولا يخرج رأسه إلا في الفرد إذا صحت السماء، وربما احتمله السحاب فانفلت منه ووقع في البحر، فتجئ السحابة بهدة ورعد وبرق فتدخل في البحر فتستخرجه ثانية، فربما مر في طريقه بالشجر العادية فيقتلعها، والصخرة العظيمة فيرفعها.

وكان في بعض زمان حكيم يقال له: بقراطيس، فشا الموت في قرى هناك ففحص عنه بقراطيس هذا فإذا بتين قد أخرجته السحاب وانفلت منه فوق وتن، فأبلغ ذلك إلى أهل القرى، فذهب بقراطيس فجمع الدراهم وجبى أهل القرى واشترى بها ملحاً فألقاه عليه حتى سكن ذلك التين وأسلم الله أهل البلاد.

قال بقراطيس: فذهبت إليه لأنظر ما هو فوجدت طوله فرسخين وعرضه أذرع كثيرة، وجسمه مستدير، ولونه مثل لون النمر مفلس كفلوس السمك، وله جناحان عظيمان كأجنحة السمك بالقرب من رأسه الذي يتشعب منه الرؤوس، وهذا الرأس على خلقه رأس الإنسان مثل التل العظيم

وله إذنان طويلتان عريضتان كأذان الفيل ويتشعب من ذلك الرأس ستة أعناق
طول العنق عشرة أذرع على كل عنق رأس شبيه برأس الحية.

وحدث سلام الترجمان أن الواصل بالله... إلخ.

قال سلام: فخرجنا من سر من رأى من عند الواصل ورجعنا إليه بعد
خروجنا بثمانية وعشرين شهراً.

القول في طبرستان

قالوا: سميت طبرستان؛ لأن قومًا من جيلان دخلوها وكان بها شجر كثير فكانوا لا يرون الأرض؛ لكثرة الشجر والتفافه، فقالوا: لو قطعنا هذا الشجر بالفتوس ونزلناها وعمرناه، ففعلوا ذلك فسميت على كلامهم طبرستان من طريق الفتوس.

وقال: البر والطيلسان والطالقان والديلم وخراسان إلا أهل خوارزم من ولد أشبق بن إبراهيم -عليه السلام-.

ويقال: إنه اجتمع عند كسرى في حبوسه خلق كثير لم ير أن يقتلهم فشاور فيهم:

ف قيل له: غريهم.

فقال: انظروا موضعًا أحبسهم فيه، فنفضوا البلاد فوقعوا على جبال طبرستان فأخبروه بذلك، فبعث بهم إلى ذلك الجبل وخلاهم فيه وأخذ عليهم الباب -هو يومئذ لا ساكن فيه- ثم تركهم حولًا لا يسأل عنهم فلما كان بعد الحول وجه إليهم من يقف على خبرهم، فأشرف رسوله عليهم فكلّمهم، فإذا هم أحياء فساء لهم.

ما الذي تريدون؟

فقالوا: طبرها طبرها أي: نريد فتوسًا نقطع بها الشجر فأخبر كسرى بذلك فأمر بالبعثة إليهم فقطعوا الشجر، وبنوا ثم أعاد الرسول من قابل فلما أشرف الرسول عليهم فسألهم عن حالهم، فقالوا: زنان زنان أي: نريد نساء فأخبر بذلك كسرى فأمر بمن في حبوسه من النساء فبعثت إليهم فتناسلوا

فعرّب الناس هذه الكلمة فقالوا: طبرستان، وإنما هي طبرزنان: أي الفثوس والنساء.

ومدينة طبرستان آمل، وبها منزل الولاية وهي أكبر مدنها، ثم ممطير وبينهما ٦ فراسخ، ثم ترنجة - مدينة صغيرة - وهي من ممطيرة على ٦ فراسخ، ثم سارية، ثم طميش وهي من سارية على ١٦ فرسخًا، وهي على حدود جرجان.

هذا آخر طبرستان من ناحية خراسان، ومن ناحية الديلم على ٥ فراسخ من آمل مدينة تسمى ناتل، وإذا جرت ناتل فخالوس، وهي من ثغر الديلم هذه من مدن السهل.

فأما مدن الجبل فمدينة يقال لها: الكلار، وهي أيضًا ثغر، ثم تليها مدينة يقال لها: سعيدآباد صغيرة إلا أن فيها منبر، ثم الرويان وهي أكبر مدن الجبل، وفي الجبل من ناحية خراسان مدينة يقال لها: اللارز والشرز ودهستان فإذا جرت اللارز وقعت في جبال ونداذ هرمز، فإذا جرت هذه الجبال وقعت في جبال شروين وهي من مملكة ابن قارن، ثم الديلم، ثم جيلان.

وقال البلاذري: كور طبرستان ثمان كور: سارية آمل، ومن رساتيق آمل: أرم خواست الأعلى وأرم خواست الأسفل والمهروان والأصبهذان ونامية وطميش، وبين سارية وشلنبة على طريق الجبال ٣٠ فرسخًا، وعامتها من جرجان وبعضها من طبرستان، وبين سارية ونامية وطميش ٢٠ فرسخًا، وبين سارية والمهروان ١٠ فراسخ، وبين سارية والبحر ٣ فراسخ، وبين آمل وسارية ١٣ فرسخًا، وبين آمل والرويان ١٢ فرسخًا، وبين آمل وخالوس - وهي إلى ناحية جيلان - ٢٠ فرسخًا، وبين جيلان والرويان ١٢ فرسخًا.

ومن مدن الرويان: خالوس والارز والشرز وونداشورج ثم جيلان، وطول طبرستان من جرجان إلى الرويان ٣٦ فرسخًا وعرضها ٢٠ فرسخًا،

وأول من دفعت إليه السفوح شروين... بنداذ هرمزد، وخرج بنداذ هرمزد إلى الرشيد في الأمان فصيره أصبهذ خراسان، والمسالح فيما بين أول طبرستان إلى حد الديلم إحدى وثلاثون مسلحة في كل مسلحة ما بين مائتي رجل إلى الألف رجل.

وأول مدن طبرستان مما يلي جرجان طميش وهي على حد جرجان، وعليها درب عظيم ليس يقدر أحد من أهل طبرستان أن يخرج منها إلى جرجان إلا في ذلك الوجه؛ لأن حائطاً ممدوداً من الجبل إلى جوف البحر من جص وآجر، وكان كسرى أنوشروان بناه ليحول بين الترك والغارة على طبرستان.

وفي طميش خلق كثير من الناس ومسجد جامع ومنبر وقائد مرتب في ألفي رجل، وبعدها في السهل مدينة المهروان وفيها أيضاً مسجد ومنبر، وبعدها مدينة سارية وفيها منبر ومسجد، وخارج المدينة ألف جريب أرض لبنداذ هرمزد على باب مدينة سارية مما كان اشتراها من الصوافي من جرير بن يزيد، وإلى طبرستان وبعدها مدينة آمل وفيها مسجد ومنبر ودار الإمارة، وبها يعمل الفرش الطبري، وفيها مجمع أكثر الناس وبعدها ممطير فيها مسجد ومنبر.

وفيما بين آمل وممطير رساتيق كثيرة قرى عامرة، وزعم أن الوريان ليست من طبرستان، وإنما كورة مفردة برأسها وبلاد واسعة كثيرة الأنهار والعيون والخيرات، ويحيط بها جبال عظيمة وممالك كثيرة، وكانت فيما مضى من مملكة الديلم فصارت لعمر بن العلاء صاحب الجوسق بالري بالأزدان، وبني فيها مدينة ووضع منبراً.

وبين جبال الوريان والديلم رساتيق كثيرة يخرج من القرية ما بين الأربعمئة إلى الألف رجل، ويخرج من جميعها أكثر من خمسين ألف مقاتل وخارجها على ما وظف الرشيد أربعمئة ألف وخمسون ألف درهم.

وفي بلاد الرويان مدينة يقال لها: كجه بها مستقر الوالي، وجبال الرويان متصلة بجبال الري وضياعها، ويدخل إليها مما يلي الري، وبين مدينة الري وشالوس ٨ فراسخ.

وعلى حد من حدود الديلم مدينة يقال لها: شالوس في نحر العدو، وفيها منبر ومسجد.

ويأزائها مقابل كجه مدينة يقال لها: الكبيرة وفيها أيضًا منبر.

ومن مدينة شالوس إلى مدينة محدثة في بلاد الديلم - فيها مسجد ومنبر - ٤ فراسخ.

وسفوح هذا الجبل متصلة بالبحر فيها المستامنة الذي استأمنوا إلى عمر بن العلاء؟، وفيها قوم لهم ديانة قد بنوا المساجد وتزوج إليهم أهل شالوس، ووراء هؤلاء قوم من الديلم لم يعطوا طاعة قط، وقراهم وجبالهم متصلة بجبال أرمينية والباب والأبواب، ثم القرية التي يجتمع فيها الولاة، ومنها يغزون الديلم يقال لها: مزن وكان المازيار بن قارن لما فرغ من قتل عمومته وأكابر ولد بنداسفجان وقوادهم، لم يمكنه قتل ولد شروين بن شهریار؛ لكثرة ما لهم ورجالهم، ولأن مستقر شروين من جبال طبرستان مما يلي بلاد قومس.

وكان بين جبال شروين وجبال بنداذ هرمزد وبنداسفجان دروب ومضايق ممتعة، وفي تلك الدروب تسلك القوافل للتجارات إلى خارج طبرستان، فأظهر مازيار لولد شروين البر والإكرام والميل، وإذا قدم القادم

منهم عليه وصله وبره وكساه فأنسوا به وسكنوا إليه ثم إنه أظهر أنه يريد الغزو غزو الديلم وفتحها، ووضع المنابر وبنى المساجد في مدنها، ووضع بفریم منبراً، ومكث على ذلك نحواً من سنة وكتب إلى عامل خراسان يسأله أن يبعث إليه بألفي بعير تحمل السلاح والميرة لغزو الديلم فلم يشكوا أنه يريد الديلم.

وكتب إلى ولد شروین يسألهم أن يخرجوا معه وأمر بإخراج منبر إلى أرم ودعا بفقیه من ساریة، وأمر الناس أن يجتمعوا فاجتمعوا، وحضر ولد شروین فخطبهم الفقيه فلما فرغ من الخطبة أمره بالانصراف إلى ساریة، وأمر من حضر من ولد شروین وغيرهم أن يحضروا منزله فحضروا مستبشرين.

فلما صاروا إلى منزله وحضر طعامه أمر بأخذ سلاحهم وقتلهم جميعاً، وترك الخروج إلى الديلم وكتب إلى صاحب جرجان أنه قد استغنى من الخروج نحو الديلم، ثم وجه بعد هذا الوقت بالسري قائداً في عشرين ألف رجل ودفع إليهم المرور والمغاول، وأمر القائد أن يسير حتى يتهيأ إلى الديلم، وقال: إما أن تخرجوا إلى طاعتي أو تدفعون إليّ رهائنكم، وإلا قتلنكم وقلعت منازلكم، فأعطوه الطاعة ودفعوا إليه الرهائن، ثم أمر أولئك المستأمنة أن يخرج منهم عشرة آلاف رجل فيخربوا مدينة الرياسة، ففعلوا ذلك، وهؤلاء المستأمنة في رستاق عظيم يقال له: مزن.

وإلى هذا الموضع كان انتهى عمر بن العلاء، ومنه كانت تغزو ولاية طبرستان الديلم وهم يتصلون بالديلم وقزوین والباب والأبواب وبلاد بابك وهؤلاء المستأمنة إن رأوا للمسلمين قوة كانوا معهم، وإن رأوا للعدو قوة كانوا معهم

وبعد هذا الموضع جبل يتصل بقزوين وبلاد بابك يكون نحوًا من عشرين فرسخًا إلى حيث انتهى الولاية، وعرفاء الديلم وما وراء ذلك لم يوصل إليه فيخبر عنه.

وكانت طبرستان في الحصانة والمنعة على ما هي عليه، وكانت ملوك فارس توليها رجالًا ويسمونه الأصهبذ، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وافتتحت الممالك المتصلة بطبرستان فكان صاحب طبرستان يصالح على الشيء اليسير فيقبل منه لصعوبة المسلك إليها وخشونتها، حتى ولى عثمان بن عفان سعيد بن العاص بن أمية الكوفة سنة ٢٩ هـ.

فكتب مرزيان طوس إليه وإلى عبد الله بن عامر بن كريز وهو على البصرة يدعوهما إلى خراسان على أن يملكه عليها أيهما غلب وظفر فسبق ابن عامر وخرج سعيد فغزا طبرستان ومعه في غزاته الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب -عليه السلام-، ففتح سعيد من طبرستان طميش ونامية، وصالح ملك جرجان على مائتي ألف درهم بغليّة وافية فكان يؤديها إلى غزاة المسلمي، ن وافتتح أيضًا من طبرستان الرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالا.

ثم وَلِي معاوية فولّى طبرستان مصقلة بن هبيرة بن شبيل فتوغل بمن معه في بلاد طبرستان، فلما جاوز المضائق أخذها العدو عليهم ودهدوها الصخور على رؤوسهم فهلكوا أجمعين، وهلك مصقلة فضرب الناس به المثل فقالوا: حتى يرجع مصقلة من طبرستان.

ثم إن عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ولّى محمد بن الأشعث الكندي طبرستان فصالحهم وعقد لهم عقدًا، ثم أمهلوه حتى دخل وأخذ عليه المضيق وقتل ابنه أبو بكر وفضخوه ثم نجا، فكان المسلمون يغزون ذلك الثغر وهم

حذرون من التوغل في أرض العدو، ثم وليّ يزيد بن المهلب خراسان وسار يريد طبرستان، فاستجاش أصبهذ الديلم وقاتله يزيد، ثم إنه صالحه على أربعة آلاف ألف درهم وسبعمئة ألف درهم مثاقيل في كل سنة، وأربعمائة وقر زعفران، وأن يخرجوا أربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس وجام فضة ونمرقة حرير.

وفتح يزيد الرويان ودنباند على مال وثياب وآنية، ولم يزل أهل طبرستان يؤدون الصلح مرة ويمتنعون أخرى، حتى كانت أيام مروان بن محمد فغدروا ونقضوا حتى استخلف أبو العباس أمير المؤمنين فوجه إليهم عامله فصالحوه، ثم إنهم غدروا أيضًا ونقضوا وقتلوا المسلمين في خلافة المنصور، فوجه إليهم خازم بن خزيمة التميمي وروح ابن حاتم المهلبى ومعهما مرزوق أبو الخصيب فسألها مرزوق - حين طال عليهما الأمر وصعب - أن يضرباه ويحلقا رأسه ولحيته، ففعلوا ذلك، وتخلص إلى الأصبهذ، وقال: إن هذين الرجلين استغشاني وفعلوا بي ما ترى فإن قبلت انقطاعي إليك وأنزلتني المنزلة التي استحقها منك دللتك على عورات العرب، فكساه وأعطاه وأظهر الثقة به والمشاورة له، فكان يريه أنه له ناصح، فلما اطلع على أموره وعوراته، كتب إلى خازم وروح بما احتاجا إلى معرفته، واحتال للباب حتى فتحه فدخل المسلمون المدينة وفتحوها.

وكان عمر بن العلاء جزارًا من أهل الري فجمع جمعًا وقاتل وأبلى بلاءً جميلًا، فأوفده جهور بن مرار العجلي على المنصور فقوده وجيشه، وجعل له مرتبة، ثم إنه ولي طبرستان فاستشهد في خلافة المهدي وافتتح موسى بن حفص بن عمر بن العلاء ومازيار بن قارن جبال شروين من طبرستان وهي أمنع جبال وأصعبها في خلافة المأمون، ثم إن المأمون ولي مازيار أعمال

طبرستان وذنباوند، وسماه محمدًا وجعل له مرتبة الأصهبذ فلم يزل عليها واليا حتى مات المأمون واستخلف المعتصم بالله فأقره المعتصم على عمله.

ثم إنه كفر وغدر بعد ست سنين من خلافة المعتصم فكتب إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب عامله على خراسان والري وقومس وجرجان يأمره بمحاربته فوجه عبد الله الحسن بن الحسين في رجال خراسان، ووجه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب، وضم إليه من جند الحضرة فلما توافقت الجنود في بلاده حاربتهم فأسر بغير عهد ولا عقد وحمل إلى سر من رأى في سنة ٢٢٥هـ فضرب بالسياط بين يدي المعتصم ضربًا مبرحًا، فمات وصلب بسر من رأى مع بابك على الغيضة التي بحضرة مجلس الشرط، وافتتحت طبرستان فتولاها عبد الله بن طاهر وطاهر بن عبد الله بعده.

وكان قبل ذلك حتى أن صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور بالله كان صاحب طبرستان إذا أحس من عامل خراسان في وقته بضعف لم يعطه الطاعة فلما ولي المنصور الخلافة وقتل أبا مسلم وفعل تلك الأفعال هابه أصهبذ طبرستان فكتب إليه ووجه إليه رسولًا وأعطاه الطاعة وبعث إليه بالالطاف.

ثم إن الأصهبذ استطال أيام المنصور فأمر رسوله بالانصراف من باب المنصور، وأمسك أن يبعث إليه بشيء فلما خالف عبد الجبار بن عبد الرحمن على المنصور وجه إليه أبا عون القائد ومعه أبو الخصب.

فلما أسر عبد الجبار بخراسان كتب المنصور إلى أبي الخصب بولايته قومس وجرجان وطبرستان وأمره أن يدخل من طريق جرجان، ويدخل أبو عون من طريق قومس، وتواعدا لدخول البلد من الوجهين، وكان الأصهبذ في مدينة يقال لها: الأصهبذان، بينها وبين البحر ميلان فبلغه خبر دخول الجيش فهرب إلى الجبل إلى موضع يقال له: الطاق، وكان هذا الموضع خزانة

لملوك فارس، وكان أول من اتخذ هذا الموضع خزانة منوشهر وهو نقب في موضع الجبل كان يقوم بحفظها رجلان معها زادهما ومعهما سلم من جبل يدلونه من رأس الجبل إلى من يريدون إصعاده إليه وإلا فليس إليها طريق بته فصارت بعد ذلك إلى المازيار فأخذ ما فيها.

وذكر سليمان بن عبد الله أن إلى جانب هذا الطاق شبيهاً بديكان وأنه إن صار إليه إنسان فيلطحه بعذرة ارتفعت سحبات عجيبة ومطرت عليه حتى تغسله وتنظفه، وإن ذلك مشهور في ذلك البلد يعرفه أهل الصقع لا يبقى عليه شيء من الأقدار في صيف ولا شتاء.

فلما هرب الأصهبند إلى الطاق وجه أبو الخصيب في أثره قواداً وجيشاً ونزل سارية فوضع بها منبراً وبأمل منبراً، وبنى لهما مسجدين ووضع على أهل البلد الخراج والجزية فلما تمكن في البلد هرب الأصهبند إلى الديلم وعاش بعد هربه سنة ثم مات.

وكانت ولاية أبي الخصيب طبرستان سنة وستة أشهر، ثم وليها أبو العباس الطوسي، ثم ابن خزيمة ستين، ثم ولي روح بن حاتم بن ماهويه ستين وستة أشهر، ثم خالد بن برمك خمس سنين، وعمل بها العجائب وظفر بخزائن ملوك فارس في الطاق وبنات المصمغان، وولي عمر بن العلاء أربع سنين، ثم ولي سعيد بن دعلج ستين، ثم ولي عمر بن العلاء ثانية ستين، ثم ولي تميم بن سنان ثلاث سنين، ثم وليها خلق كثير الواحد بعد الآخر سنة وستين أقل وأكثر، حتى وليها طاهر بن الحسين وابنه عبد الله بن طاهر ثم طاهر بن عبد الله ثم محمد بن طاهر.

وكان خليفته عليها سليمان بن عبد الله بن طاهر فخرج عليه الحسن بن زيد العلوي في سنة ٢٥٠هـ فأخرجه عنها وغلب على البلد إلى أن مات سنة ٢٧١هـ وقام مكانه أخوه محمد بن زيد.

وذكر أبو يزيد بن أبي غياث قال: رأيت في النوم سنة ٢٤٨هـ وأنا بمدينة الري وقد بتنا على فكر من الاختلاف بين القائلين بالسيف، وبين أصحاب الإمامة فقال قائل منا في اليقظة: قد قال أمير المؤمنين: الخير بالسيف والخير في السيف والخير مع السيف فأجابه مجيب والدين بالسيف، وقد أمر الله - جل وعز - نبيه أن يقيم الدين بالسيف، ثم تفرقنا فلما كان من الليل، وأخذت مضجعي من النوم رأيت في منامي كأن قائلًا يقول:

هذا ابن زيد أتاكم ثائر حرد	يقيم بالسيف دينًا واهي العمدة
يثور بالشرق في شعبان منتضيًا	سيف النبي صفى الواحد الصمد
يفتح السهل والأجبال منفتحًا	من الكلار إلى جرجان بالجلد
وأملاً ثم شالوسًا وغيرهما	بين الجزائر من رويان فالبلد
ويصرف الخيل عنها بعد ثلاثة	من السنين إلى الزوراء بالعمدة
فيهدم السور منها ثم ينهبها	ويقصد الثغر من قزوين بالحردة
ويملك القطر من خراسان ساكنه	ما لاح في الجو نجم آخر الأبد

قال: وورد محمد بن رستم الكلاري ومحمد بن شهر ياران الروياني من آل معدان الري سنة ٢٥٠هـ وكانا يريان السيف فطلبها بها رجل من العلوية شيخًا يقيمونه بطبرستان ليدفعوا جور سليمان بن عبد الله، فلم يزالوا يطلبون ويفتشون حتى وقعت خيرتهم على الحسن بن زيد فبايعوه في شهر رمضان من هذه السنة، وخرجوا يوم الاثنين لسبع بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٠هـ فخُطِبَ للحسن يوم الفطر بالكلار والرويان ولم يبلغ مدته الأضحى، حتى

أخرج سليمان عنها؛ لسوء سيرته وتراخى آل طاهر بخراسان، فلما حضرته الوفاة جعل الأمر لأخيه محمد بن زيد فلم يزل عليها حتى دخل سنة ٢٨٤هـ.

وكان المعتضد بالله كتب إلى عمرو بن الليث الصفار وأمره بمواقعة رافع لما بلغه من ميل رافع إلى محمد بن زيد، وإنكاره قتل المعتمد وجلس المعتضد في الخلافة فصار إلى خراسان وأعمل الحيلة في رافع وأوقع به فأنهزم فأخذ قريباً من خوارزم فقتل، وحمل رأسه إلى مدينة السلام، وصفت خراسان للصفار فلما كان في سنة ٢٨٥ هـ كتب المعتضد إلى الصفار يأمره أن يطلب إسماعيل بن أحمد، وأنه قد ولاه عمله وكتب إلى إسماعيل بمثل ذلك فسار الصفار نحو إسماعيل بجيشه فالتقوا بناحية نسا ويورد وقتل فيما بينهما مقتلة عظيمة، وانصرف كل واحد منهما إلى بلاده.

حتى إذا دخلت سنة ٢٨٧ هـ سار إسماعيل نحو الصفار، والصفار في مائة ألف بمدينة بلخ فحاصره فخرج إليه الصفار فلما التقيا تفرقت خيل الصفار، وأخذ أسيراً مع جماعة من وجوه قواده وحمل إلى مدينة سمرقند، ثم بعث به إلى بغداد واتصل الخبر بمحمد بن زيد فطمع في جرجان وسار نحوها ونزل عليها فوجه إليه إسماعيل محمد بن هارون فواقعه على باب مدينة جرجان فأهزمه، وأصيب أصحابه، ووجد محمد بن زيد، قتيلاً وأسر ابنه زيد وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شوال سنة ٢٨٧ هـ.

وانهزم أصحابه حتى وافوا طبرستان، فلما اجتمعوا بها تأمروا فاتفقوا على أن يجعلوا الأمر للمهدي بن زيد بن محمد، وهو يومئذ صبي لم يدرك، وذلك في يوم الجمعة ونادى في الناس أن يجتمعوا للبيعة وكان في قواده رجل يعرف بالزرد، وكان قد طابقتهم على ما أجمعوا عليه فلما قربوا من باب المسجد نشر الزرد أعلاماً سوداً، ووضع في أصحاب محمد بن زيد السيف فقتل منهم

مقتلة عظيمة وخطب للمعتضد بالله على منابر طبرستان سنة ٢٨٧هـ فكان بين أول ولايتهم إلى أن خرجت عنهم ثمان وثلاثون سنة.

قالوا: ومن عجائب طبرستان دويبة سوداء براقه تظهر أيام العنب فقط قدرها دون الخنصر طولاً ذات ألف قائمة، وهي قوائم قصار نابتة على بطنها فإذا تحركت فكأنها أمواج تضطرب، وبها دويبة في عظم الثعلب له شعر كشعر الدلق، وله جناحان لاصقان كأجنحة الخشاشيف، وله أنياب ويطعم الثمار، وقد حمل إلى المتوكل من خراسان ثعلب يطير بجناحين له وكنوا بطبرستان.

ووجه الدوانيق خالد بن برمك إلى طبرستان لمحاربة الأصبهيد، وكانت الأكاسرة أيام هربهم من العراق إلى مرو أودعوا هذا الجبل نفيس أموالهم؛ لصعوبته فوجد في خزائهم من الجواهر والتيجان والمناطق والسيوف المكلفة بالدر والياقوت والزمرد ما لا قيمة له، فكان أهل طبرستان بعد هذا الفتح يصورون على تراسهم خالد بن برمك والمجانيق التي كان يرميهم بها.

فأما الأصبهيد فشرب السم ومات، وأما المصمغان فخرج ونساءه وأتوا خالدًا وجلس بين يديه على التراب فرق له وأجلسه على البساط، وبعث به إلى المنصور مع بنات المصمغان وأمهن بنت الأصبهيد فصارت واحدة إلى المهدي فولدت له إسماعيل بن محمد، وأخرى صارت إلى العباس بن محمد بن علي أخي أبي الدوانيق فولدت له إبراهيم بن العباس، وكانت شكلة أم إبراهيم في ذلك السبي فصارت إلى عبد الصمد بن علي ثم صارت إلى المهدي فولدت له إبراهيم، وبني خالد بطبرستان المنصورة واتخذ بها سوقًا.

القول في خراسان

قال دغفل: خرج خراسان وهيطل ابنا عالم بن سام بن نوح لما تبلبلت الألسن في يوم واحد، فنزلوا بلادهم التي هي تسمى بهم إلى اليوم، فأما هيطل فولده من وراء نهر بلخ، وتسمى تلك البلاد الهياطلة، وبقي خراسان من هذا الجانب.

وقال شريك بن عبد الله: خراسان كنانة الله إذا غضب على قوم رماهم من كنانته.

وقال الشعبي: كاني بهذا العلم وقد تحول إلى خراسان، وقال أبو محمد بن مسلم بن قتيبة: أهل خراسان أهل دعوة وأنصار الدولة، ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاءً وهم قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك فارس، وقتلوا كسرى بن قباد بن هرمز، وأهل خراسان انتزعوا الملك من بني أمية من أكبر ملوكهم سنًا وأشدّهم حنكة وأحزمهم رأيًا وأكرمهم عدة وعديدًا وأعقلهم كاتبًا ووزيرًا وسلموه إلى أبي العباس.

وقد كان محمد بن علي بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار: أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعدواة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان.

فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام

ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة
تخرج من أجواف منكرة.

وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدينا ومصباح الخلق.

وقال قحطبة بن شبيب: قال محمد بن علي بن عبد الله: يأبى الله - جل
وعز - أن يكون شيعتنا إلا أهل خراسان لا ننصر إلا بهم ولا ينصرون إلا بنا،
إنه يخرج من خراسان سبعون ألف سيف مشهور، قلوبهم كزبر الحديد،
أسماءهم الكني وأنسابهم القرى يطيلون شعورهم كالغيلان يطوون ملك بني
أمية طياً ويزفون الملك إلينا زفاً، وانشد لعصابة الجرجاري:

المدار داران إيوان وغمندان	والملك ملكان سلسان وقحطان
والناس فارس والإقليم بابل وال	إسلام مكة والدنيا خراسان
والجانبان العتيدان أليذا خشيا	منها بخارا وبلخ الشاه وأران
قد ميز الناس أفواجا ورتبهم	فمرزبان وبطريق ودهقان

وخراسان طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة التربة عذبة الثمرة، وأهلها في
إحكام الصنعة، وتمام الخلقة وطول القامة وحسن الوجوه، وفراهم المركب
من البراذين والشهاري والإبل والحمير وجودة السلاح والدروع والثياب،
كانها قطعة من بلاد الصين في إحكام الصناعات، وهم أهل تجارة وحكم
وعلم وفقه وجيرانهم الترك أشد العدو بأساً أغلظهم إكفاراً وأصبرهم على
البؤس وأقلهم تنعماً.

فأهل خراسان جنة للمسلمين دون الترك، وهم يشخنون فيهم القتل
والأسر، وقد جاء في الحديث «تاركوا الترك ما تاركوكم» ويروى عن بريدة
قال: قال: رسول الله ﷺ «يا بريدة إنه ستبعث بعدي بعوث فإذا بعثت فكن في
بعث المشرق، ثم كن في بعث خراسان، ثم كن في بعث أرض يقال لها: مرو فإذا

أتيتها فانزل مدينتها فإنه بناها ذو القرنين وصلى فيها عزيز، أنهارها تجري عليها بالبركة على كل نهر منها ملك شاهر سيفه يدفع عن أهلها سوء إلى يوم القيامة» فقدمها بريدة ومات بها.

وقد جهد الطاعن على أهل خراسان أن يدعي عليهم البخل، ويشنع بمثل قول ثمامة: إن الديك بكل بلد لا قط إلا بمرور فإنه يسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب وهذا كذب ظاهر للعيان، وما ديكة مرو إلا كالديوك في جميع الأرض.

ولأهل خراسان أجواد مبرزون، وأنجاد مشهورون لا يجارون ولا يبلغ شأوهم منهم البرامكة لا نعلم أن أحداً قرب من السلطان قريبهم، ولا أعطى عطاءهم ولا صنع صنيعهم، واعتقد بيوت الأموال في خزائن الخلفاء مثل عاقدهم، ومن المشهور عنهم أنه لم يكن لخالد بن برمك أخ إلا بنى له داراً على قدر كفايته، ثم وقف على أولاد الإخوان ما يعيشهم أبداً ولم يكن لأحد من إخوانه ولد إلا من جارية وهبها له، ومثل القحاطبة وعلي بن هشام وعبد الله بن طاهر، وخبر عنه أنه فرق في مقام واحد ألف ألف دينار، وهذا يكبر أن يملك فضلاً عن أن يوهب، وهذا عبد الله بن المبارك في سخائه وزهده.

فأما أهل فارس فكانوا في سالف الدهر أعظم الأمم ملكاً وأكثرهم أموالاً وأشدّهم شوكة، وكانت العرب تدعوهم الأحرار؛ لأنهم كانوا يَسْبُون ولا يُسْبُون وَيَسْتخدمون ولا يُسْتخدمون، ثم أتى الله - عز وجل - بالإسلام فكانوا كناراً أخذت، وكرماد اشتدت به الريح، فمزقوا كل ممزق فلم يبق في الإسلام منهم شريف يذكر إلا أن يكون عبد الله بن المفتح والفضل بن سهل، وأهل خراسان دخلوا الإسلام رغبة وطوعاً.

وقالوا: الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ منها: السودان اثنا عشرة ألف فرسخ، والروم ثلاثة آلاف فرسخ، وفارس ثلاثة آلاف فرسخ، وأرض العرب ألف فرسخ.

فأهل خراسان من فارس وإن كانت أوسع منها، وفي الحديث: أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: غلبتنا عليك هذه الحمراء يعني العجم. فقال علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموه عليه بدأ» فإذا نحن طلبنا مصداق ذلك في العجم وجدناه في أهل خراسان؛ لأنهم الذين ضاربوا السيوف العرب غضباً لدين الله وإنكاراً لسيرة بني أمية حتى نقلوا الملك من الشام إلى العراق.

وروى زيد بن أبي زياد عن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن أهل بيتي يلقون بعدي بلاءً وتطريدًا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود يسألون الحق فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملاؤها جوراً فمن أدرك ذلك منكم.....»

وروي عن النبي - عليه السلام - أنه لما بعث عبد الله بن حذافة السهمي... كتب فيه كتاباً بدأ فيه بنفسه فلما قرأه كسرى غضب ومزقه وبعث إليه بتراب فقال النبي - عليه السلام -: «مزق كتابي أما إنه سيمزق بأمرته وبعث إلي بتراب، وأما إنكم ستملكون أرضه» فكيف يكون البقية لمن أعلمنا الرسول - عليه السلام - أنهم سيمزقون؟ لا جرم أنهم قد خملوا ودرسوا ومزقوا وفي بعض القول كفاية.

قال الشاعر:

كفاني بغضاً أن أجر عداوة بقول أري في غيره متوسطاً

وذكر على بن أحمد المدائني أن أول فتوح خراسان: الطبيين وهما بابا خراسان فتحهما عبد الله بن بديل بن ورقاء.

ومن الري إلى دامغان ٨٠ فرسخًا، ومن دامغان إلى نيسابور مثل ذلك فكان من الري إلى نيسابور ١٦٠ فرسخًا، ولنيسابور قهندز وهي إحدى كور خراسان ولها من المدن: زام باخرز وجوين وبيهق ولها اثنا عشر رستاقًا في كل رستاق مائة وستون قرية، ومن نيسابور إلى سرخس ٤٠ فرسخًا، ومن سرخس إلى مرو - مدينة خراسان - ٣٠ فرسخًا وتسمى مرو الشاهجان؛ لأنها كانت للملك خاصة والشاه الملك والجان النفس فقيل: تلك مزح الروح.

وسميت مرو الروذ؛ لأنه لم يكن بها بناء فبعث إليها كسرى ناسًا من أهل السواد فبنوها وسكنوها، قال: ولما غلب أردشير على ملك النبط فرأى جاهلهم وعقولهم قال: ما أخوفني إن حدث بي حدث أن يعود الملك إلى هؤلاء فقبرض لهم فرضًا، وبعث منهم بعتوثًا وأغزاهم خراسان، فأهل مرو من النبط، وفرقهم في البلاد إلا من ليست عليهم منه مؤنة من أهل الذلة.

وعن قتادة في قوله تعالى ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، قال أم القرى بالحجاز مكة، وبخراسان مرو.

ولما ملك طهومت بنى قهندز مرو وبنى مدينة بابل ومدينة ابراهيم، وهي بأرض قوم موسى وبنى مدينة بالهند يقال لها: أفرق في رأس جبل، ويقال: إن قهندز مرو لما بناه طهومت بناه بألف رجل وأقام لهم سوقًا فيها الطعام والشراب، فكان إذا أمسى الرجل أعطى درهمًا فاشترى به طعامه وجميع ما يحتاج إليه فيعود الدرهم إليه، فلما فرغ من البناء قدروا وحسبوا فإذا قد خرج فيه ألف درهم، وكان بمرو بيت يقال له: كي مرزبان عجيب البناء يزعم أهل مرو أنه كان طلسمًا لهم فخرّب.

ووفد علي بعض الخلفاء رجل من أهل خراسان معه عقل وأدب ومعرفة بأهلها.

فقال له: أخبرني من أصدق أهل خراسان؟

قال: أهل بخارا.

قال: فمن أوسعهم بذلاً للخبز والملح؟

قال: أهل الجوزجان.

قال: فمن أحسنهم ضيافة؟

قال: أهل سمرقند.

قال: فمن أسوأهم طاعة وأذهبهم بنفسه؟

قال: أهل خوارزم.

قال: فمن أحسنهم فطنة وأبعدهم غوراً؟

قال: أهل مرو الروذ. قال: فمن أصحهم عقولاً؟

قال: أهل طوس إن رضى أهل نسا.

قال: فمن أكثرهم جدلاً وشغباً؟

قال: أهل سرخس.

قال: فمن أضعفهم رأياً وتديراً؟

قال: أهل نيسابور.

قال: فمن أقلهم غيره؟

قال أهل هراة.

قال: فمن أجهلهم بالخالق؟

قال: أهل بوشنج.

قال: فمن أرماهم؟

قال: أهل جرجانية خوارزم.

قال: فمن أدقهم نظرًا؟

قال: أهل مرو وأنشد:

مياسير مرو من يجود لضيفه	بكرش فقد أمسى نظيرًا لحاتم
ومن رش باب الدار منهم بغرفة	فقد كملت فيه خصال المكارم
يسمن بطن الشاة طاؤوس عرسهم	وعند طبيخ اللحم ضرب الجماجم
فلا قدس الرحمن أرضًا وبلدة	طاوويسهم فيها بطون البهائم

وكان المأمون يقول: استوى الشريف والوضيع من أهل مرو في ثلاثة أشياء: البطيخ البارنك، والماء البارد - يعني ماء اليخ -، والقطن اللين.

ويمرو الرزيق والماجان نهران عجيبان ومنهما يسقون الضياع والرساتيق.

ويروى عن إبراهيم بن شماس قال: قدمت على عبد الله بن المبارك قدمة من سمرقند إلى مرو فأخذ بيدي فأخرجني فأطاف بي حول سور مدينة مرو، فقال: يا إبراهيم من بنى هذه المدينة؟

قلت: لا أدري يا أبا عبد الرحمن.

قال: فمدينة مثل هذه لا يعرف بانيها وسفيان الثوري مات وليس له كفن اسمه حي إلى يوم القيامة.

وروى أبو حفص عمر بن مدرك قال: كنت عند أبي إسحاق الطالقاني يوماً بمرو على الرزق في مسجد الجامع فقال أبو إسحاق: كنا عند ابن المبارك وأنهار القهندز فتناثرت منه جماجم فتصدعت جمجمة وتناثر أسنانها فوزن سنان منها فكان في كل سن منها منوان بأربعة أرطال فأتى بهما ابن المبارك فأخذ سناً منها فجعل يرطله بيده ثم أنشأ يقول:

أتيت بسنين قد رميا	من الحصن لما أثاروا الدفينا
على وزن منوين أحدهما	ينوء به الكف ثقلاً زمينا
ثلاثون أخرى على قدرها	تباركت يا أحسن الخالقينا
فما ذا يقوم لأفواهها	وما كان يملأ تلك البطونا
إذا ما تذكرت أجسامهم	تصاغرت النفس حتى تهونا
وكل على ذاك لاقى الردى	وبادوا جميعاً فهم خامدونا

وقال البلاذري: خراسان أربعة أرباع:

فالربيع الأول: إيران شهر وهي نيسابور وقهستان والطبسين وهراة وبوشنج وباذغيس وطوس، واسمها طابران.

والربع الثاني: مرو الشاهجان وسرخس ونسا وبارد ومرو الروذ وطالقان وخوارزم وزم وآمل، وهما على نهر بلخ وبخارا.

والربع الثالث: فهو في غربي النهر وبينه وبين النهر ٨ فراسخ الفارياب والجوزجان وطخارستان العليا، وهي الطالقان والختل وهي وخش والقواديان وخست وأندرابة والباميان وبغلان والنج وهي مدينة مزاحم بن بسطام، ورستاق بنك وبدخشان وهي مدخل الناس إلى التبت ومن أندرابة مدخل الناس إلى كابل والترمذ هي في شرقي بلخ والصغانيان وزم وطخارستان السفلى وخلم وسمنجان.

والربع الرابع: ما وراء النهر بخارا والشاش والطرايرند والسغد وهو: كِسْ ونسف والروبيستان وأسروشنة وسنام قلعة المقنع وفرغانة والشمرقند وأباركت ويناكت والترك.

ويسمرقند أربعة أبواب: باب كِسْ وباب الصين وباب أسروشنة وباب الحديد، وبين سمرقند وأسروشنة نيف وعشرون فرسخًا، وخجندة متيامنة عن أسروشنة إلى ناحية الجبل، والباميان إلى ناحية كابل.

ومن مرو طريقان أحدهما إلى الشاش والآخر إلى بلخ وطخارستان فمن مرو إلى مدينة بلخ ١٢٩ فرسخًا، وهي ٢٢ منزلًا.

وبلخ بناها ذو القرنين وبها النوبهار وهو من بناء البرامكة وكانت البرامكة، أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف وكان دينهم عبادة الأوثان، فوصف لهم مكة وحال الكعبة بها، وما كانت قريش والعرب تدين به فاتخذوا عليه بيتًا يقال له: النوبهار ببلخ وتفسيره الجديد فكانت العجم تعظم ذلك البيت وتحج إليه وتهدي إليه وتلبسه الحرير وتنصب الأعلام على القبة واسمها عندهم الاشبت وكانت القبة مائة ذراع في مثلها بأروقة مستديرة

حولها وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة يسكنها خدامه وقوامه على كل خادم خدمة يوم فلا يعود إلى خدمته إلى الحول فسموا سادتها الأكبر برمكا . أي: إنه باب مكة، ووالي مكة، فصار كل من ولي منهم ذلك يسمى برمكا .

وكانت ملوك الصين وكابل شاه تدين بذلك الدين، فكانوا إذا حجوا سجدوا للصنم الأكبر فصيروا للبرمك ما حول النوبهار من الأرضين وسبعمائة سيب ماء ورزداقا بطخارستان يقال له: زوان ثمانية فراسخ في أربعة فراسخ، وأهل ذلك الرزداق عبيد كلهم فلم يزل يليها برمك بعد برمك إلى أن فتحت خراسان أيام عثمان بن عفان .

وقد صارت السدانة إلى برمك أبي برمك أبي خالد، فوجه برمك إلى عثمان في الرهائن فورد المدينة ورغب في الإسلام فأسلم وسمى عبد الله، ورجع إلى ولده وصارت البرمكة في بعض ولده فكتب بعض الملوك إلى برمك يعظم ما أتى من الإسلام ويدعوه إلى الرجوع في دين آبائه .

فكتب إليه برمك "إني إنما دخلت فيه اختيارا وعلما بفضلته عن غير رهبة ولا رغبة، ولا أرجع إلى دين بادي العوار متهتك الأستار" فغضب الملك وزحف إلى برمك بجمع كثيف فكتب إليه برمك "قد عرفت حبي للسلامة، وإني إن استنجدت عليك الملوك أنجدوني فانصرف وإلا صرت إلى لقاءك" .

فانصرف عنه ووادعه، ثم لم يزل ذلك الملك - واسمه نازك طرخان - يغتر برمك ويطلبه حتى بيته وقتله وعشرة بنين له فلم يبق لهم برمك سوى برمك أبي خالد فحملته أمه وهربت به وكان صغيرا إلى بلاد قشмир فنشأ برمك وتعلم النجوم والطب وأنوع الحكمة وبقي على شركه وأصابهم وباء فقتلوا بمفارقة دينهم فكتبوا إلى برمك فقدم عليهم فأجلسوه في موضع أبيه فتولى أمر النوبهار فسمي برمكا وتزوج ابنة ملك الصغانيان فولدت له الحسن، وبه كان

يكنى وخالدًا وعمراً وأم خالد وسليمان بن برمك من امرأة غيرها من أهل بخارا، وكان صاحب بخارا أهدى إلى برمك جارية فولدت له كال بن برمك وأم القاسم وبتا أخرى، ولهم أخبار كثيرة وإنما أردنا هذا الخبر بعينه بسبب النوبهار.

وبلخ: جيحون: وهو نهرها العظيم وبينه وبين بلخ ١٣ فرسخًا، والترمذ على النهر وبخارا وجبالها وعيونها وأنهارها من الجانب المتقاضي في الشمال وكل واد يجيء من ناحية الشرق ومن ناحية الدبور، يصب في هذا النهر، وهو يمر حتى يشق خوارزم فيصير إلى البحر الخراساني حتى يدخل الصين، ومن بلخ إلى جيحون ١٢ فرسخًا وذات اليمين على الشط كورة ختل، ونهر الضرغام وذات اليسار مرو وخوارزم واسمها بيل وهي جانبان يشقها جيحون، ويعبر نهر بلخ إلى الترمذ والنهر يضرب سورها ومدينتها على حجر طريق الصغانيان ومن الترمذ إلى الراشت ٦٠ فرسخًا.

والراشت أقصى خراسان من ذلك الوجه، وهي بين جبلين، وكان منها مدخل الترك الغرة فعلق الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك هناك بابًا، ومن بلخ إلى طخارستان العليا ٢٨ فرسخًا.

قال: وفيما بين خراسان وأرض الهند نمل مثل الكلاب السلوقية وأرضهم أرض الذهب فيجيء الناس لأخذ الذهب، فإذا خافوا أن يدركهم النمل طرحوا لهم اللحم فيشتغلون به ويخرجون من الذهب ما أمكنهم ويبادرون هربًا منهم.

وأما الطريق من مرو إلى الشاش فمن مرو إلى آمل ٣٦ فرسخًا، ومن مرو إلى كشمهن، ثم إلى الديوان ثم إلى المنتصف، ثم إلى الأحساء، ثم إلى بئر عثمان، ثم إلى آمل ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ، ومن آمل إلى بخارا ١٧ فرسخًا.

ولبخارا: قهندز ولها من المدن كرمينية وطواويس وفربر ووردانة ويكند مدينة التجار، ومن بخارا إلى سمرقند ٣٧ فرسخًا.

ولسمرقند: قهندز ولها من المدن الدبوسية وأربنجن وكشان وكس ونسف وخجندة، وهي مدينة طيبة كثيرة الخير وأنشدني رجل من أهلها:
ولم أر بلدة بإزاء شرق ولا غرب بأئزه من خجندة
هي الغراء تعجب من رآها وهي بالفارسية دل ببرد

وقالوا: سمرقند بناها الإسكندر، واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخًا، ولها اثنا عشر بابًا من الباب إلى الباب فرسخ، وعلى أعلى الحائط أزاج وأبراج للحرب، والأبواب الاثنا عشر من خشب مصر اعان وفي أقصاه بابان آخران بين البابين منزل للبواب، فإذا جرت المزارع صرت إلى الرض وفيه بانيان وربضها والساقية على ستة آلاف جريب والحائط محاط على رساتيقها وباعاتها وبساتينها، والأبواب الاثنا عشر عليها، ثم تدخل المدينة، وهي على خمسة آلاف جريب، ولها أربعة أبواب قد سُمّيناها في هذا الباب، ثم تدخل المدينة الداخلة، ومساحتها ألفان وخمسمائة جريب، ومسجد جامعها في هذه المدينة وفيها القهندز وفيها مسكن السلطان وفي المدينة ماء يجري.

وأما داخل الحائط الكبير ففيه أودية وأنهار، وعلى القهندز باب حديد في أولها وباب حديد في آخرها، وخربها شمر بن أفريقيس فسميت شمر كند وبناها بعده تبع الأقرون ابن ابن شمر وردّها إلى أفضل ما كانت، ووغل في أرض الصين فقتل ملكها وبنى مدينة تبت، وأسكن بها جيشًا من أصحابه فهم اليوم بها، ولهم فروسية وجلد، وأعطاه ملوك الأرض الطاعة فأنشأ يقول
أبياتًا...

وقال الأصمعي: مكتوب على باب سمرقند بالحميرية: بين هذه المدينة وصنعاء ألف فرسخ، وبين بغداد وأفريقية ألف فرسخ، وبين سجتان والبحر مائتا فرسخ.

وبلاد السغد: كرمانية ودبوسي وسمرقند وأسروشنة وشاش ونخشب أستوركت أنوذكت سام سرك بنكت نوكت نوشكت تونكمت تكت وسيج برنمذ.

وقالوا: ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرقاً من سمرقند وقد شبهها الحضيض بن المنذر الرقاشي فقال: كأنها السماء للخصرة، وقصورها الكواكب للأشرف ونهرها المجرة للاعتراض وسورها الشمس للأطباق.

ومن سمرقند إلى زامين ١٧ فرسخاً، وزامين مفرق طريقين إلى الشاش والترك وإلى فرغانة، فمن زامين إلى الشاش ٢٥ فرسخاً، ومن الشاش إلى الفنجهير - معدن الفضة - ٧ فراسخ، وإلى باب الحديد ميلان، ومن الشاش إلى بارجاخ ٤٠ فرسخاً.

وبارجاخ: تل عظيم حوله ألف عين تجيء إلى المشرق تسمى بركوب أي: الماء المقلوب صيده تدارج سود.

ومن الشاش إلى اسبيجاب ٢٢ فرسخاً ومن اسبيجاب إلى موضع ملك كيماك مسيرة ٨٠ يوماً يحمل فيها الطعام والطريق من زامين إلى فرغانة، ومنها إلى سباط فرسخان ثم إلى أسروشنة ٧ فراسخ.

فمن سمرقند إلى أسروشنة ٢٦ فرسخاً، ومن سباط إلى علوك ٤ فراسخ ثم إلى خجندة ٤ فراسخ.

فمن سمرقند إلى فرغانة ٥٣ فرسخًا ومن سمرقند إلى أوزكند ١٢٠ فرسخًا، وبقرّب أوزكند مدينة أوش على مسيرة ٧ فراسخ، وهي التي ينصرف الخماره بها، ومن نوشجان الأعلى إلى مدينة خاقان التغزغز مسيرة ٣ أشهر في قرى كبار وخصب.

وجميع خراج كور خراسان وما ضم إلى عبد الله بن طاهر من الكور والأعمال أربعمائة وأربعون ألف ألف وثمانمائة ألف وسبعة وأربعون ألف درهم، ومن الدواب ثلاث عشرة دابة، ومن الغنم ألفا شاة، ومن السبي ألفا رأس واثنتان وعشرون، ومن المرور وصفائح الحديد ألف وثلثمائة قطعة نصفين.

وأجناس الأتراك: التغزغز، وبلادهم أوسع بلاد الترك، وحَدّهم الصين والتبت والخزلخ والغز والبجناك والتركش وأركش وخفجاخ وخرخيز.

فجميع مدائن الترك ست عشرة مدينة.

والتغزغز: عرب الترك، وقالوا: لا تضع الشاة بالترك أقل من أربعة، وإذا أكثر فخمسة، أو ستة شبه الكلبة، فأما الاثنان والثلاثة فلا تضع إلا في الفرد وهي كبار جدًا، ولها ألياء عظام تجرّها بالأرض.

وفي بلادهم السّمور الكثير، والفنك: وهم رماة الحدق، وفي بلادهم يقع الحتو الجيد، وهو قرن يكون في جبهة دابة هناك، والغالب على الأتراك مذهب الزنادقة.

ومن عجائب الترك حصاة يستمطرون بها ما شاءوا من مطر وثلج، وهذا عندهم مشهور لا ينكره أحد من الأتراك، وهو عند ملك التغزغز خاصة ليس

عند أحد من ملوك الأتراك غيره، ويقال: إنهم أخذوها في بلاد مطلع الشمس عن أظف كانت هناك تستتر بها من الشمس؛ لثلاث تحرقها.

وحكى إسماعيل بن أحمد أنهم لما حاربوه فعلوا مثله، وأنه رجع عليهم بالبرد فقتلهم من آخرهم، وأن إسماعيل تضرع إلى الله، وبكى ودعا الله، فرجعوا عن آخرهم وظفر بهم إسماعيل.

قال أفلاطون: لا يُعرف في الترك الوفاء، ولا في الروم السخاء، ولا في الخزر الحياء، ولا في الزنج الغم، ولا في الصقلب الشجاعة، ولا في السند العفة.

وما سقط من باب طبرستان اسم مدينة جرجان شهرستان، وتصير منها إلى مدينة أسترآباد ١٤ فرسخًا، ومن أسترآباد إلى طميس ٧ فراسخ، ومن طميس إلى نامية ٩ فراسخ، ومن نامية إلى المراسك ٨ فراسخ.

وحدّ جرجان من حدّ طبرستان إلى رباط حفص، وبينهما ٩ فراسخ، ثم إلى مدينة جرجان ٧ فراسخ.

تم الاختصار

والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين



